سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



حصاد

ندوة الدراسات العُمانيّة

ذوالحجة ١٤٠٠هـ - نوفمبر ١٩٨٠م

المجلد السادس

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٠٠٢
الرقم الخاص : ٠٨٠

الآراء والمعلومات الواردة فى هذه البحوث
تعبر عن رأى الباحثين وعلى مسئوليتهم

المعاملات بين الصين والعرب
في العصر الوسيط

بروفسور ذانج هو

Relations Between Oman and China

Prof. Zhang Who

إننا سنتناول فى حديثنا الأحداث التاريخية التى جرت أثناء الزيارات الودية بين الشعبين الصينى والعربى فى الفترة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن السابع عشر بعد الميلاد ، أى منذ أسرة هان إلى أسرة مينج فى الصين • ونظراً لندرة المواد التى أعرفها عن العرب ، فإن الذى أعرضه هنا مبنى على أساس المواد التى حصلت عليها فى الصين •

وسأقسمها إلى خمس فترات كما يلى :

١ ــ المعاملات الودية قبل القرن السابع الميلادى :

إن الشعب الصينى من دون الأمم المختلفة التى كانت تعيش وتنتشر وتتكاثر فى شرق قارة آسيا ، كانت له معاملات وعلاقات مع جيرانه • ولقد ثبت منذ أوائل مرحلة ما قبل الإمبراطورية ، أى قبل القرن الثانى للميلاد أن الصين كانت تتعامل مع آسيا الوسطى والغربية • ونستطيع أن نجد فى المواد الحقيقية الملتزمة بعض أسماء آسيا الوسطى فى الكتب القديمة التى ظهرت فى مرحلة ما قبل الإمبراطورية • فمثلا هناك أسماء دا ــ كسيا (بكتريا) فى كتاب **لو ــ ش ــ شان ــ كيو** (حوليات الربيع والخريف للسيد لو) ، دا ــ كسيا ، **يو ــ شى فى كتاب جى ــ جو ــ شو** (كتب الجو المفقودة) ، دا ــ كسيا ، يو ــ جى فى **شان ــ هاى ــ جنج** (أدب الجبال والأنهار) ، **مو ــ تيان ــ زى ــ جوان** (تقرير عن رحلات الإمبراطور مو)، وهو يحكى قصة الحملة التى قام بها الامبراطور (مو) إلى الغرب فى أسرة جو (وقد حكم الصين من عام ٩٧٦ ــ ٩٢١ قبل الميلاد) • وهى قصة تقليدية وغير قابلة للتصديق نوعاً ما ، وتبين المعارف الجغرافية عن آسيا الوسطى والغربية التى امتلكها أسلافنا فى العصور القديمة •

على أن التاريخ يذكر أن الرجل الذى سلك الطريق بين الصين وآسيا الوسطى هو جانج كيان (؟ ــ ١١٤ قبل الميلاد) • وفى عام ١٣٨ قبل

الميلاد أصدر الامبراطور وو — دى ، من أسرة هان ، أمراً إلى جانج كيان بالذهاب إلى غرب آسيا كسفير للأمبراطور لأور مرة • وقد مر ببلدان كثيرة مثل د — كسيا (فيرغانا) ، (أيو — شى) ، دا — كسيا كانج — جو (سوجد يانا) ، وواجه أخطاراً كثيرة وأخيراً عاد أدراجه إلى بلاده عـام ١٢٦ قبل الميلاد • وفى عام ١١٥ قبل الميلاد ، صدرت إليه الأوامر أيضـا بالعـودة إلى غرب آسيا ، ووصل إلى وو — ص (ايلى — Ili) ، وأوفد مندوبين آخرين إلى دا — وان — كانج — جـو ، دا يوى — شى ، دا — كسيا ، آن — كِس ، (إيران) شـن — دو (الهنـد) يو — تيان وهكـذا • وقد اصطحب معظم هؤلاء المندوبين ممثلين عن البلاد التى زاروها فى عودتهم إلى الصين ، وبذلك بدأ تبادل العلاقات بين حكومة الصين والبلدان الواقعة فى الغرب • لقد كان نجاح أسرة جانج كيان باهراً وصعباً أيضا • وبعـد ذلك عمد إلى إزالة الشكوك السياسية والعمليات العدائية عند جميع القبائل والأمم التى تقيم فى غرب آسيا واستمر الحال كذلك حتى أسرة هان ، وكان عليه من ناحية أخرى أن يتغلب على الصعاب الجغرافية فى اجتياز السلاسل الجبلية • وكتب سيما كيان (١٤٥ — ٨٧ قبل الميلاد) ، وهو مؤرخ مشهور عاش فى نفس الفترة ، يقـول : « وحينما اعتمـد جـانج كيان كسفير للإمبراطور ، بلغ عدد أعضـاء الوفد المرافق له أكثر من مائة واستمروا فى تجوالهم زهاء ثلاثة عشر عاما ولم يعد منهم سوى اثنين • وليس من غير المعقول أن سيما كيانج قد أشاد بهذه الرواية التى تقول إن « جانج كيان » هـو الذى شق الطريق التى لم تكن موجودة قبل ذلك [1] •

لقد توجه جانج كيان فى سفارة مرتين ، وعاد بمعلومات وافية عن آسيا الوسطى والغربية • ولعله كان هو وأتباعه قد جمعوا بعض المعلومات عن العرب من الفرس وسموا بلاد العرب ببلاد تياو — جى ، والسبب فى ذلك هو أن الفرس كانوا يسمون العرب « التاجوك » • ومن كتاب **شى — أى** (Shi - ii) (والسجل التاريخى الذى صدر عام ٩١ قبـل الميلاد) وكتاب **كيان هان — شـو** (تاريخ أسرة هان السابقة الذى صدر فى عام ٨٤

بعد الميلاد) ، نجد سجلات عن تياو — جى ، التى تعتبر السجلات الرسمية الأولى عن العرب فى كتب التاريخ الصينية •

ومنذ ذلك الحين أوفدت أسرة «هان» مندوبين كثيرين إلى آن — كس ، نى — كسوان ، (شرق روما) ، تياو — جى ، شن — دو وغيرها من البلدان • وكانت كل مجموعة من الوفود تضم مائة أو عدة مئات من المندوبين • وعلى العموم كان عدد أعضاء كل بعثة يزيد عن عشرة ، وقد أوفدت فى عام واحد خمسة أو ستة وفود على الأقل • وقضى بعض هذه الوفود ثمانية أو تسعة أعوام ، واستغرقت رحلة بعضها سنتين أو ثلاث سنوات • لقد كان ذلك رائعاً فى تلك العصور • وكانت البعثات التجارية تلك تحمل معها الحرير والمجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة ، وكانت تعبر الممر الواقع غربى النهر الأصفر وتجتاز سلاسل الجبال حتى تصل إلى آسيا الوسطى وآن — كسى ، وتياو — جى ، ثم تنقل تلك السلع إلى أوروبا • وكان ذلك يعرف بـ « طريق الحرير » المشهور وقد نقول أن هذا يعتبر بداية للاتصالات الودية المتبادلة بين الصين والعرب ، ويمكن الرجوع إلى كتب التاريخ للوقوف على ذلك •

وفى أثناء فترة الفوضى التى سادت عهد وانج مانج وهو أول وآخر إمبراطور من أسرة « كسين » الذى جاء عقب نهاية حكم أسرة « هان » السابقة (٩ — ٢٣ بعد الميلاد) ، انسد ذلك الطريق فترة من الزمن وعندما قام حكم أسرة هان فيما بعد • عمل بانج شاو (٣١ — ١٠٢ بعد الميلاد) وهو مستكشف آخر على إعادة فتح هذا الطريق • ووردت ترجمة حياة بانج شاو فى **كتاب هاو هان شو** (تاريخ أسرة هان) الذى كتب فى عام ٤٤٥ بعد الميلاد وجاء فيه « فى عام ٩٤ بعد الميلاد • غزا بانج شاو اليانقى » من جديد واستسلمت له أكثر من خمسين بلداً وقدمت له فروض الطاعة والولاء • وإلى جانب ذلك دانت له جميع البلدان مثل تياو — جى ، وآن — كسى ، الواقعة على بعد أربعين ألف « لى » (٢ لى =

١ كم) ، حتى البلدان الواقعة على السواحل ، وكان هناك مندوب يدعى جان ينج • وقد وصل هذا المندوب بناء على أوامر بانج شاو الى تياو — جى فى عام ٩٧ بعد الميلاد • وعندما كان على ساحل البحر وعلى استعداد للتوجه الى « دا — كين » — (الامبراطورية الرومانية) عن طريق البحر ، الا أنه خشى خطر الإبحار الذى هوله لـه الفرس ، تخلى عن مشروعه ثم مالبث أن عاد أدراجه • ومع أن جان ينج لم يذهب إلى روما ، إلا أنه وصل إلى البحر الغربى حيث لم يسبقه أحد فى الوصول إليه • ولم ترد فى «أخبار الجبال» تفاصيل عن ذلك • ولكنه تحدث عن العادات الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك المنطقة والأخطار التى واجهها • وهناك بفضل خبرة جانج نيج تلقى معلومات أكثر عن شبه جزيرة العرب فى كتاب **هاو هان شو** (Hou Han Shu) • وقد جاء فيه : لقد اتجهت غربا من آن — كسى وقطعت مسافة ٤٠٠ لى « حتى وصلت الى عمان » [٢] • وهذه هى المرة الأولى التى ظهر فيها اسم بلادكم فى كتاب صينى من كتب التاريخ •

وفى معرض الحديث عن أسرة هان (٢٠٦ قبل الميلاد — ٢٢٠ بعد الميلاد) ، تقول إن الصينيين هم الذين فتحوا الطريق براً من شرق آسيا الى غرب آسيا ، وفى الوقت نفسه كان العرب هم الذين فتحوا الطريق بحرا من البحر الأحمر والخليج ، عبر شبه الجزيرة الهندية وشبه جزيرة الملايو إلى جنوب الصين • وتصادف أن علمت أن تكنولوجية بناء السفن فى عمان كانت مشهورة للغاية فى العصور القديمة ، ومما لا شك فيه أن العمانيين قد أسهموا فى تمهيد الطريق بحرا من الغرب إلى الشرق •

ولقد أشاد أميانوس بارسيللينوس (Ammianus Marcellinus) إلى حركة التجارة الصينية فى السوق السنوية فى باتانيا الواقعة على نهر الفرات فى عام ٣٦٠ بعد الميلاد [٣] • وتفيد كتب التاريخ الصينية أن السفن التجارية الصينية قد ألقت مراسيها فى مياه الخليج قبل انتهاء القرن الخامس بعد الميلاد • أى أثناء حكم (ايدو — Idu) أسرة سونج (٤٢٠ = ٤٧٩

بعد الميلاد) [٤] . ويقول المسعودى ، المؤرخ العربى المشهور فى كتابه (مروج الذهب) أن السفن التجارية الصينية زارت الخليج مراراً وتكراراً فى القرن السادس بعد الميلاد . وأبحرت فى نهر الفرات وألقت مراسيها عند الحيرة الواقعة على بعد ثلاثة كيلو مترات من بابل القديمة . وتبادلت التجارة مع العرب هناك . وكانت السفن الصينية فى ذلك الوقت تستطيع أن تبحر رأسا إلى مينائى عمان وسيراف (Siraf) التى كانت تقع عند نهاية الخليج ، ولكنها تحولت إلى خرائب وأنقاض من جراء الزلازل التى وقعت عام ٩٧٧ بعد الميلاد . والبحرين والأبلة (Obolla) والبصرة ، وكانت سفن الموانىء السالفة الذكر تبحر إلى الصين رأساً [٥] إذن يمكن أن نرى أن الطريق البحرى كان حافلا بالنشاط بين الصين والعرب فى ذلك الوقت .

٢ ــ العلاقات الودية من القرن السابع إلى القرن التاسع بعد الميلاد :

(أ) الاتصال الرسمى بين أسرة تانج و (دا ــ شى) (العرب) .

بدأ الاتصال بين الصين والعرب منذ حكم أسرة تانج (٦١٨ ــ ٩٠٧ بعد الميلاد) حتى أسرة سونج (٩٦٥ ــ ١٢٧٩ بعد الميلاد) وأسرة يوان (١٢٧٩ ــ ١٣٨٦ بعد الميلاد) . وازدادت هذه الاتصالات توثقاً على مر الأيام . وقال الدكتور جوزيف نيدهام : « كانت الفترة من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر هى الفترة الصينية ــ العربية الرائعة » [٦] .

لِمَ اتسمت الأمور بالازدهار ؟ فهذا مرده إلى حقيقة أن أسرة تانج كانت أسرة قوية فى الماضى ، وفى الغرب ظهر الإسلام الذى قام النبى محمد صلوات الله عليه بالدعوة إليه وقامت الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وكانت أسرة تانج ، مثل أسرة هان ، تسمى العرب « دا ــ شى » وقد اشتقت من كلمة (تاجيك) أو (تازى) . لقد زار محمد صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام فلسطين وسوريا مع قافلة من قوافل التجارة . وليس ثمة شك فى أنه كان يعرف شيئا عن الصين . وجاء فى حديث شريف لمحمد

صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، ولكن العرب أوفدوا مندوباً رسمياً إلى الصين لأول مرة فى عام ٦٥١ بعد الميلاد أثناء خلافة عثمان بن عفان ، الخليفة الثالث • ومنذ ذلك الحين راح العرب يوفدون مندوبين إلى الصين تباعا • ويمكن أن نعرف من المواد التاريخية المتخلفة عن أسرة تانج أن دا — شى أوفدوا مندوبين رسميين إلى الصين زهاء ٣٩ مرة على مدى ١٤٧ عاما ، أى من عام ٦٥١ الى ٧٩٨ بعد الميلاد أى بمعدل مرة واحدة فى مدة تقدر بأقل من أربع سنوات ، وهكذا نجد تعاقب هذه الاتصالات •

ولقد وجدنا من الاتصالات المتبادلة التى سجلتها أسرة تانج روايتين ممتعتين : الأولى بعد أن أطاح أبو العباس بحكم بنى أمية (أى دا — شى) ذوى الملابس البيضاء فى تانج شو عام ٧٥٠ بعد الميلاد وذلك بتأييد من تمرد الشعوب العربية وقامت أسرة العباسيين (آل بنى العباس) (أى العرب ذوى الملابس السوداء فى **تانج شو**) فى عام ٧٥١ بعد الميلاد ، واستطاع أحد قواد أبى مسلم حاكم خراسان فى ذلك الوقت أن يهزم جيش جاد كسيان — شى ، القائد العام لمنطقة آن — كسى الخاضعة لحكم أسرة تانج فى معركة نهر الطلاس (Talas) نتيجة للصراع على شى (التى تعرف الآن بطشقند) مع أسرة تانج • ولكن يبدو أن هذه المعركة لم تؤد إلى تدهور العلاقات بين أسرة تانج ودا — شى (العرب) • وبعد مرور عام واحد على معركة نهر الطلاس أى عام ٧٥٢ بعد الميلاد ، نجد من السجلات أن العربى ذا الملابس السوداء أوفد مندوبين إلى الصين لأول مرة • ومنذ ذلك الحين استمر تبادل الوفود • وكان يحدث أحيانا أن يجرى تبادل وفود عديدة فى خلال عام واحد • ولذلك فإنه ليس غريبا أن يدفع العربى ذو الملابس السوداء فى عام ٧٥٧ بعد الميلاد بجيشه إلى الصين لمساعدة الإمبراطور سوزونج من أسرة تانج لقمع ثورة آن لو — شان • وقد يكون هؤلاء الجنود الذين جاءوا من • دا — شى (بلاد العرب) قد استقروا فى شمال غرب الصين وتزوجوا نساء صينيات ،

وشكل ذلك جزءاً من أقلية جديدة فى الصين فيما بعد • وجاء على لسان أبو جعفر الطبرى • « أنه حينما أنشأ الخليفة العباسى الثانى المنصور مدينة بغداد عام ٧٦٢ بعد الميلاد • قال « إن عندنا نهر الدجلة الذى يصلنا ببلاد نائية كالصين » (٧) ومن هذه الكلمات نستطيع أن نلمس ازدهار العلاقات الودية بين الجانبين فى ذلك الوقت •

ثانياً : وفقا للسجلات الرسمية رحب الإمبراطور سوزونج بمندوب العرب ذوى الملابس البيضاء فى قصره عام ٧٦٠ بعد الميلاد • كان ذلك بعد عشرة أعوام من قيام الحكم العباسى ، إذن من أين جاء مندوب الأمويين ؟ جاء فى تاريخ العرب أن عبد الرحمن الأموى فر إلى أسبانيا حينما قضى العباس على أسرته واتخذ من قرطبة عاصمة له فى عام ٧٥٦ بعد الميلاد وكان فى معزل عن العباسيين وتولى قيادة الإقليم الإسلامى الغربى ، وقد امتد حكم هذه الأسرة تحت اسم الأمويين حتى عام ١٠٠٩ بعد الميلاد • ولعل المندوبين الذين اتجهوا إلى الصين كان قد أوفدهم عبد الرحمن •

ونظراً لاتصال هذه العلاقات الودية ، فإننا معشر الشعب الصينى ، قد غذينا معرفتنا الجغرافية عن العرب • لقد حصل جيا وان (٧٣٠ — ٨٠٥ بعد الميلاد) وهو عالم مشهور من علماء الجغرافيا من أسرة تانج ، على معلومات من العرب وغيرهم من الذين زاروا الصين ووضع كتابه بعنوان **الطريق إلى البلدان الأجنبية عبر البحار إلى كانتون** ، ويصف هذا الكتاب الطرق المختلفة من كانتون إلى البلدان فى دا — شى • ويعتبر هذا الكتاب بالغ القيمة وهو محفوظ الآن فى **كسين تانج شو** (تاريخ أسرة تانج الجديدة) •

وقال جيا دان : « تقع فى غرب الطريق البحرى الممتد من كانتون إلى بلاد العرب ، عند الطرف الجنوبى ، بلاد سان — لان •

ويذكر بعض العلماء أن هذه البلاد هى إقليم بالقرب من زيلع فى الصومال على الضفة الجنوبية لخليج عدن • وإذا اتجهت شمالا ثم شرقا

وتمر عبر بلدان عديدة وتقضى زهاء ستة وثلاثين أو سبعة وثلاثين يوماً فى الطريق • فإنك قد تصل إلى مو — كسون (وكان الشعب الصينى فى عهد أسرة سونج يسمونها ووكسون أيضا) • إن مو — كسون أو ووكسون هما اسم صحار (Sohar) فى بلادكم (أى عمان) ، وكلاهما ترجمة لاسم بازور • وقال جيا وان « وإذا سافرت من مو — كسون متجها شمالا بشرق وقضيت أحد عشر يوما فإنك قد تصل إلى وو — لا (أى أو بولا — Obollah) عند مصب نهر الفرات ، واذا اتجهت بعد ذلك شمالا بغرب وقطعت زهاء ألف (لى) براً ، ومررت بمدينة مو — لو (أى البصرة) فإنك قد تصل إلى بانج — دا (أى بغداد) عاصمة الخليفة • إن هذه السجلات على العموم تتفق مع الظروف الجغرافية لشبه جزيرة العرب •

(ب) العرب يمارسون التجارة فى الصين فى عهد أسرة تانج :

كان هناك فى عهد أسرة تانج عدد كبير من العرب الذين وفدوا إلى الصين كتجار ومسافرين باستثناء عشرات الألوف من الجنود العرب الذين أرسلهم الخليفة العربى (دا — شى) لمساعدة حكومة تانج على قمع حركة التمرد التى أشرنا إليها فيما تقدم •

كانت الموانىء التجارية الرئيسية فى عهد أسرة تانج هى كانتون وكونشو ويانجشو • وجاء فى السجلات التاريخية أن جنود الحكومة الذين قاموا بقمع حركة التمرد فى بانجشو عام ٧٦٠ بعد الميلاد ، عملوا فى السكان نهبا وعمدوا إلى نبش القبور القديمة • وقد لقى ألوف من التجار العرب الفارسيين حتفهم فى خضم تلك الفوضى • إنك تستطيع أن تتصور من ضخامة عدد التجار الأجانب الذين لاقوا حتفهم أن عدد التجار العرب الذين كانوا يقيمون فى بانجشو كان كبيراً جداً •

كانت كانتون هى البوابة التى يعبر منها المرء إلى الصين عن طريق البحر ، ولذلك كان هناك عدد أكبر من التجار العرب فى كانتون ، إن هناك

مادة قيمة موجودة باللغة العربية فى كتاب (**سلسلة التواريخ**) وضعه تاجر عربى يدعى سليمان فى عام ٨٥١ بعد الميلاد • وقد أورد فى هذا الكتاب المخاطرات التى قام بها أثناء ترحاله إلى الهند والصين فى إبان القرن التاسع • وبعد ذلك تولى أبو زيد حسان وهو مؤرخ عربى ، استكمال هذا الكتاب وانتهى منه عام ٩١٦ للميلاد • وجاء فى هذا الكتاب أن الحكومة الصينية كانت تفرض رسوما على الأجانب الذين كانوا يقيمون فى كانتون ، ولذلك فإننا قد نعرف عدد المسلمين واليهود والمسيحيين والزرادشتيين الذين كانوا يقيمون هناك • كان العدد الاجمالى للأجانب يبلغ مائة وعشرين ألف نسمة • وهذا فى الواقع عدد كبير •

وأود على أية حال أن أقول أن هذا الكتاب يروى أنه فى عام ٨٧٩ الميلادى (أى ٢٦٥ للهجرة) حينما قام الثوار الفلاحون بقيادة هوانج تشاو بالاستيلاء على كانتون ، قتلوا جميع سكان المدينة • وقتل معهم الأجانب البالغ عددهم ١٢٠ ألفا • وقد استند بعض العلماء على هذا التقرير وقالوا إن هوانج تشاو قتل جميع الأجانب فى كانتون • ولكن هذا ليس صحيحا • ونظرا لأن ماورد على لسان المؤرخ حسان فى سجلاته أن جميع السكان قد قتلوا واستنتج من ذلك أن جميع الأجانب قتلوا أيضا • ولكن كتب التاريخ الصينية تفيد أن هذا القول يفتقر إلى دليل لتأكيد أن تشاو قتل جميع سكان كانتون • ومن هنا فإن القول بمقتل ١٢٠٫٠٠٠ من الأجانب قول بعيد عن التصديق •

كان هناك عرب أيضا فى كوانشو بالإضافة إلى يانجشو وكانتون • ويقال أن هناك ضريحين على قمة تل لينج — شان للصاحب الثالث والرابع اللذين جاءوا الى هنا فى بعثتين فى عهد أسرة تانج [٨] • وجاء فى مقال نشر أخيراً أن ضريحا عربياً لعربى قد وجد فى كوانشو عام ١٩٦٥ • وتدل الكتابة على شاهد الضريح ان المتوفى قد (توفى فى ربيع الأول فى العام التاسع والعشرين للهجرة) • (أى عام ٦٤٩ الميلادى) [٩] • ولو كان ذلك صحيحا • فإنه سيكون بمثابة دليل بالغ الأهمية •

كانت تشانج ــ آن عاصمــة أسرة تانج • وقــد عبر بعض التجار الأجانب الذين وصلوا إلى كانتون عن طريق البحر سلاسل الجبال واتجهوا إلى هو نجشــو • واستمروا فى طريقهم شرقاً حتى وصلوا إلى يانجشو • ومن هناك أبحروا على طول القناة الكبيرة ومروا بمدينة لويانج وانتهى بهم المطاف فى شانج ــ آن • ولذلك نجد كثيرا من القصص عن التجار الأجانب فى شانج آن بين سجلات أسرة تانج • ولكن للأسف إن هذه السجلات لم تذكر شيئا عن جنسيات هؤلاء التجار • على أننا واثقون من أنه كان هناك عدد كبير من التجار العرب بينهم • ومهما يكن من شىء فإننا نستطيع أن نتبين من الملابس وظهور بعض التماثيل الخزفية واللوحات الزيتية التى اكتشفت فى قبور أباطرة أسرة تانج ، أنهم كانوا عربا •

وليس ثمة شك فى أن الاتصــالات بين أسرة تانج والعرب لم تكن مقصورة على الطرق البحرية فحسب • لأن الاتصالات بينهما عن طريق البر كانت واسعة النطاق أيضا ، وأن تجريد العرب جيشا لمساعدة تانج لقمع ثورة آن لو ــ شان لدليل على قوة هــذه الاتصالات • وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤرخ حسان الذى سبقت الإشارة اليه قــد ذكر فى كتابه ، أن امرؤا قد قابل رجلا فى كانتون كان يحمل جوالا من المســك وكان قادماً من سمرقند • ومر بمدن صينية كثيرة ووصل إلى هناك فى نهاية المطاف •

انك تستطيع ان تتخيل عمق الاتصالات البرية بين الجانبين فى ذلك الوقت •

وفى الخليج ، لم تكن عمان إحــدى الأســواق الرئيسية فحسب ، وإنمــا كانت أيضا ميناء هاماً على الطريق البحرى • وقد ذكر سليمان مسقط مرات كثيرة فى كتابه ، فى حين أن حســان وصف فى كتاباته كلا مــن عمان وسيراف (Siraf) بأنهما ميناءان رئيسيان للتجارة مع الصين ، وقال إنه نتيجــة لثورة هوانج تشــاو ، تأثرت التجارة فى كانتون إلى حد كبير وامتد هذا الأثر عشرات الآلاف من الأميال عبر البحار وكان هنــاك

تجار كثيرون فى سيراف وعمان يعولون عائلاتهم بواسطة التجارة مع الصين فى المـاضى ، ولكنهم أصيبوا بالفلس فيما بعد •

(جـ) وصـول الإسـلام إلى الصين :

مع مجىء عدد كبير من العرب المسلمين إلى الصين واستقرار بعضهم فى هذه البلاد واتخاذ سيدات صينيات زوجات لهم وصل الإسـلام إلى الصين •

ولكن متى بدأ الإسلام يصل إلى الصين ؟

مازالت هذه المشكلة باقية حتى الآن بدون حل ، ولا نستطيع أن نحدد الزمن بالضبط • على أننا وجدنا لوحة حجرية فى أكسيان (Xian) مكتوب عليها « إنشـاء الجامع » كنج جن (الطاهر والنقى) • وقد نقشت عليها كتابة تقول « لقد وصل الإسلام إلى الصين فى أثناء حكم كاى ــ هوانج من أسرة سـوى » • واسم كاتب هذه اللوحـة وانج جونج من أسرة تانج • ولكن الأسماء العربيـة المترجمة لم تستخدم إلا فى عهد أسرة مينج • وهكذا فإن بعض العلماء قد ذكروا بالفعل أنه جرى تزييف للوحـة فى عهد أسرة مينج • وجـاء فى مينج شى (أى تاريخ أسرة مينج) أنه « فى منتصف حكم كاى ــ هوانج من أسرة سـوى » • بدأ سعد بن أبى وقاص ينشر هـذا الدين فى الصين • وليس ثمـة شك فى أن هـذا القول يتسم بالسخف • ذلك لأن محمداً صلى الله عليه وسلم ولـد حوالى ٥٧٠ بعد الميلاد • وبدأ ينشر دعوته حينما بلغ الأربعين من العمر (أى حوالى ٦١٠ بعد الميلاد) • واستمرت سنوات حكم الأمبراطور (وبن دى) ، من أسرة كاى ــ هوانج من عام ٥٨١ الى عام ٦٠٠ بعد الميلاد ، ويتضح من ذلك أن محمدا (عليه الصلاة والسـلام) لم يكن قد بدأ دعوته بعد ؟ ومن ثم لم يكن من المعقول أن يكون الإسلام قد انتقل إلى الصين ؟

والآن هناك قبر وقاص فى كانتون وقد كتب على القبر (اسم سموه هـو ، وقاص وهـو من مواطنى تيان ــ فانج ، وأحـد أقارب النبى فى الغرب) • وقد وصل الى تشانج ــ آن فى السنة السادسة لفترة حكم جن ــ جوان للإمبراطور تاى زونج (٦٣٢ ميلادية) • وجلب القرآن الكريم إلى الصين • والى جانب ذلك حصـل اروهيما ندريث بالاديوس كبير الأساقفة الروس فى بكين ، على مذكرة صينية مترجمة من العربية فى عام ١٨٧٢ ميلادية وجـاء فيها « لقد جاء ابن حمس » « Ibn Hamas » أحـد أقارب الرسـول على رأس ثلاثة آلاف من أنصاره حاملين القرآن الى الصين فى السنة السادسة لفترة حكم جان ــ جـوان لأسرة تانج • ولذلك انتهى أحدهم الى أن الإسـلام قد وصل الى الصين فى سنة ٦٣٢ للميلاد •

ولكننى مازلت أعتقد أن ذلك تكتنفه شكوك عديدة •

أولا : صحيح أنه كان للرسول (صلى الله عليه وسلم) قريب يسمى أبو وقاص ، ولكن هذا القريب لم يأت الى الصين على الاطلاق • وكان ابنه سعد بن أبى وقاص قائدا وهو الذى غزا غرب فارس فى السنوات الأولى لظهور الاسلام • وقد توفى عام ٦٧٥ ودفن فى المدينة • وهو لم يأت إلى الصين أيضا • والواضح أن الربط بين وقاص فى كانتون ووقاص قريب الرسول على أنهما شخص واحـد أمر كله زيف •

ثانيا : قد نعمد إلى دراسـة هذه المشكلة مع تطور تاريخ الإسلام • فى عام ٦٣٢ للميلاد حينما انتقل الرسـول إلى الرفيق الأعلى • كان قـد وحـد شبه الجزيرة العربية • وكانت ميزات المسلمين الذين وفدوا إلى الصين أنهم لم يحاولوا على الاطلاق تحـويل الصينيين إلى الإسـلام • ولـذلك فإن الشعب الصينى لم يفهم الإسـلام تمـام الفهم لمـدة طويلـة • فمثلا لا نستطيع أن نجـد فى كتب تانج وسنج التاريخيـة الاسـم الموحـد للإسـلام • كان البعض يسمونه « قانون وا ــ شى » (مثل جنج اكسنج فى كتاب تانج) •• وآخرون سمـوه « تعاليم دا ــ

شى » (كما جاء فى كتاب جـو ـ فان لسونج) ففى كتاب **تانج شـو** (تاريخ أسرة تانج) ، ورد فيه اسم «إسلام» ، على أنه اسم الدين • كاسم الملك فى آسيا الوسطى • وقد أخطأت بعض الكتب التاريخية التى تتناول تاريخ الإسلام فى أسرة سونج فى وصفها محمدا عليه الصلاة والسلام على أنه بو ذا • إننا نستطيع أن نجد اسم (هوى هوى) الذى استخدمه « شيخ كيو » وهو عالم من علماء أسرة سونج الشمالية • فى كتاب **مانج كسى بى تان** مقالات بركة الأحلام) ولكنه كان يتحدث عن اليوغوريين (Uighuts) الذين كانوا يقيمون إذ ذاك حـول انكسى عند حدود الصين الشمالية الغربية • ويتحدث كتاب **لياو شى** (تاريخ أسرة لياو) عن بهلو داشى الذى قام بحملة غرباً ووصل إلى سمرقند عام ١١٢٥ ميلادية • وظهرت فيه كلمات (ولقد استسلم ملك هوى هوى) • وفى عهد أسرة هـوان ، كانوا يدعون جميع الرجال الوافدين من الغرب « هوى هوى » (بما فى ذلك المسلمين) • ونحن نجد اسم هوى هوى جياو (إسلام) فى كتب أسرة مينج فقط • وفى النصف الثانى من القرن التاسـع الميلادى • أى بعد زهاء مائتى عام من تبادل ممثلين رسميين بين دا ـ شى وأسرة تانج ، ذكر سليمان الـذى أشرنا إليه بالفعل فى كتابه « أننا لم نر أى صينى أو هندى يعتنق **الإسلام** أو يستطيع أن يتكلم العربية » • إذن ، كيف يمكن أن نفترض أن يرسل محمد (عليه الصلاة والسـلام) أثناء انشغاله فى توحيد شبه جزيرة العرب ، ثلاثة آلاف من أتباعه إلى الصين ؟

ثالثا ، والواضح أن الكلام المنقوش على ضريح « وقاص » والبيان الذى عثر عليه « بالاديوس » قد أجريا فى عهد أسرة مينج • وقـد دعى العرب فى هـذا الكلام المنقوش باسم يتانج ـ فانج (Tian fang) ، وهـذا الاسم لم يستخدم إلا فى عهد أسرة مينج •وهناك فى البيان أربع عشرة من الوصايا تجرى ثمانية منها كما يلى « التدخين والشراب محرمان لأن التدخين قد يجرح الرئة والنبيذ قد يتلف الجسم » • وكما هـو معروف كان التبغ ينتج فى أمريكا ونقل إلى أوروبا بعد اكتشاف كولومبس للقـارة

الجديدة عام ١٤٩٢ بعـد الميلاد • وبعد ذلك انتقل إلى الصين على يد بعض التجار البرتغاليين • إذن لابد أن يكون هذان الأمران المذكوران قد أثيرا فى عهـد أسرة مينج • ولا يمكن استخدامهما كدليل •

ولإجراء مزيد من التحقيق فى هذا الموضوع قد نستعين برأى « شن يوان » وهـو مؤرخ صينى مشهور • فقد قال : « قيل أنه منذ أسرة مينج بدأ الحساب بالتقويم الإسلامى فى السنة التاسعة عشرة لفترة حكم كاى هوانج من أسرة (سـوى) (٥٩٩ بعد الميلاد) • ولقد جاء هـذا الخطأ من حقيقة أنه حينما بدأ الصينيون يعملون بالتقويم الإسلامى فى السنة السابعة عشرة من فترة حكم هونج ــ وو (١٣٨٤ بعد الميلاد) كانت تقابل السنة ٧٨٦ للهجرة • وطبقاً للتقويم الصينى ، إذا رجعنا الى الوراء ٧٨٦ عاما • فإنك ستجـد البداية الخاطئة • ولكن فى الواقع إذا رجعت بهـذه السنوات إلى ٧٨٦ الى الوراء حسب التقويم الاسلامى فإنك ستجد أن البداية كانت فى السنة الخامسـة لفترة حـكم وو ــ دى ــ لأسرة تانج (٦٢٢ للميلاد) ، وهناك فترة مدتها ٢٣ عاما حتى السنة التاسعة عشرة من فترة حكم كاى ــ هوانج • وهذه السنوات الثلاثة والعشرون هى الأساس لهؤلاء الذين يهتمون بدراسة أصل الاسـلام فى الصين [١٠] •

إن قـوة الإسلام وفقا لتطوره لم تنشر خارج شبه الجزيرة العربية إلا فى عهـد عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى (٦٣٤ ــ ٦٤٤ ميلادية) فقد هزم جيش الدولة البيزنطية واحتل دمشق عام ٦٣٦ ميلادية ودخل القدس عام ٦٣٨ ميلادية وغزا سـوريا وفلسطين الخ •• فى عام ٦٤٠ للميلاد • ثم قضى على حكم الفرس وغزا مصر واحتل الاسكندرية عام ٦٤٢ ميلادية • وهكذا احتكر طريق التجارة الى الشرق • وكما ذكرنا آنفا ، لِمَ كانت هناك بعثات إسلامية فى الصين ؟ فهـذا مرده إلى الضرورة الدينية للتجار المسلمين الذين وفدوا إلى الصين فى أول الأمر • وقد يكون التاريخ المحتمل الذى وصل فيه عدد كبير من السفن الإسلامية إلى الصين من أجل التجارة بعد عام ٦٤٢ أى بعد غزو فارس •

ذلك لأن النقوش والبيان اللذين أشرنا إليهما فيما تقدم ذكرت أن أول بعثة إسلامية جاءت إلى الصين فى العام السادس لفترة حكم جين — جوان (Zhen guan) ، ولم يحدث هذا مصادفة • ولما انقضت زهاء ٣٣ عاما منذ السنة السادسة لفترة حكم جن جوان (٦٣٢ ميلادية) حتى السنة التاسعة عشرة من فترة حكم كاى — هوانج (٥٩٩ ميلادية) ، فإننى أعتقد بأن القول الأسطورى • بأن البعثات الإسلامية بدأت تأتى الى الصين فى العام الثالث والثلاثين للهجرة ، قد انتشر بين المسلمين فى الصين • وحيث أننا ارتكبنا نفس الخطأ عندما غيرنا التقويم الإسلامى بالتقويم الصينى ، فإن تاريخ أول بعثة للصين قد حدد خطأ بالعام السادس لفترة حكم جن — جوان • إذن ، فإن التاريخ الصحيح حسب الحساب الصحيح لأول بعثة تصل الى الصين يقع بين السنة الرابعة والسنة الخامسة لفترة حكم يونج — هوى للأمبراطور جاو زونج المنتمى لأسرة تانج (أى ٦٥٣ — ٦٥٤ ميلادية) •

(ج) بعض الشخصيات والرحلات الشهيرة :

لقد جرى تطور هائل فى المواصلات البحرية والبرية بين الصينيين ودا — شى ضد أسرة تانج • ومازالت هناك مقالات هامة محفوظة للآن تصف بعض الشخصيات التى جاءت إلى الصين أو تنقلت بينها وبين بلاد العرب (دا — شى) فى عهد أسرة تانج •

إن أول سجل حسب علمى كان حول « دو هوان » الذى أسر فى معركة نهر طلاس عام ٧٥١ ميلادية ، وكان ابن شقيق (دو يو) العالم المشهور فى أسرة تانج (وهو مؤلف تونج ديان) • وبعد أن أسر دو هوان حمل إلى مدينة الكوفة ، عاصمة الخليفة العباسى • وقد قضى فى بلاد العرب ١٢ عاما وعاد الى كانتون بحراً عن طريق الخليج فى سفينة تجارية عام ٧٦٢ ميلادية • وقد سجل جميع مغامراته فى كتاب تحت عنوان « جنج اكسينج جى » (سجلات الترحال) • ومما يبعث على الأسى أن

الكتاب الأصلى قد فقد ولكن لحسن الحظ ، اقتبس عمه (دو يو) فقرات من كتابه عندما وضع كتاب **تونج ديان** (مستودع المواد الأصلية عن التاريخ السياسى والاجتمـاعى) ، وبذلك نستطيع ان نلم ببعض مضمـون كتاب **جينج اكسنج جى** الرائع •وقد حكى دو هوان عن ازدهار الحكم العباسى فى ايامه الأولى فقال « إن كل شىء ينتج على وجه البسيطة يجده المـرء متوفراً فى هـذه المدينة وفى شوارعها وأزقتها • وقد جمعت هـذه المنتجات من كل مكان والسلع متوفرة ورخيصـة والأسواق حافلة بأنواع المجوهرات والحلى الثمينة المختلفة • وجميع الأسواق والشوارع تكتظ بقوافل الجمال والخيول والحمير والبغال المحملة بالبضائع » وقال إن الخمر محرمـة فى الإسلام وموسيقى الطرب غير مسموح بها وقال « وهناك مكان للعبادة يتسع لعدة عشرات الألوف من المصلين • ويأتى الملك فى اليوم السابع من كل أسبوع للصلاة ويلقى خطبة من فوق منبر » « إنه طبقا لقانون دا ــ شى أن الأشخاص يحكم عليهم أساتذتهم وأقاربهم • حتى ولو ارتكبوا أخطاء صغيرة وهم لايستاءون فى حالة تعرضهم للعقاب • إن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير أو الكلاب أو الحمير أو الخيول • وهم لا يركعون حتى للملوك أو لآبائهم ولا يؤمنون بتعدد الآلهة والأشباح وهم لا يسجدون إلا لالـه واحـد فقط • ومن عاداتهم أن لهم عيداً كل سابع يوم • وفى ذلك اليوم لا تكون هناك مساومة أو محاسبة « إننا لا نكاد نجد مثل هذا الوصف المسهب عن الإسلام فى كتب أسرة سونج ويوان » •

لقد عاش سليمان التاجر العربى بعد مرور قرن واحـد تقريبا على دو هوان وكتب بالتفصيل عن إبحاره شرقاً فى رحلاته • وتعتبر سجلاته مادة هامـة للتحقق من الطريق البحرى بين الشرق والغرب ــ فى ذلك الوقت •

وهناك وصف حى فى رحلاته عن العرب الذين عاشوا فى الصين فى ذلك الزمن ، ونستطيع أن نعرف من هذا الكتاب أنه كانت هناك فى كانتون أقاليم للعرب وجوامع ، وأن حكومة تانج عينت عربيا مسلماً يكون مسئولا عن

القضـــاء والأنشطة الدينية • ويقال أن هواى شنج سى (المسجد الـــذى أقيم تخليدا لذكرى الرســـول ــ صلى الله عليه وسلم) فى كانتون والذى مازال موجودا حتى الآن يعتبر من أقدم الجوامع فى الصين • ومع أنه ليس هناك دليل قاطع على أن هـــذا الجامع قد بنى فى عهـــد أسرة تانج ، إلا أننا نعرف من رحلات سليمان أن هناك جامعا فى كانتون منذ أوائل القرن التاسع على الأقل •

وهناك بعض الوصف الحى للمجتمع الصينى ، مثل عادة شرب الشاى عند الصينيين وصناعة الألياف الحريرية والخزف والصينى وما إلى ذلك • وقد أشاد بصناعة الخزف الصينى • إنكم كما تعرفون ، لم ينتقل الأسلوب التقنى الصينى لصناعة الخزف إلى فارس وبلاد العرب حتى القرن الحادى عشر • وبفضل العرب انتقل هذا الأسلوب التقنى إلى البندقية فى إيطاليا • ومن هنا بدأ انتاج الخزف يظهر فى أوروبا •

وهناك رحالة آخر يدعى ابن وهاب ، من البصرة وقد جاء إلى الصين عن طريق البحر ووصل إلى شانج ــ آن وقدم ضروب الولاء والاحترام للامبراطور وذلك فى عام ٨٧٠ ميلادية • وقد بحث معه الإمبراطور الديانات المختلفة • لم يخلف ابن وهاب أى أعمال أدبية • ولكن هناك مادة بالغة القيمة كتبها حسن الذى زار ابن وهاب ودون مشاهداته • إن الوصف الذى ذكره ابن وهاب لفترة شانج ــ آن ، يتفق مع وصف عاصمة تانج الذى فى متناول أيدينا • نستطيع أن نتبين من ذلك أن ماجاء فى سجلات حسن مـــن أوصاف للمدينة صحيح •

وهناك عربى بارز المكانة والأهمية ولكن من المؤسف أننا لا نعرف اسمه العربى ، أما اسمه الصينى فهو « لى بان ــ شنج » • وقد استطاع هـــذا العربى ، بتوصية من « لوجون » حاكم بيانجو والقائد العام لجيش كسوان وو اذ ذاك ، أن يجتاز امتحان جن ــ شى (أعلى امتحان خدمة مدنية فى ذلك الوقت) أى فى عام ٨٤٨ ميلادية • ونحن نعرف من ترجمة حياة « جون »

فى **تانج شـــو** أنه كان حاكم كانتون والقائد العام للتيحنان من عام ٨٣٦ ميلادية حتى عام ٨٤١ ميلادية ولذلك فانه أنشأ علاقات صداقة مع هـــذا العربى وأعطاه التوصية • فإذا أراد شخص أن يجتاز امتحان جن ــ شى فى أسرة تانج ، فإن عليه أن يجيد كلاسيكيات الصين الخمس (ويبدى تفهماً ممتازا للشئون الجارية • كان المستوى عالياً جداً • لم يحمل لى « بان ــ شنج الاسم الصينى فحسب وإنمـــا أجاد الأدب الصينى واجتاز امتحان جن ــ شى بنجاح •• إن هذه حكاية فى تاريخ العلاقات الودية المتبادلة بين الصين والعرب • وإلى جانب ذلك عرفت أخيرا أنه بحلول منتصف القرن الثامن للميلاد • قام عمانى يدعى عبيدة بأول رحلة مسجلة للصين وقـــد قام بها قبل رحلة سليمان بمائة عام تقريبا •

(هـ) انتقال تكنولوجيا صناعة الورق وغيرها غربا :

إنه نتيجة للمبادلات المتكررة بين الصين والعرب لابد أنه جرى تبادل بين الجانبين فى النواحى الثقافية والتكنولوجية • وأبرز هذه النواحى انتقال تكنولوجية صناعة الورق الصينية غرباً •

إن معركة نهر طلاس التى انهزم فيها جيش اكسيان ــ جى على يد دا ــ شى فى عام ٧٥١ ميلادية ورد ذكرها بإيجاز فى كتب التاريخ الصينية • على أننا نعرف من السجلات التاريخية العربية أن تكنولوجيا صناعة الورق الصينية قد انتقلت إلى العرب بفضل هذه المعركة • وقد استعان العرب ببعض الأسرى من الجنود الصينيين الذين حذقوا صناعة الورق فى إنشاء أول مصنع للورق فى سمرقند • ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى أصبح الورق السمرقندى مشهوراً فى جميع الأقاليم الآسيوية الخاضعة لحـــكم الخليفة • وفى القرن الحادى عشر قال الثعلبى وهو كاتب من آسيا الوسطى بفخر « إننا ينبغى أن نذكر الورق من بين منتجات سمرقند الخاصـــة ــ إنه أجمل وأنسب وأصلح من أى ورق استخدمناه من قبل • ولقد حل الورق

السمرقندى محـل الورق المصرى ، وقـد اقتصر انتاجـه على سمرقند والصين فقط » (١١) .

وفى أوائل عام ٧٩٣ — ٧٩٤ ميلادية استخدم الخليفة العباسى هارون الرشيد بعض العمال الصينيين الذين اشتهروا بصناعة الورق فى سمرقند فى إنشـاء مصنع الورق الثانى فى بغداد ، عاصمة الدولـة العباسية فى ذلك الوقت . أمـا مصنع الورق الثالث فى تاريخ الإمبراطورية العربية فقـد أنشىء فى دمشق . ومن هنا كانت دمشق مركزاً رئيسيا لإنتاج الورق وتزويد أوروبا به قرونا عديدة . ولذلك أطلقت أوروبا على الورق اسم « شارتا داماسيما » . وظل هذا الاسم شائعا مدة طويلة . وبعد القرن الثانى عشر تعلم الأوروبيون صناعة الورق من العرب تدريجياً . ونتيجة لانتقال تقنية صناعة الورق غرباً ثم الطباعة فيما بعد فإن المساهمة التى قامـوا بها فى النهضة فى أوروبا معروفة للجميع .

أما عن التدفقات التقنية فإننى أستشهد بحكاية ممتعة وهامة من كتاب الدكتور نيدهام . وقد وجدت هذه الحكاية فى **فهرس العلوم لابن النديم** . ففى هذا الفهرس الذى استكمل فى عام ٩٨٨ ميلادية حكاية عن الرازى العظيم ، الطبيب والكيميائى (محمد بن زكريا الرازى ، ٨٥٠ — ٩٢٥ ميلادية) .

قال الرازى « لقد زارنى عالم صينى فى بيتى ، وبقى فى المدينة (ربما تكـون بغداد) حوالى سنة واحدة . وقد استطاع فى خمسة أشهر أن يتعلم العربية قراءة وكتابة . وبدت عليه الفصاحة فى الحديث وامتاز بجمال الخط . وعندما قرر العودة إلى وطنه . قال لى قبل سفره بحوالى شهر : إننى على وشك الرحيل وإنه ليسعدنى لو أن أحداً يملى على كتب جالين (Galen) الستة عشر قبل رحيلى ولكننى أجبته بأنه ليس لديه الوقت الكافى لكى ينسخ أكثر من جزء صغير منها ولكنه أصر قائلا « إننى أناشدك أن تكرس لى كل

وقتك إلى أن أذهب وتملى على بأقصى سرعة ممكنة وسترى أننى سأكتب أسرع مما تملى » وهكذا رحت مع أحـد تلاميذى نقرأ عليه « الجالين » بكل ما نستطيع من سرعة ولكنه كان أسرع منا فى الكتابة • لم نكن نصدق أنه كان يكتب كتابة صحيحة حتى راجعنا كل ما كتب • وقد سألته كيف يمكن يتأتى له ذلك وكان جوابه «إن لدينا أسلوبا فى الكتابة فى بلدنا نسميه اختزالا • وهذا هو مانرى وعندما نريد أن نكتب بسرعة فائقة فإننا نستخدم هـذا الأسلوب • وبعد ذلك نكتبه بالأحرف العادية » • ولكنه أضاف ان الرجل الذكى الذى يتعلم بسرعة لا يستطيع أن يجيد هذا الأسلوب فى أقل من عشرين عاماً •

اننا نعلم من هذه الحكاية انه كانت هناك على الأقل ترجمة واحـدة لمؤلفات عالم الطب اليونانى القديم جالين إبان القرن العاشر الميـلادى • ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نجد مثل هذا السجل بين المواد الباقية فى بلدنا وليس هناك أى آثار تدل على تأثير الطب اليونانى بين المؤلفات على الطب الصينى التقليدى الذى هبط بعد القرن العاشر الميلادى •

إننى واثق من أنه باستثناء العرب الكثيرين الذين جاءوا إلى الصين فإنه لابد أن يكون كثير من الصينيين قد اتجهوا إلى بلاد العرب ، وقد أسهم هؤلاء فى تنشيط المبادلات الثقافية والتقنية بين الشعبين • وإلى جانب عمال صناعة الورق وهذا العالم الآنف الذكر ، كان هناك بعض العاملين فى نسج الحرير والرسامين « والجواهرجية » فى بلاد العرب إذ ذاك • وذكر دو هـوان فى كتابه جنح اكسنج جى أنه رأى هؤلاء العمال هناك ، وعلى سبيل المثال ، دون أربعة أسماء منهم ، فان شو وليو سى من العاصمة (اكسيان) و «بوهوان » و « لولى » من شانكس •

٣ ــ التبادل الودى من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر بعد الميلاد :

(أ) تنمية بناء السفن الصينية والملاحة :

امتازت عهد أسرة سونج بأنه الفترة التى تطـورت فيها الرحلات

البحرية الصينية إلى حـد كبير • وكان للصين فى هذه الفترة سفن صينية كثيرة ، تجـوب المحيط الهندى • ولم تكن للصين سفن فى الخليج فحسب ، وإنمـا كانت القوارب الصينية تشاهد فى موانىء البحر الأحمر وفى ساحل أفريقيا الشرقى أيضا • إذا حققنا فى المواصلات والاتصالات البحرية بين الصين والعرب فى عهـد أسرتى تانج وسونج • لوجدنا أن ثمـة حقيقة ملموسـة وهى أنه إذا كان الكهنة الصينيون قد سافروا إلى الخارج فى قوارب أجنبية التماساً للقوانين قبل أسرتى سونج وتانج فإن التجـار الأجانب قد وفدوا إلى الصين فى سفن أجنبية بعد أسرتى تانج وسونج ، وخاصـة فى عهد أسرة سـونج • وتؤكـد التحقيقات التى أجراها ب • بيليو • العالم الفرنسى ، أن سفينة صينية هى التى حملت « دو هوان » من الخليج إلى كانتون فى عام ٧٦٢ ميلادية (١٢) وذكر سليمان فى « رحـلاته » أن جميع السلع المستوردة من بلاد العرب لابد وأن تكون نقلت إلى ميناء سيراف « Siraf » الواقعة عند نهاية الخليج من البصرة وعمان •• الخ ثم شحنت فى سفن شراعية صينية لأن غاطس السفينة الصينية كبير ومستوى المياه فى البصرة وعمان منخفض •لقد صـدرت معظم قوانين التجـارة بالقـوارب البحرية فى عهـد أسرة يوان عن أسرة سـونج ، ومن هنـا نستطيع أن نرى من مؤسسات أسرة يوان أن قانون المواصلات البحرية الذى استنته أسرة سونج يتضمن شروطاً تقضى بأن يستخدم التجار الأجانب قوارب صينية • ولهذا السبب ازداد عدد التجار الأجانب الذين يستخدمون القوارب الصينية إلى حد كبير ، لِمَ كان هناك مثل هذا الشرط ؟ السبب فى ذلك يعود الى التطور الهائل للتكنولوجيا الخاصـة بصناعة السفن الصينية وتقنية الملاحة فى ذلك الوقت •

كانت السفينة الشراعية الصينية تستطيع أن تحمـل خمسمائة أو ستمائة شخص بالإضافة إلى بضائع يزيد وزنها عن خمسمائة أو ستمائة طن وذلك فى عهد أسرة ونج • ولقد وصف كاتب عاش فى عهد أسرة سونج السفينة الشراعية الصناعية بقوله « إن السفينة تشبه قاعدة كبيرة » •

ويبدو شراعها كأنه قطعة من سحابة هابطة من السماء • ويبلغ طول دفتها أكثر من عشرة أمتار • وكان المركب يتسع لعدة مئات من الناس وكان الطعام الذى تختزنه يكفى ركاب السفينة كلهم لمدة عام واحد • وكانوا إلى جانب ذلك يطعمون الخنازير ويصنعون النبيذ فى السفينة • وحالما تمخر السفينة العباب وتصبح فى عرض المحيط تصبح حياة الناس فى السفينة غير حياتهم ، ولا يعودون يفكرون فى الحياة أو الموت • ويستضيفون بعضهم بعضا بذبح الخنازير ليطعموا منها ويشربوا النبيذ كل يوم حتى لا يفكروا فى أى خطر » (١٣) •

وفى حين أن السفينة التى صنعت فى « فوجيان » تعتبر أفضل السفن فقد ذكر أحد الكتاب الذى عاصر عهد أسرة سونج فى هذا الصدد يقول « إن أفضل سفينة بحرية هى السفينة التى تصنع فى فوجيان » • ومن حسن الطالع أننا لم نعثر على أوصاف السفينة الفوجيانية من السجلات فحسب ، وإنما وجدنا أيضاً بقايا كاملة لسفينة منها • ففى خريف عام ١٩٧٤ • عثر رجال الآثار الصينيون على سفينة فوجيانية من عهد أسرة سونج أثناء عمليات حفر قاموا بها فى كوانجو فى فوجيان • وقد تبين أن شكل السفينة كما يلى ، فهى عميقة القاع وهيكلها عريض ولها مقدمة حادة ومؤخرة مربعة • وفى القاع ثلاث عشرة كابينة مغلقة لضمان سلامة الإبحار • وبعد أن أعيد تركيب قطع السفينة وإعادتها إلى هيئتها الأصلية تبين أنها تبلغ ٣٤٫٥٥ مترا طولاً و ٩٫٩ أمتار عرضا و ٣٫٢٧ مترا عمقاً و ٧٫٩٨ ارتفاعا عند المقدمة و ١٠٫٥ متر ارتفاعا عند المؤخرة • ويبلغ وزنها ٣٧٤٫٤ طن • وتبلغ أقصى حمولة لها حوالى ١١٠ أطنان » (١٥) • وليست هذه بالطبع أكبر سفينة فى ذلك العهد • لأن أكبر سفينة قد تبلغ مائة متر طولا • وكانت مزودة بدفة للرفع ودفة للتوازن للمحافظة على ثبات السفينة وضمان سلامة سيرها • وكان للسفن الشراعية الصينية غاطس كبير كما كانت ذات حمولة كبيرة • ومناعة ضد الغرق • وإلى جانب ذلك فهى سفن ثابتة السير وتتمتع بقدرة على تحمل البحار • ولذلك كانت ملائمة للغاية للرحلات عبر المحيطات •

وكانت القوة المحركة لهذه السفينة الشراعية العابرة للقارات مجاديف طويلة تستخدم فى حالة ركود الرياح • وتكون مثل هذه السفينة الشراعية عادة مزودة باثنى عشر أو عشرين مجدافا • ويعمل على كل مجداف أربعة رجال ، أما فى السفن الشراعية الكبيرة فيبلغ عدد المجدفين فيها على مجداف واحد ثلاثين رجلا • ويعتمد عبور المحيط على الرياح ، ولذلك تكون السفينة مزودة بأربعة سوارى • وقد يكون لبعض القوارب الشراعية خمسة سوارٍ أو ستة أو سبعة أو حتى اثنى عشر ساريا • وهناك نوعان من الأشرعة للرياح المواتية وللرياح الهادئة • ويقول شعب سونج أن « هناك ثمانية اتجاهات للرياح ، وتكون السفينة قادرة على الإبحار حينما تأتى الريح من جميع الاتجاهات باستثناء الجهة الأمامية » [١٦] • وعندئذ نستطيع أن نرى مهارتهم فى التحكم بالريح •

وقد استدعت الحاجة إلى المهارة فى الملاحة وإلى اختراع البوصلة وتم ذلك فى عهد أسرة سونج • وجاء فى كتاب **بينج جوكى ثان** (حديث **موائد بينججو**) الذى وضعه « جوبو » المنتمى الى أسرة سونج الشمالية • أن مرشدى السفن فى ميناء كانتون • كانوا فى عام ١٠٩٩ — ١١٠٢ يعرفون « ليلا كيف يوجهون السفن بالاستدلال من النجوم ونهاراً يستدلون على الطريق مسترشدين بالشمس » • أما فى المناخ الحالك الظلمة فإنهم يسترشدون بالبوصلة • « وفى عام ١١٢٣ ميلادية انضم اكسو جينج إلى بعثة دبلوماسية متجهة إلى كوريا • وقال فى كتابه **اكسوان هيو فينج شى جاو — لى توجنج** (سجل سفارة إلى كوريا فى عهد حكم اكسوان — هيو) أنه « غالبا ما يكون فى غير الإمكان التوقف أثناء الليل ، ولذلك فإن المرشد يستعين بالنجوم والدب الأكبر • أما إذا كان الليل غائماً فإنه يستخدم الإبرة العامة التى تتجه جنوبا لتحديد الجنوب والشمال » • وهذان الكتابان هما أقدم السجلات عن استخدام البوصلة فى الملاحة فى العالم اليوم • والمعروف جيداً أن استخدام البوصلة قد انتقل من الصين إلى العرب ثم إلى أوروبا • وبعد ذلك راح النبوغ الصينى فى استخدام

الملاحـــة الفلكية ، يستوثق من موقع السفينة بمراقبة النجـــوم وسميت هذه الوسيلة « بمهارة سحب النجـــوم » •

إن هـــذه التطورات العظيمة الآنفة الذكر ، قـــد أدت إلى ازدهار المواصلات والاتصالات بين الصين والعرب منذ عهد أسرة ســـونج •

(ب) تبادل العلاقات فى عهد أسرتى ســـونج ولياو :

كانت هناك حكومتان تقفان وجها لوجه فى الصين منذ القرن العاشر إحداهما لياو التى كانت تبسط سيطرتها على المنطقة الشمالية الغربيـــة (٩٦٠ — ١١٢٧ م) وحكومة ســـونج التى كانت تسيطر على أواســـط الصين وكانت مقسمة إلى ســـونج الشمالية (٩٦٠ — ١١٢٧ م) وســـونج الجنوبية (١١٢٧ — ١٢٧٩ ميلادية) • وكانت للحكومتين معاملات مع بلاد العرب ، وكانت اتصالات أسرة لياو مع العرب تجرى عن طريق البر • أما اتصالات أسرة ســـونج فكانت تجرى عن طريق البحر • وجاء فى كتب التاريخ الصينية أن دا — شى (العرب) أوفدوا ممثلين إلى حكومة لياو فى السنة الثالثة من فترة حكم تن — زان (٩٢٤ ميلادية) وفى السنة الأولى من فترة حكم تاى — فينج (١٠٢١ ميلادية) أوفد الإمبراطور لياو أميرة إلى دا — شى (العرب) لكى تتزوج أميرهم استجابة لطلب حاكم دا — شى •

أما بالنسبة لأسرة ســـونج فقد بعث إمبراطور ســـونج فى الســـنة الرابعة من فترة حكم كين — دى (٩٦٦ — ميلادية) برسالة يعرب فيها عن تحياته لحاكم دا شى مع كاهن صينى ســـافر إلى الغرب • وفى السنة الأولى لحكم كاى — باو (٩٦٨ ميلادية) كان العرب (دا — شى) يوفدون ممثلين عنهم بلا انقطاع إلى ســـونج • وتفيد إحصاءات حسب مـــواد تاريخية أن العرب أوفدوا مبعوثين إلى الصين ٤٣ مرة على مـــدى ٢٨٤ عاما ، أى من سنة ٩٢٤ ميلادية إلى سنة ١٢٠٧ ميلادية ، وذلك بمعـــدل مرة كل ست سنوات أو يزيد عن ذلك قليلا •

وفى خلال الجزء الأخير من هذه الفترة كان العالم الإسلامى بأسره يواجه خطر الصليبيين • وحلت سلطة السلاجقة محل العباسيين وأصبحوا سادة المنطقة فى وادى الفرات ودجله • وكان العرب والفرس فى نزاع مستمر • ولو أننا قلنا إن معظم مندوبى دا — شى كان قد أوفدهم الخليفة فى عهد أسرة تانج ، فإن القادمين من المندوبين فى تلك الفترة لابد وأن تكون بلدان عربية مختلفة هى التى أوفدتهم مثل سنج — تان (جدة) وما — لـــو — با (مهرة العربى — Mahrah al Arabi) •

ولقد تطورت الاتصالات البحرية بين الصين والعرب إلى حـــد كبير فى خلال هذه الفترة أى من ســـونج الشمالية إلى ســـونج الجنوبيـــة (٩٦٠ — ١٢٧٩ الميلاد) وكان هناك طريقان ، أحدهما الطريق التقليدى أى من كانتون أو كوانجو إلى الخليج • وكانت السفن الشراعية الصينية عادة تبدأ رحلتها فى شهر نوفمبر لكى تركب الرياح الموسمية الجافة وتقضى أربعين يوما فى البحر قبل أن تصل إلى لان — لى (باندا — آك) عنـــد طرف سومطرة الشمالى • وهناك يجرى بعض الركاب من البحارة بعض الأعمال التجارية ويلتمســـون الراحة هناك • ثم يستأنفون الإبحـــار بعد الأيام الأولى من السنة الجديدة • وبعد ذلك بشهر يصلون إلى جو — لين (كويلون — Quilon) عند الطرف الجنوبى لشبه القارة الهندية • وكان هذا المكان بمثابة ميناء تحويلى فى منتصف الطريق • وتتجمع فى هذا الميناء جميع السلع الواردة من الصين أو من بلاد العرب ويجرى تبادلها فيه • وإذا كان التجار يرغبون فى الذهاب إلى الخليج فإنه لابد أن ينتقلوا إلى سفن أصغر وينتظروا الرياح الموسمية الرطبة التالية للإبحار غربا • ومع أن هذه الرحلة البحرية تستغرق شهراً واحداً فقط • إلا أنهم لابد أن ينتظروا الرياح الموسمية المصحوبة بالأمطار التى يستطيعون بركوبها أن يعودوا من سومطرة إلى الصين ، وهكذا فإن الرحلـــة كلها ذهابا وإيابا تستغرق على الأقل أكثر من ثمانية عشر شهراً •

والطريق الثانى طريق بحرى جديد عبر المحيط الهندى مباشرة • ولو

أننا اقتفينا أثر هـذا الطريق لوجدنا أنه يبدأ من كانتون أو كوانجو فى شهر نوفمبر أيضا • وبعد أربعين يوماً يصل المسـافرون إلى « أسيه » (Aceh ، سومطرة) وهم يبدأون الرحلة الطويلة التى تستغرق ستين يوما بركوب الرياح الموسمية الجافة عند بداية السنة التالية بصفة مستمرة ، ثم يعبرون المحيط الهندى ويصلون إلى ظفار أو يبحرون إلى عدن أو حتى موانىء أخرى تقع على طول الساحل الإفريقى الشرقى • وبعد أن يحصلوا على السلع من خليج عدن والبحر الأحمر وأفريقيا ، يبحرون عائدين فى فترة الرياح الموسمية الرطبة مباشرة • وحينما يعودون فى الصيف فإنهم يعمدون إلى تجنب العواصف الإستوائية المنطلقة من منطقة تقع عند الدرجة الثامنة أو الخامس عشرة لخط العرض الشمالى ، وذلك بسلوك طريق بحرية منحنية متجهين جنوبا إلى سومطرة ثم يمرون بجزر المـالديف ويصلون بعدها إلى سومطرة ويعودون إلى الصين فى شهر أغسطس أو سبتمبر • ويستطيعون أن يقوموا بالرحلة فى أقل من عام « وبذلك يوفرون وقتاً طويلا » • وبعد أن انسـدت الطرق التجارية فى الخليج أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، أصبح الطريق الممتد من عدن إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق مصر هو الطريق التجارى الرئيسى • وبذلك ازدهر الطريق البحرى الصينى مـا ـ لـو ـبا إلى حد كبير [١٧] •

كانت تكنولوجيا صناعة الخزف الصينى واستخدام البوصلة كمـا ذكرت آنفا ، قد انتقلت الواحدة بعد الأخرى إلى العرب فى هذه الفترة ثم انتقلت بعد ذلك إلى أوروبا • وكانت المنتجات الخزفية التى تحملها السفن الشراعية الصينية فى ذلك الوقت كثيرة جداً بالإضافة إلى الألياف الحريرية والأدوية التى كانت تحمل معها •

ان العثور على عدد كبير من قطع النقود الذى يرجـع تاريخها إلى عهـد أسرة سـونج وبقايا الأوانى الخزفية التى عثر عليها أخيراً على طول السـاحل الممتد من البصرة إلى عـدن ثم إلى ساحل أفريقيا الشرقى كلها تقيم الدليل على سرعة السفن الشراعية الصينية وسلوكها هذا الطريق

البحرى إذ ذاك • وهناك طريقة فنية مشهورة أخرى انتقلت غرباً أثنـاء تلك الفترة ، وهى استخدام مسحوق البارود • وفى عهد أسرة تانج انتقلت الكيمياء القديمة والنيتر والطب وما إلى ذلك إلى العرب والفرس •

وكان العرب فى ذلك الوقت يسمون النيتر ــ النيترات « باروك » أى « الثلج الصينى » • ولكن الناس كانوا يستخدمون النيتر والكيمياء فى علاج الأمراض وصناعة الزجاج فقط • ولكن مسحـوق البارود لم ينتقل إلى العرب عن طريق الهند بواسطة التجار إلا فى المـدة من عام ١٢٢٥ إلى ١٢٤٨ للميلاد • وجدير بالذكر أن استخدام مسحـوق البارود كأسلحة فى الحرب لم ينتقل إلى العرب إلا فى عام ١٢٥٨ ميلادية حينما استولى المغول بقيادة هولاكو على بغداد •

لقد عادت السفن الصينية أدراجها بحراً من (شِهْرلوبان) محملـة بالكنوز المختلفة مثل العـاج وقرون الخرتيت وزجاج المناضد واللآلىء والعقيق • ولكن معظم حمولات السفن كانت تتألف من توابل عربية • كان استخدام البخـور شائعا بين الطبقات العليا فى عهد أسرة سونج • وكانت التوابل التى يستخدمونها ترِد إليهم بكميات كبيرة وكانت التوابل فى ذلك الوقت احتكارا حكومياً فى عهد أسرة سـونج • وتفيد سجلات التجـارة الخارجية فى عام ١٠٧٧ ميلادية أن كمية اللبان والبخـور التى وردت إلى كانتون بلغت ٣٤٨٫٦٧٣ جيناً (كل ٢ جين = كيلو جرام) • ولذلك كان الطريق البحرى من بلاد العرب إلى الصين يدعى « طريق التوابل » ويمكن مقارنته « بطريق الحرير » البرى فى عهد أسرة هان •

كانت معرفة الصينيين الجغرافية بأحـوال شبه الجزيرة العربيـة بسبب تسهيلات المواصلات البحرية أكثر مما كانت عليه فى عهد الأسرة الأخيرة • وكان جاو دور ــ كوو ، عضو الأسرة الملكية مديراً للملاحـة التجارية فى كوانجـو فى عهد أسرة سـونج الجنوبية قد وضع كتابا بعنوان

« **جو بان جى** » (سجلات الشعوب الأجنبية) على أساس حديث التجار الأجانب (وخاصـــة التجار العرب) • ويعتبر هذا الكتاب سجلا ثميناً فى دراســـة المعاملات والعلاقات بين الصين والعرب فى تلك الفترة • ويحكى هذا الكتاب أنك إذا سافرت براً من مـــا ـــ لو ـــ با (مهره Mahrah) متجهاً شمالا بشرق ، ماراً بمدينـــة نو ـــ فا (ظفار) ومدينة ونج ـــ مان (عمـــان) وباى ـــ ليان (البحرين) وقطعت أكثر من ١٣٠ فرسخا فإنك تصل إلى باى ـــ دا (بغداد) واذا سافرت متجهاً غربا بشمال من المهرة عن طريق شى ـــ هى (الشحر) وليو ـــ شى ـــ جى (اليمن) وسرت زهاء ثمانين فرسخا فإنك تصـــل إلى ما ـــ جيا (مكة) واذا واصلت سفرك غربا بشمال ، ماراً ببلاد مو ـــ شيلى (مصر) وقطعت أكثر من ثلاثمائة فرســـخ فإنك تصـــل إلى لورمى (أو مى ـــ لو ـــ جو ـــ دويا) ـــ أى مراكش الآن ـــ وإذا قطعت مسافة ١٢٠ فرسخا من ما ـــ لو ـــ با ، فإنك تصـــل إلى سى ـــ فى (أى غزنة فى أفغانستان) • ويحتوى السجل هناك كافة العالم الإسلامى تقريبا •

إن هناك بعض السجلات عن بلادكم فيها أيضا « أن الناس فى ونج ـــ مان ، مثـــل الوو ـــ با ، يأكلون كعكا من الدقيق المخبوز • ولحم الضأن والحليب والسمك والخضروات • وتنتج هذه البلاد محصولا وفيراً من التمر الذى يسمى « تمر الألف عام » • ويجرى انتاج اللؤلؤ على طـــول الساحل ، وترعى الخيول فى الجبال • وصفوة القول ، أن هذه البلاد غنية جداً وزاخرة بالسكان » • وتعتبر هذه صفحة ناصعة فى تاريخ المعاملات الودية بين بلدينا •

(جـ) التجار العرب عاشـــوا فى كانتون وكوانجو فى عهد أسرة سونج :

كانت الموانىء الثلاث التى فتحت للتجارة الخارجية فى إبان عهـــد أسرة ســـونج الشمالية هى كانتون ومنجشـــو وهانجشـــو ، ولكن كانتون كانت أكثرها ازدهارا • ان احصاءات تجارة اللبان الآنفة الذكر التى صدرت

فى عام ١٠٧٧ بعد الميلاد كما يلى ، ٣ر٧٣٩ جيناً جمعت فى منجشو و ٦٣٧ جيناً فى هانجشو [١٨] • كان العدد الإجمالى لهذين الميناءين يشكل ١ر٥ فى المائة فقط من جميع الكمية وكان نصيب كانتون وحدها يمثل ٩٨ر٥ فى المـــائة •

أمـــا بالنسبة لكوانشو (التى كان التجار الأجانب يسمونها ميـنـــاء زيتون ، وهو اسم معروف حتى الآن ، ومشتق من اسم أشجار الزيتون التى تزخر بها شـــوارع الميـنـــاء والتى زرعت تحت اشراف ليوكونج — كسياو ، حاكم المدينـــة ٩٤٤ — ٩٦٢ ميلادية) ، فكانت تقع عند مصب نهر « جن جيانج » • ولذلك فإنها كانت بحكم هذا الموقع ميناء طبيعياً ممتازاً • وبعد ذلك تطورت تدريجياً إلى ميناء مزدهر كانت ترسو فيه سفن تجارية • ومن هنا أنشىء مكتب ملاحظة الملاحة التجارية رسمياً فى هـــذا الميناء عام ١٠٨٧ ميلادية ، وقد قامت حكومة ســـونج الشمالية بإنشـــاء هـــذا المكتب •

كان معظم التجار الأجانب فى عهد أسرة ســـونج يتجمعون فى كل من كانتون وكوانشو• وكان كلهم من التجار العرب وكان هؤلاء التجار العرب أغنى التجار الأجانب على الأطلاق • وقد جاء فى كتابات المؤلفين فى عهـــد أسرة ســـونج أن « تجار دا — شى » كانوا أغنى التجار الوافدين مـــن البلاد الأجنبية وأكثرهم اقتناء للكنوز » [١٩] • وهذا يتعلق بعدد كبير من تجار التوابل التى تقدم ذكرهم •

وبعد انتشار الحروب فى آسيا الصغرى ، وخاصـــة منذ عهد أسرة سونج ، تحطم الاقتصاد الاجتماعى هناك وازداد عدد العرب المتجهين شرقا • بل إنهم استقروا فى الصين • وكانت هناك مناطق خاصـــة يقيم فيها التجـــار الأجانب فى كل من كانتون وكوانشـــو • وكان يطلق على هذه المناطق اسم فان فانج (أحياء الأجانب) وكان يديرها ضابط يدعى فان جانج (رئيس حى الأجانب) وكان يجرى اتصالات بالتجار الأجانب

الوافدين إلى الصين • وكان الرئيس شخصاً يتم اختياره من بين الأجانب ، على أن يكون متمتعا بخلق كريم وسمعة طيبة • ويتم تعيينه من قِبَـل حكومـة سـونج •

أما بالنسبة لظروف الحى المخصص للأجانب فى كانتون ، فقد روى ابن بطوطة الرحالة العربى المغربى بعد رحلته للصين عند نهاية حكم أسرة يوان (١٣٤٧ م) • أنه « كانت ثمـة قطعة أرض فى المدينة كان يعيش فيها المسلمون • وكان هناك جامع كبير وجوامع صغيرة وأسواق كما كان فيها قاض وشيخ • وكان المسلمون موجودين فى مدن صينية كثيرة ، وكان للمسلمين فى كل منطقة شيخ يرعى مصالحهم وقاض يتولى القضـايا الشرعية [٢٠] » كان هذا التنظيم أكثر حزما مما شاهده سليمان فى القرن التاسـع الميلادى • وأن القاضى كان أيضـا هو الذى يؤم الصلاة • لقد أقام بعض التجار المسلمين فى عهد أسرة سـونج فى الصين عشرات السنين كما أقام بعض التجار منهم أجيالا عديدة وقد تزوجوا نسـاء صينيات وأنجبوا منهن أطفالا ، ولذلك أنشئت مدارس خاصـة لتربية أولادهم • وكانت تلك المدارس تسمى « فان كسوى » (مدارس الأجانب) • وكان بعض الأجانب يجلسون للامتحانات الصينية ويجرى اختبارهم لبعض المناصب •

وأود هنا أن أخص بالذكر تاجراً كان واسع الشهرة من بلادكم فى ذلك الوقت • لقد جـاء من صحار وعاش إذ ذاك فى كانتون • وكان اسمه « كين ياتيو » (وقد يكون هو الشيخ عبد الله) وجاء فى كتاب **سونج هوى يـاو** (تاريخ النظم الأساسية الدستورية لأسرة سـونج) • أن الشيخ عبد الله كان مندوبا عن دو ــ كسـون المنتمى لدا ــ شى (العرب) كمـا لاحظنا بالفعل ان وو ــ كسـون هى مازون « Mazun » أى صحار ، ولذلك فإن ماورد فى كتاب **سـونج هوى ياو** يؤكد أن الشيخ عبد الله كان مواطنا من بلدكم ، وكان رئيس حى الأجانب فى كانتون • وقد أعجب به إمبراطور أسرة سـونج وعينه ضابطاً للهجرة •

وجدير بالذكر أن التعيين الإمبراطورى هذا قد كتبه سوشى الكاتب والسياسى الشهير (١٠٢٧ — ١١٠١ ميلادية) ، ولقد أوضح سوشى فى هذا القرار الإمبراطورى لماذا عين الشيخ عبد الله فى هذا المنصب قائلا ، إن الشيخ توجه شخصيا إلى كاى — فنج عاصمة سونج الشمالية لتقديم مراسم الإحترام للامبراطور وتسليمه الهدايا • وقد أسهم فى خدمة التجار العرب • وبعد ذلك عين •• ضابطا للهجرة « ويمكن الرجوع إلى أصل هذا القرار فى مؤلفات سو — شى » (٢١) •

كان الشيخ عبد الله مشهوراً جداً فى كانتون فى ذلك الوقت • وقد تحدث عنه (سوجى) شقيق سوشى وهو كاتب مشهور اخر فى كتابه أيضا قال : « إن الشيخ عبد الله عاش فى كانتون عشرات عديدة من السنين •• وكانت ثروته تقدر بعدة ملايين من المينات (المين الواحد يساوى ألف قطعة نقود) (٢٢) •

ولنشرح هذا الرقم ، إن الدخل السنوى للتجارة الخارجية فى عهد أسرة سونج فى أكثر فترات ازدهارها بلغ مليونى (مِن) فقط • وقد جاء فى كتاب **سونج شى** (تاريخ أسرة سونج) • أن الشيخ عبد الله كان قد اقترح لحكومة سونج أن يساهم فى ترميم سور مدينة كانتون • ومع أن هذا العرض لم تتلقه الحكومة ، إلا أننا نستطيع أن نتبين أن الشيخ عبد الله كان تاجراً واسع الثراء • وحينما كان على أهبة مغادرة كانتون إلى وطنه فى عام ١٠٧٢ ميلادية أهداه الإمبراطور شن زونج « جوادا أبيض ، وسرجاً » (٢٣) ولما كان قد عين « ضابطا » ومنحته الحكومة هدايا ، فإن ذلك يعتبر تكريما لتاجر أجنبى • ونستطيع أن نتبين أن الشيخ عبد الله قد أسهم بالتأكيد بنصيب كبير فى المعاملات الودية بين البلدين •

وكان التجار العرب الذين وفدوا الى كوانشو فى عهد أسرة سونج ، وخاصة سونج الجنوبية ، بمقارنتهم بهؤلاء الذين كانوا يقيمون فى

كانتون ، يصدق عليهم القول بأن الخلف تفوق على السلف • ومن بين النقوش الحجرية التى جمعت حتى الآن ، هناك ضريح حجرى بنى فى سنة ٤٠٠ للهجرة أى ١٠٠٩ ميلادية • وتفيد النقوش أن ابنة أحد العرب بالتبنى هى المدفونة فى ذلك القبر [٢٤] وهذا الضريح يقيم الدليل على أنه فى أوائل عام ١٠٠٩ كان هناك عرب قد استقروا مع عائلاتهم فى تلك البقاع • وثمة دليل قوى آخر هو كنج جنج سى (الجامع الطاهر) • وهو الجامع القديم فى كوانشو الذى مازال قائماً حتى الآن بالكامل • ويقال إن هذا الجامع بنى على طراز الجامع الأموى فى دمشق • وهناك نقوش عربية على الجدار الحجرى للرواق عند البوابة • وتفيد هذه النقوش أن الجامع بنى فى سنة ٤٠٠ للهجرة • أى منذ ألف عام • وقد تعرض هذا الجامع لهزتين أرضيتين عنيفتين فى كوانشو فى عامى ١٦٠٤ ، ١٦٠٧ للميلاد • ومع ذلك مازال فى حالة جيدة • إن هذا الجامع الرائع الذى بنى فى عام ١٠٠٩ للميلاد • لدليل على أن العرب كانوا أكثر فى كوانشو فى ذلك الوقت • وكان ذلك قبل أكثر من سبعين عاما من انشاء مكتب الملاحة التجارية فى كوانشو رسميا فى عهد أسرة سونج •

كان التجار العرب فى كوانشو واسعى الثراء أيضا • وجاء فى **جو فان جى** أن « شيلافى » وهو تاجر أجنبى (وربما جاء من سيراف) ، كان مواطنا عربياً ، وكان يقيم فى جنوب كوانشو • ولم يكن يكترث بالمال ، وكان يحب أن ينفق أمواله فى أوجه الخير ، وكان يتحلى بأخلاق الغربيين (العرب) • وقد أقام مجموعة من القبور فى ضواحى المدينة الجنوبية الشرقية لدفن الموتى من التجار الأجانب « وتروى لنا هذه السجلات شيئين » :

١ — أن الحاجة إلى مجموعة من القبور تقيم الدليل على كثرة العرب الذين كانوا يقيمون فى المدينة فى ذلك الوقت •

٢ — أن قيام شخص واحد ببناء هذه القبور أمر يثبت مدى غنى ذلك الشخص • ولقد عثر فى عام ١٩٦٥ على مجموعة من قبور التجار العرب ، وكان هناك قبر حجرى منقوش عليه كتابات صينية وعربية ، وتدل الكتابة الصينية ، وهى فان كو مو ، على أنها تعنى (قبور الأجانب) • أما العربية فإنها تبرز اسم الجلالة « الله » « والقبور الجماعية للمسلمين » • وربما تكون مجموعة هذه القبور هى القبور التى بناها شيلافى •

على أن من بين هؤلاء التجار الأثرياء ، تاجر يدعى بوشو — جنج ، وهو تاجر عربى من أقوى التجار فى كوانشو فى عهد أسرة سونج • لم يكن غنيا بما يملكه من متاع • وإنما كان أيضا نشطاً فى حقل السياسة • لقد كان المشرف على الملاحة التجارية فى كوانشو فى الأيام الأخيرة من عهد أسرة سونج وكان « مسئولا عن مصالح السفن الأجنبية طوال ثلاثين عاما » (٢٥) •

وبعد ذلك سلم أمره إلى أسرة يوان وأصبح حاكماً لولاية فوجيان فى إبان حكم أسرة يوان • وأصبح كثير من أسلافه ضباطاً فى عهد أسرة يوان • وكان لقب العائلة وهو « بو » قد ترجم من اللغة العربية « أبو » •

٤ — المعاملات الودية فى أواخر القرنين الثالث عشر والرابع عشر •

(أ) أكثر الفترات ازدهاراً فى الاتصالات فى عهد أسرة يوان •

لقد ظهرت قبائل البدو المغولية فى بداية القرن الثالث عشر فى شرق آسيا •• وانتخبت جميع القبائل المغولية تيموجين العظيم جانكيز خان فى عام ١٢٠٦ ميلادية • وبعد أن وحَّدَ المغول واستولى على معظم المنطقة الشمالية التى كانت تقع تحت حكم « جن » (وهى حكومة أخرى فى شمال الصين فى ذلك الوقت) • قاد جيشه غرباً • وغزا لياو الغربية وخوارزم فى آسيا الوسطى • وقد شيد المغول أثناء حكم كل من أوجوتاى ومانجو

وخوبيلاى • هوردخان الذهبية (١٢٤٠ — ١٤٨ ميلادية) فى سارای فى السواحل الواطئة لنهر الفولجا وبنوا إيلخان (١٢٥٨ — ١٣٨٨ ميلادية) فى إيران وأفغانستان ووادى الفرات والدجلة والجزء الجنوبى — الغربى من آسيا الوسطى •• والى جانب ذلك بنوا أوجوتاى خان فى غرب المغول وجاجاتاى خان فى آسيا الوسطى وأكسينجيانج • وبعد أن قضوا على حكم أسرة سونج الجنوبية ، بنى خوبيلاى إمبراطورية يوان العظمى فى عام ١٢٧٩ ميلادية •

ومما لاشك فيه أن هذه التوسعات قد جعلت الشعوب المقهورة تتعرض للمآسى والآلام • ولكنها من ناحية أخرى أدت إلى تنشيط الاتصال بين الشرق والغرب • كان المغول يهتمون بنظام البريد وحمايته بين الشرق والغرب • ولذلك أصبحت المواصلات البرية والبحرية التى كانت مضطربة نتيجة للاضطرابات السياسية طوال الألف سنة السابقة منذ أسرة هان ، طرقا مفتوحة زاخرة بالأنشطة لأن معظم آسيا وأوروبا الشرقية من شانهاجوان إلى بودابست ومن كانتون إلى بغداد قد وحدت تحت حكم المغول •

وورد فى كتاب لتاجر أوروبى عاش فى القرن الرابع عشر « أن الطريق الذى تسافر فيه من تانا (عند مصب نهر الدون) إلى كاتاى ، طريق آمن تماما سواء كان السفر نهاراً أو ليلا ، وذلك بناء على أقوال التجار الذين سلكوا هذا الطريق [٢٦] • إن الذى تحدث عنه هذا التاجر هو الطريق الشمالى بين الصين وأوروبا • أما بالنسبة للطرق التقليدية بين الصين وبلاد العرب وهما « طريق الحرير » و « طريق التوابل » فهما الطريقان الأكثر ازدهارا •

كان الطريق البرى فى ذلك الزمن يبدأ من ممر جانسو على طول « طريق الحرير التجارى » عبر إيران حتى آسيا الصغرى • أما الطريق البحرى ، فكان طرفه الشرقى ينتهى عند ميناء كوانشو فى فوجيان وهرمز

عند ملتقى طرق الخليج ، وكان هذا الميناء المركز الرئيسى فى الغرب • وكانت كوانشـــو فى ذلك الوقت أكثر ازدهاراً من كانتون •

وقال ماركو بوللو فى رحلاته « دعونى أخبركم بكل صـــدق أنه لـــو كانت هناك سفينة تحمل توابل ومتجهة إلى الأسكندرية أو أى بلد مسيحى فى أى مكان • فكانت هناك مقابلها مائة سفينة تأتى إلى هذا الميناء أى ميناء زيتون • لأنه يجب أن تعرفوا ، أنها تعتبر واحـــدة من أكبر ميناءين فى العالم بالنسبة لحجم التجارة » (٣٧) •

وقال ابن بطوطة الذى جاء إلى الصين عند نهاية حكم أسرة يوان أن ميناء زيتون يعتبر واحـــداً من أكبر الموانىء فى العالم ، ولو أنك قلت أنه أكبر ميناء فى العالم « فإنه يبدو لى أن ذلك حقيقة • لقد رأيت فيـــه أكثر من مائة سفينة أما القوارب فلم يكن من اليسير إحصاء عددها » (٣٨) • ومن المهم أن ماركو بوللو تاجر البندقية الشهير الذى جـــاء إلى الصين أثناء حكم خوبيلاى (وصل هيولين عام ١٢٧٥ ميلادية وغادرها عن طريق كوانشو عام ١٢٩١ ميلادية) • لقد جاء على طول « طريق الحرير » براً إلى الصين ثم غادرها على طول « طريق التوابل » بحراً فى طريق العودة • ولقد كتب « وانج لى » يصف التسهيلات المتاحة لطرق السفر عند نهاية حكم أسرة يوان ، قال إن المرء الذى كان يسافر مسافة ألف ـــ لى ـــ كما كان لو كان يتمشى فى حديقة • والمرء الذى كان يسافر مسافة عشرة آلاف ـــ لى ـــ كان كمـــا لـــو كان متجها إلى منزل أحد جيرانه » (٣٩) •

إننى ، حسب علمى ، أعرف أن هناك رحالتين سافرا تماماً مثـــل ماركو بوللو عبر الشرق والغرب وتركا سجلات قيمـــة فى عهد أسرة يوان • إن معظم الناس باستثناء قلة منهم ، لا يعرفون شيئا عن أعمالهما • وكان أحـــد هذين الرحالتين صينياً والثانى عربياً من المغرب • وينبغى لى أن أقدمهما مادمت أتحدث عن المعاملات الودية بين الصين والعرب •

كان الرحالة الأول صينياً سافر من الصين إن فلسطين فى نفس الوقت الذى كان فيه ماركو بوللو مرتحلا • ومما يؤسف له أنه لم يتيسر العثور على أعمال له بين الكتب الصينية • ولكننا نستطيع أن نعرف شيئا عن من « الرحلات والمشاهدات » التى سجلها بالفارسية •

كان اسمه ماركوس باينييل وقد ولد فى إقليم شانكسى عام ١٢٤٥ ميلادية ، وربما كان من الأنجوت وتلقى تعميده النسطورى • وفى عام ١٢٧٨ للميلاد ارتحل غربا مع رابان بارسوما • وهو مواطن من بكين (خانبالبق) • وقد مرا ببلدان هيوتيان وكشجر وخراسان وأزربيجان حتى انتهى بهما المطاف فى مارجا ، وقابلا مارادنها الكاثوليكى فى مارجا ، حيث زودهما برسائل قبل رحيلهما إلى فلسطين وفى عام ١٢٨٠ للميلاد • عين دنها ماركوس مطراناً لكاثاى ، ولكن قبل أن يتجه ماركوس لتقلد مهام منصبه ، وافته منيته • وفى عام ١٢٨١ للميلاد انتخب ماركوس رئيسا للكاثوليك خلفاً لدنها • وكان اسمه الدينى هو ماريهيه — اللاها الثالث واستقر فى بغداد ، ولكنه فى الوقت نفسه كان مسئولا عن الشئون الدينية لمدينتى سيلوسيا واكتيسيفون وكان صديقه سوما ممثلا للخان لدى الفاتيكان لأنه كان ملماً ببعض اللغات الأوروبية • وبعد ذلك ارتحل إلى إيطاليا ثم فرنسا • ووافته المنية فى بغداد عام ١٢٩٤ للميلاد • وتوفى ماريهيه — اللاها الثالث فى ماراجا عام ١٥١٧ للميلاد عن ٧٢ عاما • إن مجازفات ماركوس وصديقه قد تكون قصة خيالية •

أما الرحالة الثانى فهو عربى من المغرب يدعى ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧ للميلاد) • لقد غادر المغرب متجهاً شرقاً فى عام ١٣٢٥ للميلاد ، عبر شمال أفريقيا وزار فلسطين وسوريا والمدينة ومكة وإيران وآسيا الوسطى والهند وسرى لانكا وسومطرة •• الخ •• وفى حوالى عام ١٣٤٧ للميلاد وصل إلى كوانشو فى الصين قادما من فيتنام • وقد زار مدنا صينية كثيرة • وبعد أن مر بالهند وغرب آسيا ومصر ، عاد إلى المغرب فى عام ١٣٤٩ للميلاد • وقد انتهت رحلاته عام ١٣٥٥ •

لقد تركزت رحلات ابن بطوطة بصفة خاصة على وصف الحياة الاجتماعية • وسجل بالتفصيل مشاهداته فى الصين مثل بناء القوارب الصينية • وصناعة الأوانى الفخارية والخزفية ، وآلات الرى والصرف وورق النقد وفحم الكوك والأنشطة التجارية • والقوانين الخاصة بمساعدة المسنين •• الخ وقد تكون هناك أسانيد للأوضاع التى وصفها فى كتب التاريخ الصينية • فمثلا لقد تحدث عن العرب الذين قابلهم فى كوانشو وبعضهم ممن وجدت أسماؤهم منحوته على نصب كنج حنج سى (المسجد الطاهر) • وتعتبر هذه الرحلات مادة بالغة القيمة •

(ب) التبادل العلمى والأدبى فى عهد أسرة يوان :

منذ قيام دولة بنى العباس فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، كان الوضع السياسى للخلافة العباسية مستقراً نسبيا • وذلك أن الإمبراطورية العربية كانت تحتل مركزا هاما فى المواصلات من الشرق إلى الغرب • وقام العرب بترجمة عدد كبير من المؤلفات اليونانية القديمة من ناحية واستوعبوا الاختراعات التكنولوجية والعلمية الشرقية من ناحية أخرى • ولقد درسوا هاتين الناحيتين واستوعبوهما وجمعوا بينهما وحدهم • وأخيراً أسهموا بنصيب وافر فيها وأثروها ثم شكلوا الأدب العربى الحديث • وإلى جانب ذلك نبغ العرب فى حقول الرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا والطب •• الخ • ولقد أدى قيام الإمبراطورية المغولية إلى تهيئة ظروف مواتية للغاية للتبادل العلمى والأدبى بين الصين والعرب وكان بمثابة ذروة هذا التبادل •

بعد ان احتل هولاكو بغداد كلف ناصر الدين الطوسى (١٢٠١ — ١٢٧٤) بإقامة مرصد فلكى فى مارجا فى أذربيجان • ويقول الدكتور جوزيف نبدهام ان « هولاكو بعث فى طلب علماء الفلك من الصين للاشتراك فى هذا العمل • ونحن نعرف اسم واحد منهم وهو فو منج — شى (وان لم نعرف مميزاته) [٣٠] •

أما بالنسبة لتبادل المعرفة فى حقل علم الفلك بين الصين والعرب فهناك صفحتان فى كتاب **فصـــل عن الفلك** ليوان شى (تاريخ أسرة يوان) تتناولان « نماذج الأدوات الفلكية من الغرب » • وهذه النماذج السبعة كان قد بعث بها هولاكو خان إلى خوبيلاى خان بواسطة أحد علماء فلك المـــارجا وهو زا مالودنج (جمال الدين) • وقد وردت أسماء ومواصفات هذه الأدوات الفلكية السبع فى هاتين الصفحتين • ولقد أعد زا مالودنج وان ينان لى (تقويم العشرة آلاف سنة) أيضا بعد وصوله إلى بيكين « وقد يكون هو جمال الدين بن محمد البخارى الذى رفض أن يضطلع بالمسئولية الكاملة عن بناء مرصـــد ماراجا عام ١٢٥٨ للميلاد » وذلك على حـــد قول ج • نيدهام • إن ما حمله معه كانت أحدث الأدوات الفلكية المتقدمة فى مرصد ماراجا فى ذلك الحين • وإن تقديم أحد النماذج السبعة وهو دى لى جى (الكرة الأرضيـــة) فى **فصـــل علم الفلك ليوان شى** ، هام للغاية ، فقد جاء فى وصف هذا النموذج « أنه كرة أرضية صنعت من الخشب ويرمز إلى سبعة أجزاء من المـــاء عليها باللون الأخضر وإلى ثلاثة أجزاء من اليابســـة باللون الأبيض مع تمييز مواقع الأنهار والبحيرات •• الخ •• وقد رسمت عليها مربعات صغيرة لتسهيل إحصاء أحجام المناطق وتحديد المسافات » وأعتقد أن هذه قد تكون أول خريطة كروية مجسمة للكرة الأرضية ترســـل إلى الصين •

ولكن يبدو أن تلك الأدوات الفلكية المتقدمة لم تعطل الاختراعات التى كان يقوم بها علماء الفلك الصينيون • فمثلا لم يكن عالم الفلك الصينى المشهور جيوشـــو ـــ حنج ، الذى عاش فى عهد أسرة يوان ، مقتنعا بتلك الأدوات التى وردت إلى الصين ، ولذلك اخترع « أداته المبسطة » فى عام ١٢٧٦ للميلاد على أساس التحسينات التى أدخلها شن كيو الـــذى نقل دائرة مسير القمر من سان شن جى الذى عاش فى عهد أسرة سونج • إنه لم ينقل الدائرة لمسير القمر فحسب ولكنه نقل أيضا الدائرة الظاهرية لمسير الشمس وفصل بين النظام الســـوى والنظام الاستوائى مما حطم

قيود أدوات ماراجا الفلكية وكان ذلك قبل صنع المحلقة (آلة فلكية صغيرة) الإستوائية بثلاثة قرون ، وهى الآلة التى صنعها عالم الفلك تايكوبراهى فى عام ١٥٨٩ للميلاد •

وبالإضافة إلى علم الفلك كانت هناك بعض الحقائق الهامة فى ميدان التبادل الطبى • ويقال أن قياس الضغط الوارد فى كتاب (القانون) الذى وضعه ابن سيناء ، الطبيب العربى المشهور (٩٨٠ — ١٠٣٧ للميلاد) قد تأثر بطريقة قياس الدم الصينية التى كانت معروفة فى عهد أسرة سونج [٣١] • ولقد كان العرب هم الذين نقلوا الدواء الصينى إلى أوروبا عن طريق البحر قبل القرن الثانى عشر بعد الميلاد • وقد قال أبيتزور (*) طبيب عربى آخر إن هذا الدواء نوع من الحصى يتكون نصفه من المعادن والنصف الآخر عضوى • وقد اكتشف فى أحشاء الحيوانات التى تتغذى على الحشائش وقد وصف هذا الدواء بأنه « الترياق الشرقى » وقيل أنه كنز لا يقدر بثمن •

وكان هناك مكتب جوانج هوى سى (المجلس الخيرى الموسع) فى المستشفى الإمبراطورى فى عهد أسرة يوان • ومهمته كانت مقصورة على دراسة الطب العربى ، وكانت مهمة هذا المكتب الإشراف على إنتاج الأدوية والعقاقير العربية • وكان هناك مكتبان فرعيان تابعان لهذا المكتب لهما نفس الاختصاص وكان أحدهما يسمى مكتب الطب الإسلامى لخانباليق ومكتب كاراكورون للطب الإسلامى [٣٢] •

وفى عام ١٩٥٧ بعد الميلاد ، أكتشف بعض علماء الآثار خمسة مربعات من الحديد المتساوية الأحجام ، وكان يبلغ طول وعرض كل منها ١٢٫٤ سم وسمكها ١٫٥ سم • وكانت هذه المربعات الأربعة موضوعة فى

---

* ابيتزور ، هو أبو العلاء زهر المتوفى فى سنة ١١٣٠ م وكان نابغة فى تشخيص الأمراض ، دخل فى خدمة المعتمد بن عباد فى اشبيلية وهو أشهر أفراد أسرة زهر ويسميه الأوروبيون أفنزور (المترجم)

داخل أربعة أحجار مربعة محفورة • وبعد أن عكف بعض علماء الرياضيات على دراستها انتهوا إلى أنها تعتبر « مربعاً سحريا » ومصنوعة من أرقام عربية مرتبة ترتيباً سحريا بحيث يكون مجموع كل منها سواء الأرقام الأفقية أو الأرقام المنحرفة الترتيب ١١١ • ويعتبر هذا اكتشافاً بالغ الأهمية وهو لابد وأن يكون المواد الحيوية الأولية التى تقيم الدليل على تطبيق الأرقام العربية فى الرياضيات فى الصين • وهو إلى جانب ذلك دليل بالغ الأهمية على تأثير الرياضيات العربية على علم الرياضيات فى الصين (٣٣) •

وبالإضافة إلى ذلك إن أسرة يوان شجعت عدداً كبيراً من العمال المسلمين على الهجرة إلى الصين •• وجدير بالذكر أنه حينما قام جنكيزخان بحملته الغربية فى معركة سمرقند عام ١٢٢٠ ميلادية بلغ عدد أسراه من العمال ثلاثين ألف عامل • وقد وزع العمال الذين مارسوا حرف هامة فى ورش رسمية • ونتيجة لهذا التوزيع صنع بعض العمال الحربيين بعض الأسلحة مثل القاذفات العربية وهى آلات لقذف الحجارة • وقد لعب هذا النوع من الآلات القاذفة دورا هاما فى المعركة حينما هاجم جيش يوان مدينة اكسيانج يانج ، فى سونج الجنوبية •

وإلى جانب ذلك اشترك مهندس عربى اسمه بالصينية « بى هاى داى » (لكننى لا أعرف الاسم بالعربية) فى المشروع الإنشائى لبناء عاصمة أسرة يوانج التى كانت بمثابة الأساس لمدينة بكين •

(جـ) وفود عدد كبير من العرب إلى الصين :

لقد كان هناك عرب — كما تقدم — استوطنوا الصين فى عهد أسرة تانج ، وكانوا يتزوجون بنساء صينيات من جيل إلى جيل • وتطورت هذه الحالة تطوراً سريعاً فىعهد أسرة يوان ، فقد اتسعت رقعة الإمبراطورية المغولية غرباً فى أول الأمر ثم جنوبا • وبعد أن استولى المغول

على آسيا الوسطى وغرب آسيا أرغموا عـــدداً كبيراً مـــن الشباب على الانضمام إلى الجيش والاشتراك معهم فى مهاجمة سونج الجنوبية • وكان هؤلاء الذين قدموا من المنطقة الغربية يدعون « هوى هوى » فى عهد أسرة يوان • وكانوا آسيويين وفارسيين • وكان من بينهم عدد مـــن العرب • وبعد قيام أسرة يوان ، لم تتم إعادتهم إلى مواطنهم الأصلية ، ولكنهم استقروا حيث طاب لهم المقام واشتغلوا فى الزراعة • وطبيعى أنهم حينما أرغموا على الانضمام للجيش جاءوا بدون عائلاتهم • ولذلك فإنهم بعد أن استقروا تزوجوا من نساء صينيات •

لقد كان هناك بعض الرجال المتعلمين الـــذين ينتمون إلى الطبقات العليا بين هؤلاء الذين وفدوا إلى الصين أثناء فترة حكم أسرة يوان • وقد سلموا أنفسهم إلى الجيش المغولى وقدموا إلى الصين مع عائلاتهم • وكان هناك بعض التجار الذين جاءوا إلى الصين واستقروا فيها عن طواعية •

وقد قام حاكم أسرة يوان بتقسيم الشعب إلى أربع طبقات حسب نظام غزوتهم •

تتألف الطبقة الأولى من المغول والثانية من سى ــ مورين (الناس المنتمين إلى بلدان مختلفة) • والثالثة هى طبقة الهان رين (هم ســـكان المنطقة الواقعة شمال نهر اليانجتسى) والرابعة من (نان رين) (السكان المقيمين جنوب نهر اليانجتسى) • ولمـــا كانت مراكزهم الإجتماعية مختلفة فإنهم كانوا يعاملون على هذا الأساس من الناحية السياسية • وكان الناس المنتمون إلى طبقة « سى ــ مورين » يولون عادة بعض المناصب الهامة • وقد رود فى الكتب التاريخية أن ٣٢ من الأشخاص المنتمين إلى طبقة سى ــ مورين عينوا فى مناصب بارزة فى الحكومة المركزية • أما هؤلاء الذين عينوا قواداً عامين فى الحكومات المحلية فقد زاد عددهم عن ذلك •

كان من بين هؤلاء أمير اكسيانج المشهور وهو سيد (أدجيل) شمس الدين (١٢١١ — ١٢٧٩ م) • وجاء فى كتاب **يوان شى** ، (تاريخ أسرة يوان) • أن سيد شمس الدين من نسل الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان نبيلا عربياً • وبعد أن وفد إلى الصين عين حاكما فى كل من شانكس وسيشوان ويونان على التوالى • وحينما كان حاكماً ليونان قام بانشاء مشروعات للرى وإصلاح التالف من وسائل الرى • وبالاضافة إلى ذلك قام باستصلاح وزرع زهاء ١٣٫٣٣٠ هكتارا من الحقول فى غضون ستة أعوام • وقد تبنى التعليم وحسن طرق النقل بين سيشوان ويونان وأسهم بنصيب كبير جداً فى تطوير انتاج الأدب فى يونان والاتصال مع القسم الداخلى من الصين • وقد عُين كثير من أحفاده فى مناصب كبيرة أثناء فترة حكم أسرة يوان •

وكان هناك مثقفون كثيرون مشهورون من العرب فى عهد أسرة يوان • وكان بوشون — شيخ شقيق بوشون — جنج الآنف الذكر شاعراً مشهوراً فى نهاية عهد أسرة سونج وبداية عهد أسرة يوان • وبعد أن استقر شمس (١٢٧٧ — ١٣٥١) العربى فى الصين طوال ثلاثة أجيال • وبعد أن عين مسئولا كبيراً فى عهد أسرة يوان • منحته حكومة يوان لقب ماركيز بعد وفاته • وكان ضليعاً فى الأدب الصينى والتاريخ أيضا ، « ودرس علم الفلك والجغرافيا والموسيقى والرياضيات والرى كما درس الكتب الأجنبية » [٣٤] • وكانت مؤلفاته كثيرة ، ولكن معظمها قد فقد ، وعثر على ما بقى من مؤلفاته وهو كتاب « هى فانج تونج بى » (بحث عام عن منع فيضان مياه النهر الأصفر) فى **يونج لى دا ديان** (الموسوعة الكبيرة لفترة حكم يانج — لى) •

إن هؤلاء العرب وغيرهم من الناس الذين نزحوا إلى الصين من منطقة الغرب قد استقروا فى الصين وتزوجوا صينيات وأقاموا فيها أجيالا بعد أجيال وشكلوا تدريجياً جزءاً من الأمة الصينية ، المعروفة باسم هوى

زو • وقـد أصبح شعب هـوى زو واحداً من الشعوب الكثيرة التى تتكون منها الأمة الصينية •

٥ ــ المعاملات الودية من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر

أكدت أسرة ييننج (١٣٦٨ ــ ١٦٤٤ م) التبادل مع البلدان الأخرى منذ البداية • وبعد أن اتخذ الإمبراطور تاى زو (Tai Zu) ، مدينـة نانجنج عاصمة له أنشأ (سى بى جوان) ، أى (المجلس المختص بالبلدان الأجنبية) لإعداد مترجمين • وفى خلال فترة حكم هونج ــ وو (١٣٦٨ ــ ١٣٩٨ م) ، أوفد فوآن وآخرين إلى منطقة الغرب عن طريق البر • وقد عادوا بعد أن قضـوا هناك ثلاثة عشر عاما • وإلى جانب ذلك أوفد كلا من جاوشـو وجانج جنج ــ شى وشن جى ، ولوى شـو ــ ميان ، وهكذا إلى بالمبنج وبورنيو وكولا ••• الخ عن طريق البحر مرات عديدة • وقد عمد الإمبراطور تاى زو إلى إنشاء مزارع لزراعة عشرات الملايين من أشجار الزيت واللاكور فى جبل زونجشان فى ناتجنج لصناعة السفن مـن الخشب ، وذلك من أجل تنمية التبادل الدولى • ولقـد تحقق هذا الطموح العظيم بفضل الأساطيل التى قادها جنج هيو أثنـاء حـكم الإمبراطور سنج زو (١٤٠٣ ــ ١٤٢٤ م) •

كان جنج هيو مسلماً من سكان يونان • ولقد أدى أبوه وجده فريضة الحج إلى الأراضى الحجازية المقدسـة واكتسب كل منهما لقب حـاج • إننـا نستطيع أن ندرك من عائلته أنه لم يكن حادثاً عابراً بالنسبة إليه بأن يضطلع بمهمة هامة وهى الذهاب غرباً سبع مرات • ولنعد من البداية مبتدئين بأول مرة أبحر فيها عام ١٤٠٥ م وعاد من رحلته البحرية الأخيرة عام ١٤٣٣ م ، وقد بلغ عدد رحلاته إلى الخارج سبع مرات وقضى زهـاء ثلاثين سنة من حياته فى البحر زار خلالها شبه جزيرة الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو وجزر الملايو وشبه الجزيرة الهندية وشبه جزيرة العـرب

البلاد التى زارها أكثر من ثلاثين بلداً • ومن بينها بلادكم « ظفار » والحسا وعـــدن ومكة •• الخ فى شبه جزيرة العرب • وتعتبر أعماله صفحة ناصعة فى تاريخ الملاحـــة لبلادنا •

ولقد ورد فى « تاريخ البلدان الأجنبية » عن **مينج شى** (تاريخ أسرة والساحل الممتد على طول شرق أفريقيا •• الخ • وقد بلغ مجموع عدد مينج) أنه حدث فى السنة التاسعة عشر من حكم يونج — لى (١٤٢١ م) أن أوفدت ظفار مندوباً إلى أسرة مينج مع مندوبين عن عدن والحســا • وقد أصـــدر الإمبراطور شنج زو ، أمراً إلى جنج هيو ، لرد الزيارة مع أوراق اعتماد وهدايا • وقد تكـــون هذه هى المرة السادسة التى يتوجه فيها جنج هيو غربا (١٤٢١ — ١٥٢٢ م) • وفى هذه المرة أوفد حاكم ظفار مندوبين لرد الزيارات ووصلوا إلى بكين عام ١٤٢٣ م • وعندما ذهب جنج هيو إلى الخارج للمرة السابعة عام ١٤٢٥ قام بزيارة أخرى لظفار • وبادر الملك على إلى إيفاد مندوبين لرد الزيارة من جديد • وقد رافقوا جنج هيو ووصلوا بكين عام ١٤٣٣ م • إن هؤلاء المندوبين لم يعودوا إلى بلادهم حتى عـــام ١٤٣٦ م • لم يكن ما حدث إلا تبادل زيارات ودية ، إن تبادل المندوبين بين بلدينا سجل رسمياً فى كتب التاريخ الرسمية عندنا •

حينما سافر جنج هيو إلى الخارج ، عاد مع مترجمين عرب منهم ماهوان وفى اكسنج وجونج جين •• الخ • ولذلك لم يصـــل إلى المكان المنشـــود شخصياً فحسب ، وإنما تغلب أيضا على مشكلة اللغة • وهكذا حصل على مزيد من المعلومات المباشرة عن شبه جزيرة العرب • إن كتاب **ينج ياشنج لان** (رؤيا مظفرة للرمث اللامع) الـــذى وضعه فاى اكسين يتضمن حتى اليوم جميع مشاهداتهم فى البلدان الأجنبية حينما تبعـــوا جنج هيو فى الخارج • إن هذه الكتب قيمة للغاية وتعتبر معظم الأوصاف لهذه البلدان الأجنبية الواردة فى **مينج شى** كل ما سجله جنج هيو وهـــو فى الخـــارج • فمثلا جـــاء فى وصف ظفـــار إنك إذا أبحـــرت فى اتجـــاه

شمال غربى من كوجيكود • فإنك قـد تصل إلى هناك بعد عشرة أيام • إن لهذا البلد بحراً عند جنوبها الشرقى وجبالا فى شمالها الغربى ، والطقس هناك على مدى السنة يشبه طقس الصين فى شهرى أغسطس وسبتمبر • وتتوفر هناك الحبوب والخضراوات وأنواع الماشية المختلفة ، ويمتاز الناس بطول القامة • ويعتنق الجميع ، من الملك حتى الرجل العادى الإسـلام ، وتتم مراسم الزواج وطقوس الجنازة حسب الشعائر الإسلامية • وقد شيدت جوامع كثيرة فى بلادهم • وحينما يحين موعد الصـلاة ، فى يوم الجمعة ، تتوقف المعاملات التجارية فى الأسواق ويستخدم جميع الناس بما فيهم الأطفال ويرتدون ملابس جـديدة ثم يتعطرون ويمسحـون وجوههم بسحـوق الورد أو بزيت خشب الصندل •

وإلى جانب ذلك يعمدون إلى حرق البخـور فى المباخر ويلتف الناس حولها لكى تكتسب ملابسهم رائحة البخـور ثم يتوجهون إلى المساجد • وحينما يسير الناس فى الشـوارع تفوح منهم رائحة الطيب وتبقى رائحة البخـور مدة طويلة •

وجاء فيه أيضا أنه عندما وصل جنج هيو وزملاؤه طلب الملك إلى شعبه أن يجـرى مبادلات تجارية تتناول الزيوت والبخـور واللبـان والتوابل مع أعضاء الوفد الصينى • وإلى جانب ذلك أوفد مندوبين مـع اللبان العربى والنعام إلى الصين • ومن هذا يتضح لكم أن الصـداقة بين بلدينا لها جـذور عميقة •

لقد كان الفضـل فى نجاح جنج هيو يعـود إلى تطور تكنولوجيا بنـاء السفن والملاحـة عند الصين • وكانت تلك السفن التى بنيت لرحلات جنج هيو البحرية تسمى السفن الشراعية الكبيرة • إذ كانت تبلغ ١٦٠ مترا طولا و ٦٦ مترا عرضا • ولها ١٢ شراعا • وقد يكون هـذا النوع مـن السفن أضخم سفن عرفها تاريخ بنـاء السفن الصينى • وكانت القوارب

الشراعية المتوسطة تبلغ ١٣٠ مترا طولا و ٥٥ مترا عرضا • وكانت ترافق جنج هيو فى كل مرة يبحر فيها أكثر من مائة إلى مائتى سفينة • وكان ثلثها يتألف من قوارب شراعية ضخمة ، أى من عدد يتراوح بين ٤٠ و ٦٠ سفينة وكان عدد القادة والجنـــود الذين تحملهم هذه السفن يقدر بأكثر مـــن ٢٧ ألفا • وليس ثمـــة شك فى أن هذا كان حقا يعتبر أسطولا ضخماً •

وثمـــة حقيقة هامة وهى أنه إذا كان فى « استطاعة جنج هيو أن يقود مثل هذا الأسطول الضخم ، فذلك مرده إلى المهارة الفائقة التى اتسمت بها الملاحـــة الصينية • ومازالت هناك حتى اليوم بعض الخرائط التى تبين الطرق البحرية لأساطيل جنج هيو • ومن بينها خرائط أكثر أهميـــة وهى « الخرائط الخاصة بعبور المحيط بواسطة النجوم » ونستطيع أن نتبين من ذلك مهارة الملاحـــة بالاستعانة بالنجوم التى وصلت حـــداً كبيراً من الاتقان • فمثلا كانت الخطة الخاصـــة بالإبحار من كوجيكود فى الهند إلى ظفار قد عكف على دراستها بعض العلماء والمثقفين •

وهكذا تتضح الحقيقة الرائعة وهى أن السفر إلى الخـــارج بحراً مع جنج هيو فى عهد أسرة مينج ، كان مردها إلى الخبرة فى الملاحـــة بين الصين وبلاد العرب وهى خبرة كانت حصيلة مئات عديدة من السنين الماضية فى عهود أسر تانج وسونج ويوان •

كانت الرحلات البحرية السبع التى قام بها جنج هيو فى المحيط الغربى سبباً فى تنمية التبادل بين الصين والبلدان الأجنبية ، وكان نتيجة لهـــذه الرحلات أن أوفدت بلدان كثيرة فى جنوب آسيا الشرقى وجنوب وغرب آسيا وشرق أفريقيا ممثلين عنها مع أساطيل جنج هيو إلى الصين لتقديم أوراق اعتمادهم إلى أسرة مينج • وجدير بالذكر أنه فى إبان حكم أسرة مينج أوفدت كل من مكة والمدينة وعدن والحســـا وظفار فى شبه جزيرة العرب مندوبين عنها إلى الصين عن طريق البحر مرات كثيرة • ومن ناحية

أخرى كان هناك تجار مسلمون يفدون إلى الصين برا عن طريق الحرير « للتجارة » •

وجاء فى كتب التاريخ لأسرة مينج أنه كان هناك ٣٤ مجموعة من المندوبين وفدوا إلى الصين من شبه جزيرة العرب خلال ١٩٤ عاما من ١٤٠٦ م إلى ١٦٠٠ م • أى بمعدل مجموعة فى مدة أكثر من خمسة أعوام • وقد نتبين من خلال هذه السجلات التاريخية أنه بعد عام ١٤٤١ م جاءوا كلهم عن طريق البر وأعلنوا جميعا أنهم مندوبو تيان — فانج (مكة) فقط • وكان الوفد أحيانا يضم ٣٧ مندوبا • والواضح أن معظم هؤلاء المندوبين كانوا تجارا • وقد كتب بنيديكت جويس (Benedict Goes) وهو مبشر برتغالى وصل إلى سوجو (Suzho) فى الصين عن طريق البر عام ١٦٠٥ يقول فى وصف المدينة :

« إن سوجو مدينة تعج بالتجار الأجانب وهناك اتفاقات بين الصين وسبع أو ثمانى بلدان فى الغرب • وأن هذه البلدان قد توفد ممثلين عنها يقدر عددهم بحوالى ٧٢ مندوباً إلى الصين لتقديم الهدايا إلى الإمبراطور • أما إذا زاد العدد عن ذلك • فإن الحكومة الصينية كانت ترفض أى زيادة • وكان معظم المندوبين من التجار ، وكانت نفقات الرحلة ذهاباً وإياباً تتحملها الحكومة • فالإمبراطور عنده من الخيلاء والزهو ما يجعله يحس بالخجل إذا قبل هدايا بدون مكافأة سخية •• لذلك يعمل جميع الأعضاء إلى التنافس على تمثيل أعضاء الوفد • ويصل هذا التنافس إلى حد رشوة رئيس الوفد نفسه بمبلغ كبير من المال ، وإذا لزم الأمر ، قد يتظاهر هؤلاء التجار بأنهم مندوبو الملك ويعمدون إلى تزوير أوراق اعتماد لكى يتملقوا الامبراطور » (٣٦) •

ولقد اختير بنيديكت جويس نفسه واحداً من بين هؤلاء المندوبين الإثنين والسبعين •

ونستطيع أن نتبين من سجلات عهد أسرة مينج أن ممارسة « سياسة قفل حدود البلاد » المتبعة إذ ذاك قد أدت إلى تبادل دولى محدود • وكان الأباطرة يكتفون بإشباع خيلائهم وزهوهم بالهدايا التى تقدم إليه بصفة جزية • وقد أدى ذلك إلى عرقلة تطوير الملاحة الصينية والتجارة فى الخارج • إلى أن فتحت التجارة البحرية ومدافع الغرب بوابة الصين على مصراعيها •

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى
المكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص :

مـلاحظـات

١ — سيما قيان **قصة حياة جانج قيان ، ثى جى** (السجل التاريخى) .

٢ — فان بى ، **قصة حياة بانج شاو** وتقرير عن منطقة العرب . **هو هـان شـو** « تاريخ العهد الأخير لحكم أسرة هان » .

٣ — جوزيف نيدهام ، **العلوم والحضارة فى الصين** . المجلد الأول .

٤ — شى هيو ، **بيان البلدان الأجنبية** ، سونج شو (تاريخ أسرة (ليـو سـونج) .

٥ — ناجونج ، **العلاقات الودية بين الصين والعرب فى العصر الوسيط . تاريخ التعليم** (شهرية) رقم ١ ، ١٩٧٩ .

٦ — نفس المصدر ٣ .

٧ — نفس المصدر ٣ .

٨ — يقال أنه كان هناك أربعة رجال فضلاء من بين صحابة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد جاء هؤلاء الأربعة الى الصين فى مهمة فى عهد أسرة تانج وقد توجه الأول الى كانتون والثانى استقر به المطاف فى يابخشـو ، أمـا الثالث والرابع فقد استقرا فى كوانجو . وقـد نرى أيضا أن غالبية العرب الذين جاءوا الى الصين فى عهد أسرة تانج قد تجمعوا فى هذه المدن الثلاث .

٩ — بى وين — تنج ، **الدليل التاريخى على التبادل الـودى** بين الصين والعرب . برايتنس ديلى « Brightness Daily » ، ١٨ أكتوبر ١٩٧٨ .

١٠ — شن يوان ، **تاريخ وصول الاسلام الى الصين ، أورينتال جورنال** ، المجلد ٢٥ رقم ١ .

١١ — كارتر ت . ف . **أختراع الطباعة فى الصين وانتشارها غربا** . وو زى — يـان .

١٢ — نفس المصدر ٣ .

١٣ — جوكو — فاى ، **لينج واى داى دا** (أحاديث عن الأشياء الغريبـة خارج الجبال الخمسة ، بدلا من كتابة خطاب) .

١٤ — **سان شاو باى منج هوى بيان** (تاريخ الحلف الشمالى للأسر الثلاث) .

١٥ — **تقرير موجز عن أكتشاف قارب بحرى يعود تاريخه الى أسرة سونج أثناء حفريات ، أجريت فى خليج كوانتشو** . التراث الثقافى (شهرية) رقم ١٠ ، ١٩٧٥ .

١٦ — اكسو جينج ، **أكسوان هيو فنج شى جاو — لى جنج** . (سجل مفسر لسفارة كوريا فى عهد حكم اكسوان — هيو المجلد ٣٤) .

١٧ — شن فو — واى . **السفن الشراعية الصينية وطرق الملاحة فى المحيط الهندى فى القرن الثانى عشر** . تاريخ (فصلى) رقم ٢ ، ١٩٧٩ .

١٨ — جانج اكسينج — لانج . **مواد لدراسة التبادل بين الصين والبلدان الأخرى** . المجلد ٢ .

١٩ — نفس المصدر ٣ .

٢٠ — نفس المصدر ١٨ .

٢١ — سو شى ، **المرسوم الامبراطورى الخاص بتعيين اكسينج ياتيو لو مديرا للهجرة ، دونج بو واى زى جى** (مشروعات مراسيم امبراطورية) .

٢٢ — سوجى **لونج شوان لبو زى** (سجل موجز لنهر دراجون) المجلد ٥ .

٢٣ — **سونج هوى ياو** (تاريخ النظم الأساسية الادارية لأسرة سونج) .

٢٤ — وو وين — ليانج **نقوش دينية على الأحجار فى كوانتشو** .

٢٥ — تيو تيو واويانج اكسوان ، **تاريخ الأمير ينج سونج شى** (تاريخ اسرة سونج) .

٢٦ — نفس المصدر ٣ .

٢٧ — **رحلات ماركو بولو** . جانج اكسينج — لانج .

٢٨ — نفس المصدر ١٨ .

٢٩ — وانج لى ، **لينج يوان جى** (مقالات يونيكون بلين) المجلد ٦ .

٣٠ — **نفس المصدر ٣** .

٣١ — ما كان — وين . **فحص نبض القلب — أحد الانجازات الرائعة فى الطب الصينى القديم . انظر الانجازات العلمية والتقنية الصينية القديمة .**

٣٢ — سونج ليان ، **نظام التنظيم الحكومى ، المستشفى الامبراطورى — يوان شى** (تاريخ أسرة يوان) .

٣٣ — وو بولون . **تاريخ موجز لاكسيان .**

٣٤ — سونج ليان **مدرسة كونفوشيوس ، يوان شى** ، (تاريخ أسرة يوان) .

٣٥ — جانج تينج — يو **تقرير عن البلدان الأجنبية** ، مينج شى ، (تاريخ أسرة مينج) .

٣٦— نفس المصدر ١٨ المجلد الأول .

دراســة ميدانيــة لمصــادر الثروة

مشروع الخابورة

دكتور . ر . دانون

The Project of Khabourah

Dr. R. Dutton

أن التكافل سمة مميزة للمجتمع الريفى الحقيقى • والتكافل هـو الاعتماد المتبادل بين الناس الذين يشكلون المجتمع ، بما يجعل كل فرد يدرك قيمة الاسهام الذى يقوم به الآخرون للحفاظ على المجتمع ككل • والتكافل يخلق درجة هامة فى الاستقلال الفعال عن العالم الخارجى • وهو بالتالى يلقى بمسئولية الحفاظ على المجتمع على عاتق أعضائه • وقبول مثل هذه المسئولية ينطوى على إدراكه ، إن أى فرد لابد وأن يعيد للنظـام الاجتماعى والاقتصادى للقرية بمقـدار ما يأخـذ منه • فلابد وأن يساعد على الوفاء بحاجات المستقبل بنفس القـدر الذى يتمتع به فى الحق فى تلبية متطلباته الحالية • ان خلق توازن ديناميكى بين تلبية المتطلبات الحالية وبين الوفاء بحاجات المستقبل ، انمـا ينطوى بدوره على شكل من أشكال التحكم للحيلولة دون فقدان هذا التوازن • إلا أن هذا التحكم لابد وأن يتصف بالمرونة والاستجابة للظروف المتغيرة • وإذا ما كان هـذا التحكم فعالا ، فيجب أن يكون قادرا على تحقيق التوازن على مستوى أعلى — إذا ما كان ذلك مرغوبا — بما يمكن الأفراد من أن يأخذوا أكثر من النظام لاشباع تطلعاتهم الأسمى بما يضمن أن يعـود للنظام عائد بنفس القدر •

والتكافل يتضمن أيضا أن يوفر المجتمع معظم حاجاته الخاصـة • ففى المقام الأول يتم بصـورة محلية زراعة ، أو تصنيع نسبة عالية مـن المتطلبات الغذائية والمـادية الأخرى عن طريق الاستخدام الكامل للموارد المحلية ، وتنمية المهارات البشرية الضرورية لإنجاز العمل المعنى • والمجتمع يعيش فى انسجام مع بيئته الطبيعية ، فالحرفيون يفهمون طبيعة وقيمـة المـواد الخام التى يعملون بها ، وبالتالى يعاملونها بالاحترام الواجب • وثانيا ، فإن المجتمع يتحمل أيضا مسئولية التعليم والتدريب ، ومسئولية رفاهيته المـادية والروحية •

وقيمة الاستقلال عن العالم الخارجى لاتكمن فقط فى الإحسـاس بالمسئولية ، وبالتالى نشر الاتجاهات المسئولة فى المجتمع ، بل إن الاستقلال

أيضا يحمى المجتمع الريفى من التغيرات التى تحـدث فى البيئة العالمية ، والتى تخرج عن نطاق قدرته على التحكم •

ومن حيث الواقع لا يوجـد بطبيعة الحـال مجتمع ريفى مستقـل بالكامل • وبوجه خاص فإن تطلعات الأفراد تكون عرضة للتغيير من جراء تعرضها لمختلف أنماط ومستويات المعيشـة فى المجتمعات المجاورة • وليس هناك سبب نظرى يفسر أن هذه التطلعات المتغيرة أو الأعلى لا يمكن تلبيتها طالمـا لا يغذى النظام بعائد إضافى مساو لها ، إذ لا يمكن تلبيتها الا بمزيد من العمل الشاق ، وبمزيد من العمل المنتج ، وبالاضطلاع بأنماط حديثة فى العمل • وبهذا الشكل فإن المجتمع المحلى الحقيقى يمكن أن تطرأ عليه تعديلات واسعة ويظل مع ذلك مجتمعا محليا ، وإن كان ذلك ينطوى على عملية تكيف تطورية تستغرق بعض الوقت • وهذه الحاجـة للوقت هى التى تجعل المجتمع الريفى التقليدى غير محصن ، إذ يمكن أن يجتاحه التغيير السريع الآتى من الخارج ، وهـو التغيير الذى يخرج عن نطاق سيطرته • وقد حدث مثل هـذا التغيير السريع فى شبه الجزيرة العربيـة وعمان مع اكتشـاف البترول وتصديره • وكما كان متوقعا ، فقد تركت الثروة البترولية الجديدة تأثيرا عميقا على المجتمعات الريفية • ولكى نفهم ذلك يتعين أن نرسم هيكل المجتمع الريفى فى فترة ما قبل البترول •

المجتمعات الريفية الأهلية السابقة فى عمان :

منذ حوالى الثلاثين عاما ، وقبـل إكتشاف البترول فى عمـان ، أو الاستغلال الكامل للموارد البترولية فى أجزاء شـبه الجزيرة العربيـة الأخرى [1] ، كان يمكن القول بأن المجتمعات الريفية فى عمان كانت تحتفظ باستقلالها التقليدى القائم على التكافل الفعال بين الناس الذين يعيشون فيهـا •

فسكان قرية مثل قرية العراقى فى إقليم الظاهرة ، كانوا يعتمدون بصـورة متبادلة على مهارات بعضهم البعض • وبفضل هـذه المهارات

كانوا يستخدمون الموارد المحلية بشكل كامل وفعال ، حسب مستوى التكنولوجيا المتاح لهم فى ذلك الوقت • وكانت المياه هى المورد الرئيسى بين هذه الموارد ، حيث كانت القرية بأكملها تحصل على المياه من « فلج » واحد تمتلكه القرية بصورة مشاعية (٢) • وكان الحفاظ على « الفلج » للاستخدام فى المستقبل ؛ ووضع نظام لدورة المياه التى تستغرق ستة أيام ؛ والرى باستمرار ليلا ونهارا وفقا لجدول زمنى دقيق يجرى تعديله ليتناسب مع مختلف الاحتياجات فى الصيف والشتاء — كان كل ذلك يتطلب درجة عالية من التحكم والتكافل •

وكانت الأرض تقلب وتسوى وتقسم وتزرع وتوضع بها الأسمدة بما يبقى عليها فى حالة طيبة • وكانت البذور المحلية تستخدم فى زراعة المحاصيل المتعاقبة مثل القمح وغيره ، كما تستخدم الشتلات المحلية لزراعة أجيال جديدة من النخيل • وكانت الحيوانات المحلية توفر السماد ، بينما كانت الثيران المحلية توفر كافة الجر للمحاريث ذات الأسلحة المعدنية • وكان المحراث نفسه يصنع لدى نجار القرية من الأخشاب المحلية ، بينما كان السلاح المعدنى له يصنع لدى الحداد المحلى ، على حين كانت تصنع حبال الجر والتوجيه من ألياف النخيل •

وكل المبانى كان يبنيها أصحابها ، أو مجموعة من الحرفيين المحليين ، وكان هؤلاء يعتمدون بالكامل على الخامات المحلية مثل : الأحجار والأسمنت والجبس والطمى لعمل الطوب والطمى وتبن القمح لصناعة الجص ، وجذوع النخيل المشقوقة وسعف النخيل المجدول والطمى لعمل الأسقف ، والرواسب المعدنية الملونة للزينة •

وكان كل جزء من أجزاء النخيل يستخدم أيضا : فالتمر يستخدم باعتباره غذاء وباعتباره المحصول النقدى الأساسى ، أما النوى فكان يغلى للماشية ، وكانت جذوع النخيل تستخدم كأخشاب ،

وألياف النخيل لصناعة الحبال ، وسعف النخيل لصنع الحصر والسلال ، والسياق المزهرة كفرش ، وسيقان السعف كوقود ، أما الحيوانات (الجمال والماشية والماعز والأغنام) ، فكانت تتغذى على النتاج المحلى ، كما كانت توفر النقل والجر واللحوم والألياف والجلود والأصواف والروث ، التى كانت تستخدم كلها بالكامل .

وثروة المهارات المطلوبة لإنجاز العمل السابق ؛ كان يواكبها بصورة طبيعية إدراك دقيق لحدود البيئة التى يعيش فيها الناس . فمجتمع قرية العراقى كان يعيش فى انسجام مع بيئته الطبيعية . وكان أعضاء المجتمع أيضا يعيشون فى حالة من الاعتماد المتبادل مع جيرانهم المباشرين . وكان هناك العديد من المقايضات التى تتم بين القرية وبين البدو الذين يرعون الجمال وغيرها من الدواب فى السهول المجاورة . فكان البدو يحتاجون التمر والقمح ، ويحصلون عليهما فى مقابل السلع الفائضة لديهم : مثل الحيوانات للذبح والروث للأرض ، والملح .

أما السلع الأخرى فى القرية . فكانت تباع فى السوق الأقليمية فى إبرا (٤) ، أو تنقل بالجمال لمسافات أبعد . وكانوا يشترون بالنقود تلك السلع التى يحتاجونها وان كانت لا تنتج محليا ، مثل الأرز والبن والسمك المجفف والأنسجة القطنية والمسلى وقليل من الحاجيات المنزلية البسيطة (٥) .

وكانت القرية تدير خدماتها الاجتماعية الخاصة . فالمسنون والمعوقون كانوا فى أغلبهم يلقون الرعاية من عائلاتهم . كما كان إنتاج بعض النخيل وغيره من المحاصيل يباع لتمويل المساعدات الخيرية لبعض الفقراء ، وأيضا لمساعدة معلم القرآن الذى كان مسئولا عن تعليم الأطفال .

وهكذا كانت قرية العراقى نموذجا جيدا للمجتمع الريفى التقليدى المتطور ، فأهلها متكافلون ومستقلون ويستخدمون بشكل كامل وفعال

الموارد المحلية المتاحة (داخل حدود مستواهم التكنولوجى) ، ويعيشون بصـــورة منسجمة مع بيئتهم • ويتحكمون بصـــورة فعالة فى التوازن القائم بين أخـــذ متطلبات اليوم وتوفير حاجات الغد •

الحاجـــة الراهنة للتنمية الريفية :

لقد ذكرنا أن تأثير الثروة البترولية الجديدة فى المنطقة كان عميقاً • فقد تأثرت عمان الريفية فى المقام الأول باعتبارها مصـــدرا لقوة العمـــل الوفيرة والرخيصة نسبيا [٦] • ومع أوائل السبعينات ، كان تأثير الازدهار البترولى على عمان الريفية قد أصبح واضحا ، حتى لأى مراقب عابر • وكانت الحكومة العمانية الجديدة • فى ظل حكم السلطان قابوس ، تزيد مساعدة عمان الريفية ، ولذلك فقد دعت منظمات عديدة إلى البلاد لتقييم قاعدة الموارد الريفية ، وإعداد توصيات « لإعـــادة التنمية » فى المناطق الريفية للوصـــول لمستوى إنتاجى أعلى مما كان عليه الأمر من قبل •

وإلى جانب الحكومة ، كانت شركة « **تنمية البترول (عمان) ليمتد** » تدرك تماما هى الأخرى حاجات عمان الريفية، فباعتبارها من كبار مستخدمى قوة العمل الريفية ، ولوجـــود ممثلين لها فى القرى مثل عبرى وازكى ، كانت الشركة متحمســـة لأن تقدم للحكومة المساعدة التى تستطيعها من أجل زيادة فهم الوضع الاقتصادى والاجتماعى المتغير فى عمان الريفية • ولهذا الغرض ، وافقت الشركة على تقديم مساعدات مالية ومادية لفريق من الباحثين من جامعة « دورهام » للقيام بدارسة متعمقة للموارد فى منطقة نمطية فى شمال عمـــان • وكان مطلوبا من الفريق أيضا أن يقدم توصيات عن السبل التى يمكن عن طريقها الاستفادة بصـــورة أكبر من الموارد المحلية لتشجيع تحقيق مزيـــد من الاعتماد على النفس ومزيـــد من الاستقلال الاقتصادى ، من خـــلال مزيد من الانتاجية • وتناولت الدراســـة قطاعاً عرضيا فى شمال عمان • يمتد من الخابورة على ساحل الباطنة ، عبر ممر جبلى عند قمـــة وادى الحواسنية إلى عبرى والظاهرة •

وقد كشفت عمليات المسح التى قامت بها جامعة دورهام ، مدى تأثر المجتمعات الريفية التقليدية من جراء البترول • فبوجه خاص ، كانت نسبة عالية من مجموع الرجال فى سن الشباب يعملون خارج قراهم ، وغالبا ما يعملون خارج عمان فى دول الخليج الأخرى • ونادرا ما كانوا يستخدمون مهاراتهم الحرفية الموروثة ، وبالتالى فإن المنتجين الريفيين ذوى المهارة والخبرة كانوا يتحولون إلى قوة عمل بلا مهارات إلى حد كبير • فأية مهارات جديدة كانوا يكتسبونها ، فى الجيش أو البوليس أو فى صناعة البترول كانت فى أغلبها لاعلاقة لها بزيادة الطاقة الإنتاجية لقراهم • كما أن غيابهم عن موطنهم كان يحد بصورة فعالة من الإمكانات الإنتاجية للقرى • وأخذت المرتبات التى يتم الحصول عليها من أماكن أخرى تشكل نسبة عالية ومتزايدة من ثروة القرية • وكان أولئك الذين يكسبون هذه المرتبات ينفقون نسبة متزايدة منها فى شراء السلع المصنعة فيما وراء البحار • وكانت هذه السلع من ناحية تتضمن أشياء مثل المضخات وأجهزة رفع المياه (٥) ، وهو ما يظهر رغبة فى الاستثمار فى مستقبل الزراعة • ولكنها كانت تتضمن من ناحية أخرى قائمة من المشتريات الجديدة مثل : الصنادل المصنوعة من البلاستيك ، والسجاجيد الصوفية ، والأسمنت لعمل الكتل الصلبة ، وكتل ورقائق الأخشاب ، والفرش ، والدلاء والحبال ، وأوانى المياه ، وجرار التخزين ، وبعض الأدوات الزراعية الصغيرة — وكلها أخذت تحل محل السلع التى كانت تصنع محليا • وأدى ذلك إلى تبديد الخامات المحلية ، وتقويض وضع الحرفيين المهرة ، وإنهاء التكافل بين أعضاء المجتمع ، وجعل المجتمع ككل يعتمد بصورة غير ضرورية على العالم الخارجى • وكاد ذلك يسحق الصناعات الحرفية الصغيرة فى عمان ، وهى الصناعات التى كانت متوطنة من قبل • كما قلل ذلك من الفرص المتاحة أمام المسنين والمعوقين لكى يكونوا أعضاء نشطين ومكتفين ذاتيا فى المجتمع ، مثلما كان يحدث فى حالة صناعة الحبال والحصر •

وباختصـــار فقد كشفت عمليات المسح التى قامت بها جامعة دورهام عن إن المجتمعات الريفية الأصلية كانت فى حالـــة من الفوضى • فقـــد ذهب ذلك الإحســـاس بالاعتماد المتبادل على المهارات المتكاملة للأفراد بعضهم البعض • وفى هذا العصر الذى يبدو فيه أن ثروة البترول يمكن أن توفر كل شىء ؛ فقد ذهب أيضـــا ذلك الإحساس بالالتزام تجاه المستقبل • وبالتالى فقد ذهب أيضـــا مفهوم العيش فى انسجام مع البيئة ، وذهب الاستقلال والاستخدام المـــاهر للموارد المحلية الذى كان يرتبط بهـــذا المفهوم • وبنـــاء على ذلك فقـــد كانت هناك حاجـــة لتنمية المجتمع الريفى فى عمـــان ، وهى الحاجـــة التى عقدت حكومة عمان العزم على معالجتها •

إقامة مشروع الخابورة للتنمية وأهدافه :

وكجزء فى استراتيجيتها ، طلبت الحكومة من جامعة دورهام القيام بمشروع رائد للتنمية الريفية ، يقـــام فى قرية الخابورة مستفيدا مـــن المعلومات التى جمعها فريق الباحثين عن الشبكات الاقتصادية والاجتماعية المحلية ، وقد ظلت « **شركة تنمية بترول عمان** » تلعب دورا مباشراً قيماً فى المشروع : بفتح منشـــآت رأس الحمراء للقائمين بالمشروع ، وبتقـــديم المركبات والتسهيلات الطبية ، وبتقديم طائفة واسعة من الخبرات المهنية والخدمات المعملية للمشروع ، وأخيرا قدمت شركة « **شـــل للأســـواق** » « Shell Markets » مساعدتها البالغة بتزويد المشروع بوقود المركبات مجانـــا •

وفى بداية مشروع التنمية ، كان العمل فى الخابورة يتصل بصـــلات وثيقة بإدارة الزراعة • وازدادت قـــوة هذه الصلات عام ١٩٧٧ ، عندما أقيم مشروعان مشتركان ، بين مجموعـــة جامعة دورهام فى الخابورة وبين إدارة الزراعة لإحياء حرفة الغزل والنسيج التى كانت تحتضر ، ولتحديث وتوسيع حرفة تربية النحل ثم بدأت مناقشات بين المشروع والوزارة ، يهدف إلى جعل العمل فى الخابورة يدخل بالكامل ضمن استراتيجيات الوزارة للخطة الخمسية (١٩٨١ / ١٩٨٥) •

وكانت الاستراتيجية المحورية للمشروع تتمثل فى إقامة خطط متصلة تشجع على استخدام السكان المحليين للموارد المحلية بالكامل • ويتضمن ذلك تنمية المهارات المتصلة بهذه الخطط • ونمـو الإحسـاس بالتكافل بين هـؤلاء السكان • وكان يؤمل أن يؤدى ذلك بدوره إلى الإدراك المتزايد بأن مجتمع القرية القوى اقتصاديا واجتماعيا ، إنمـا هو ذو أهمية أساسية بالنسبة لمستقبل عمان • وللوصـول إلى هذه النقطة كان يتعين على القرية أن تصنع نسبة متزايدة من الأشياء التى تحتاجها • وبالإضافة إلى ذلك يتعين عليها أن توفر الأموال ، عن طريق بيع انتاجها خـارج القرية لشراء السلع التى لم تصنع محليا • وحيثما كان ذلك ممكنا ، كان على المزارعين أن يتمكنوا من الاعتماد على وحدات التصنيع بالقرية « أو الوحدات المحلية على الأقل » فى توفير معداتهم • ومن ناحية أخرى كان لابد من تشجيع الحرفيين على تصنيع وتجهيز منتجات المزارع •

وكان محتماً أن تكون الزراعة هى جـوهر الأنشطة الاقتصـادية للمشروع ، ولكن كانت الهجرة للخارج تشكل إحـدى المشكلات الرئيسية ، كما ذكرنا آنفا • ومن المشكلات الأخرى التى زاد من تفاقمها الهجـرة للخارج ومشكلة تقلص السـوق بالنسبة للمحصـول الزراعى الرئيسى وهـو التمر [٨]، ففى داخل عمان كان الناس يبحثون عن طائفة أوسـع من المواد المغذائية ، وبالتالى فقد انخفض الطلب على التمر وخاصة النوعيات القليلة القيمة التى تزرع فى منطقة الباطنة • بل لقد أصبح فى مقدور المرء أن يجد فى الأسـواق المحلية تمرا مستورداً من البصرة • وفى نفس الوقت بدأ سـوق التصدير للتمر المجفف فى الانخفاض من أوائل الخمسينات ، وهو الانخفاض الذى استمر فى الستينات والسبعينات ، وكان انكماش سـوق التمر خطيراً فى شمال عمـان ، حيث كان انتاج التمر يشكل قاعدة النظام الزراعى الرئيسى الوحيد • ولسـوء الحظ كان الانخفاض السريع فى قيمة التمر مع الزيادة المفاجئة فى فرص العمل خارج القطاع الزراعى ، يعنى أنه لا يوجد هناك لا الوقت ولا الحافز الواضح ولا القاعدة الضرورية

من المعرفة والخبرة لتطوير أنظمة زراعية حديثة تتلائم مع الظروف الجديدة •

وبالإضافة إلى مشكلة التمر فإن الليمون (وهو محصول نقدى ثانوى) قد عانى هو الآخر خلال السبعينات من مشكلة الآفات المتزايدة مثل ذبابة الموالح السوداء والحشرات الجليدية وهى المشكلة التى بلغت ذروتها فى موسم ١٩٧٦ / ١٩٧٧ ، حيث أهلكت معظم المحصول • كما أن القمح وهو محصول ثانوى هام فى بعض القرى فى داخل عمان ، قد أصبحت زراعته غير اقتصادية ، فى مواجهة تكاليف العمالة الآخذة فى الارتفاع ، ووجود القمح الاسترالى الرخيص •

ولذلك كانت الحاجة الأولى فى الزراعة تتمثل فى ابتكار واختبار أنظمة زراعية حديثة لإكمال النظام القائم على زراعة التمر أو الحلول محله ولذلك كان يبدو من المناسب لمشروع الخابورة أن يوجه اهتمامه إلى هذه الحاجة • فى الوقت الذى يظل منتبها فيه لأولوياته الاستراتيجية الأخرى التى ذكرناها من قبل •

نظام المزرعة الصغيرة للماشية :

لم تكن موارد المشروع تسمح إلا بنظام واحد للمزرعة الصغيرة وبالتالى يكون هذا النظام على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لحاجات عدد كبير من الناس • فإذا ما نجح مثل هذا النظام ، فقد يشجع على وجود اتجاه « زراعى » حقيقى بين المزارعين المحليين ، ومعظمهم من الذين يعملون لبعض الوقت فقط • ويعتمدون على أقاربهم الذين يعملون خارج القرية فى الحصول على نسبة عالية من دخل الأسرة • كما أن النجاح من شأنه أيضا أن يشجع على تطوير أنظمة زراعية أخرى •

وكان هذا النظام الذى تم التركيز عليه يقوم على تربية سلالات

الأغنام والماشية • وجاء هذا القرار بناء على الاعتبارات التالية :

أولا : أن تحسين تربية الأغنام والماشية يمكن أن يترك تأثيرا على كل أفراد القرية • فمعظم الأسر تمتلك أغناما وماشية ، اثنين أو ثلاثة فى داخل القرية • وأكثر من ذلك فى الحدائق ، وأعداداً تصل إلى خمسين أو أكثر لدى الرعاة فى السهـــول المحيطة بالقرية • ويتعين على كل الأسر ، وفقا للتقاليد ، أن تذبح رأســـا من المـــاشية أو الأغنام فى كل من عيد الفطر وعيد الأضحى •

ثانيا : إن ما يحدث بصـــورة تقليدية من إطلاق الحيوانات فى أنحاء القرية إنما هو أسلوب غير مرضى من وجوه عديدة إذ يكون من المستحيل على البيطريين أو الاخصائيين الآخرين فى تربية الحيوان الوصول إليها ، فهى تحمل القاذورات والذباب والأمراض التى ينقلها الذباب الى البيت • وهى تتغذى على الفضلات المنزلية ، ورغم أن ذلك يقلل من كمية الفضلات إلا أنه يؤدى أيضا إلى أن تأكل الحيوانات غذاء غير مناسب ، بل ومتعفن فى بعض الأحيان ، مما يسبب الأمراض المعوية المنتشرة فى المنطقة •

ثالثا : إن الأشكال التقليدية فى رعى المـــاشية والأغنـــام ، وهى الأشكال الشائعة فى سهول وجبال عمـــان ، تثير المشكلات هى الأخرى • فرغم رخصها الذى تتميز به ؛ إلا أنها تعانى من عيب أساسى : ففى المناخ الجاف المتقلب السائد فى عمان ، يعتمد الرعى بصـــورة كاملة على سقوط المطر لكى تكون الحيوانات فى حالة طيبة • ففى المواسم الجافة ، يمكن أن تضعف الماشية والأغنام من جراء نقص الغذاء حتى أنه لا يكون لديهـــا مناعة ضـــد الأمراض أو الأوبئة المنتشرة ولا تنتج لبناً ، ولا تستطيع الحمل أو الاستمرار فى الاحتفاظ بالجنين طوال مدة الحمل الكاملة ، كما أنهـــا تعرض النباتات المتناثرة للأخطار ولا يبقى فيها ســـوى هيكل من العظم لا يحمل فوقه ســـوى القليل من اللحم •

وأخيراً فإن المزرعة المقترحة للحيوانات توفر إمكانية لفحص جزء من هذا النظام ، الذى يمكن أن تمتد آثاره وقيمته إلى ما وراء المتطلبات الضيقة لتربيـــة المـــاشية والأغنام ، فكل شىء يمكن فحصـــه وتمحيصه ، من أساليب الرى والزرع وتنسيق الحقول إلى أساليب إدارة العلف الحيوانى والحصاد ، ومن أساليب التغذية وإدارة الحيوانات الى أساليب استخدام كل منتجاتها ، التى لاتشمل اللحوم والألبان فقط وإنما أيضـــا الجلـــود والأصواف والشعر والروث • وبالتالى فقد كان هذا المشروع يمثل فرصة لإشراك الحرفيين الذين يصنعـــون المعـــدات التى يحتاجها المزارعون ، والحرفيين الذين يستغلون المنتجات الحيوانية الثانوية لعمـــل منتجات تستخدم فى القرية أو تباع خارجها •

وكان مطلوبا أن ينشأ النظام الزراعى الجديد من داخل الأشكال التقليدية ، حيثما كان ذلك ممكنا • فكما قال شـــوماخر « Schumacher » ان التغيير المقترح يجب أن تربطه علاقة عضوية بما يقـــوم به النـــاس بالفعل • وكل المزارع فى عمـــان الريفية هى مزارع صغـــيرة — يتراوح متوسطها بين هكتار واحد وهكتارين — يعمل المالك فيها بنفسه ، مع عائلته أو مع عدد محدود جداً من العمال المأجورين [١٠] • ولذلك • فقد حصـــل المشروع على قطعة من الأرض مساحتها هكتاران ذات نوعية متوسطة من حيث موارد المياه والتربة ، وهى قطعة من الأرض تقع وســـط مساحـــة مزروعة ، وإن كانت متميزة لأنها تقع على الطريق الرئيسى المؤدى إلى قرية الخابورة •

ولكن على الرغم من أن النظام الزراعى الجديد يتعين من ناحيـــة ، أن يكون له علاقة واضحة بأشكال الممارسات التقليدية ، فانه يتعين أن يستخدم بصورة فعالة الإمكانات الإنتاجية للأرض • ولكن بسبب انخفاض مستويات التعليم والعمل فى عمان الريفية ، كان يتعين أن تكون أساليب الإدارة غير معقدة نسبياً • مع تقليل طاقة العمل إلى أدنى حـــد لها •

وباختصار كان يتعين أن يكون النظام أكثر فى انتاجيته وعائده المالى بصورة واضحة ، ولكن دون زيادة رأس المـال وقوة العمل • إذ يجب أن يعمل دون مستوى المهارة أو حجم العمل المرتبطين بالتعقيدات الهامشية للنظام الأساسى ، ولكن إذا أمكن التغلب على عملية خاصـة بزيادة قوة العمل عن طريق استخدام آلة مناسبة ، فسيكون من الواجب استخدامها عندئذ •

ونورد فيما يلى ملخصاً للتقدم الذى تم إحرازه فى بحث ودراسة بعض أجزاء النظام ، وذلك لتوضيح كيفية تعديل أشكال الممارسات التقليدية لتتناسب مع استراتيجيات المشروع ، ومع القيود العملية المذكورة آنفا :

أولا : الـــرى :

تستخدم المزرعة الأسلوب التقليدى فى توزيع مياه الرى ــ من البئر إلى أحواض الرى بمـد قنوات المياه • ولكن مع توسيع الأحواض ، تم تقليل عدد القنوات المطلوبة ، بما يوفر الوقت والجهة والمساحة • وكانت القنوات فى معظمها قنوات طينية ، ولكن المشروع قام بتبطين القنوات بمادة البوليثين Polythene السـوداء لمنع تسرب المياه ونمو الأعشاب الضارة وتآكل جدران القنوات ــ وبالتالى يتم دفـع المياه إلى الأحواض إلا أن مادة البوليثين كانت تتعرض للثقوب بسهولة ، وحتى الألـواح التى تقاوم الأشعة فوق البنفسجية كانت تتعفن بصـورة سريعة جـدا من أشعـة الشمس الحارقة • كمـا كانت القنوات الطينية تشغل مساحـة كبيرة جـدا أيضـا • ولذلك فقد تم اعداد مقاييس للتصميم الهندسى تعتمد على الخبرة المستقاة من قرية الخابورة ، وتم ابتكار واختبار نوع جديد مـن القنوات فى انجلترا • بواسطة **مجموعة تطـوير التكنولوجيا الوسيطـة** وكانت مقاييس التصميم الهندسى تتضمن :

الرخص ، واستخدام المواد المحلية ، وامكانية الصنع والاصـلاح محليا فى ورش صغيرة يتراوح عـدد العاملين فيها بين شخصين وثلاثـة

أشخاص والقدرة على الحركة ، والوفر فى المساحة • ومنذ إبريل من عام ١٩٨٠ ، أجريت تجارب للتصنيع على هذه القنوات المصنوعة من الرمل والأسمنت المقوى بألياف النخيل ، وتم صنع عدد كبير منها بنجاح • واذا ما تحملت هذه القنوات العمل لفترة طويلة ، فان ذلك لن يوفر فحسب قنوات تتصف بالكفاءة ومصنوعة من الخامات المحلية ، وإنما سيؤدى أيضا إلى تطوير المهارات ، وخلق العديد من فرص العمل ، وقبل كل شىء ، سيخلق رابطة من الاحترام والاعتماد المتبادل بين الصانع والمزارع ، وهو العنصر الجوهرى فى تنمية المجتمع الريفى الحقيقى •

ثانيا : الزراعة :

تتميز أحواض الرى المحلية النمطية بصغر الحجم ، إذ لاتزيد مساحتها عن ٤ متر × ٥ متر • ويستخدم المشروع نفس النظام • ولكن بأحواض للرى مساحتها ١٠ متر × ٢٠ متر • وهذا التعديل البسيط فى النظام التقليدى أدى الى المزايا التالية ، الناشئة عن حقيقة أن الأحواض الأكبر تعنى حواف أقل مع تقليل الوقت المبذول فى بناء حواف الأحواض وتقليل المساحة التى كانت تضيع فى بناء الحواف (والطريقة التقليدية كانت يمكن أن تفقد مساحة تصل الى ثلث الحقل فى بناء الحواف) وتقليل عدد جوانب المحصول التى يمكن أن تنتشر عليها الأعشاب الضارية وتقليل فرص تراكم الأملاح على السطح مما يحرق النباتات على جوانب المحصول بعد سقوط الأمطار وتقليل الوقت المبذول فى اصلاح الحواف • وبالإضافة الى ذلك ، تتميز الأحواض الكبيرة بميزات أخرى : فهى تسمح للماكينات بالعمل داخل الحوض دون تعريض حوافه أو قنواته للخطر ، كما تسمح بحصاد المحصول بالماكينات ، كما تسمح للقائم بالرى بترك الحوض يمتلىء بالمياه بينما ينصرف هو لأعمال أخرى • وربما تكون الميزة الرئيسية للأحواض الكبيرة هى أنه من الممكن إعادة زرعها دون هدم حوافها وقنواتها مما يجعل هناك حافزا أكبر على إعادة زرع المحاصيل واحدة من أفضل الطرق لزيادة متوسط انتاج المحاصيل الدائمة والمعمرة

فى عمان (مثل ــ « الفصفصة » Alfasfas) ، التى تتمثل فى إعادة غرس السيقان القديمــة قبل أن تصبح ضعيفة وغير منتجــة •

وفى عملية الزرع يمكن للآلة المناسبة أن تترك تأثيرا رئيسيا عــلى استخدام الأرض ، وعلى الانتاج الشامل • وبالطريقة التقليدية كانت كل عمليات الزرع تتم يدويا ، وكانت بالتالى بطيئة للغاية • واليوم ، لا يزرع الناس بالطريقة اليدوية ، الا أن الجرارات ذات العجلات الأربــع التى تقدمها الحكومة ليست مناسبة هى الأخرى للزراعة فى أحواض الرى ــ فالجرار كبير الحجم جــدا حتى أنه يهدم الحــواف والقنوات أثنــاء عمله • وقد تمكن المشروع من التغلب بنجاح على هذه المشكلة ، باستخدام آلــة الروتافيتور (Howard Gen Rotarator) • وهذه الآلة تعمل بسهولة داخل الحوض الذى تبلغ مساحته ١٠ متر × • ٢متراً وتتعامل بصورة طيبة مع الأرض الأسمنتية ، وتحــدث شقا جيــدا فى الأرض بعد مروره لمرة واحدة • وفى المساحة المحدودة فى معظم المزارع العمانية الصغيرة فإنها تكاد تعمل بنفس السرعة التى يعمل بها الجرار ذو العجلات الأربع ، وتترك الأرض فى حالة أسهل بكثير لإكمال عملية الزراعة بها • إن استخدام هذه الآلة يشجع المزارعين على استخدام أحواض الرى الأكبر •

ثالثا : المحاصيل :

أدخل المشروع حشــائش رودس Rhodes كمحصول علف اضافى الى جانب ــ الفصفصة Alfasfas • وتتميز هذه الحشائش بكونها كثيفة جــدا فى نموها (بما لايجعل هناك مشكلة فى الأعشاب الضارة) ، ولكونها معمرة (فلا تحتاج إلى إعادة بذرها كل سنة) ، ولأنها تنتشر بالتوالــد الخضرى (تنتشر فى البقع الجرداء الناشئة عن الملوحــة الأولية ، بعــد أن ترشح الأملاح ــ وان كانت لا تتحول إلى أعشــاب ضارة مثل حشائش (الريزوماتروس) ، كما أنها تتحمل الجفاف والأملاح ، ويمكن حصادها على مدار العام ، وإن كانت تبلغ أقصاها فى الصيف ، وبسهولة تجفيفها

لصنع التبن لمواجهة الانخفاض الذى يحـدث فى الشتاء ، وبصلاحيتها لرعى المـاشية والأغنام فهى لاتحتاج الى قطع بل تتغذى عليها الحيوانات حسب الطلب وهى فى الأرض ، بحيث يعـود الروث والبول إلى الحقل) فإن حشـائش رودس توفر ماهـو مطلوب من حيث أنها منتجة جـداً وتوفر كافة العمل • كما أنها سهلة نسبيا فى زراعتها ، ولكونها معمرة وصالحة للرعى ، فإنها لاتتطلب سـوى الحـد الأدنى من الآلات فى زراعتها • والصعوبة الوحيدة فى زراعتها ، بالنسبة لنبات الفصفصة Alfasfa ، تكمن فى أنها تحتاج أسمـدة أزوتية •

رابعا : المـاشية والدواب :

أجرى المشروع تجارب لتهجين المـاشية المحلية بماشية مستوردة من النوع الأنجلو نوبى Anglo Nubian • وقد اختير هذا النوع الأخير بسبب قدرته على التحمل وصفاته الصالحـة للأغراض العامة • وكان يؤمل أن يؤدى ذلك إلى تحسين معدلات النمـو ، وتحسين خصـوبة ونوعية المـاشية المحلية ، وأن تجتذب هذه السلالة المستوردة العمانيين • وأخـذ العمانيون ينظرون إلى هذه السلالة على أنها ناجحة فى مزرعة المشروع • ونتيجة لذلك • أحضروا ١٢٥ من أناث المـاشية المحلية إلى المشروع فى أبريل ١٩٨٠ لتهجينها بواسطة ذكور المـاشية المستوردة ، وبعد ذلك زاد الاهتمام بها بصـورة أسرع • والنتائج الأولية لهذا العمل توضح أن ملاك هـذه المـاشية يقومون بنجاح بتربية نتاج عملية التهجين ، وذلك بدوره يبشر بإمكانية إيجـاد المزارعين العمانيين والمهتمين بما يكفى لأن يصبحوا من مربى المـاشية ، وينافسـوا ما تقوم به مزرعة المشروع من عمل • فامتلاك هؤلاء المزارعين لمـاشية مهجنة يجعلهم يشاركون بصـورة نشطة فى كافة وجوه العمل فى المشروع • كما أن ذلك يوفر أيضا فرصـة ممتازة للعاملين فى المشروع للقيام بزيارات للمزارع ، وإدخال أفكار جديدة لتحسين مستوى تربيـة الحيوان • وفى هـذا الصدد فإن تجربة الخابورة

قد أظهرت أن هناك عددا من المشكلات الرئيسية فى تربية الحيوان يمكن للمزارعين التصدى لها بأنفسهم ، إذا ما توافرت لهم المعـدات الصحية والبسيطة والدائمة [١٢] ، وإذا ما تعلموا القيام بهذا العمل ، فسيعطيهم ذلك اعتزازا متزايداً إلى درجة كبيرة بماشيتهم ودوابهم ، كمـا سيحول دون أن تصبح المشكلات البسيطة الكثيرة حالات تستوجب العـلاج البيطرى الذى يتطلب مزيدا من التكاليف والمهارة الطبية •

خامساً : استخدام الصـوف :

أما تربية الأغنام ، فقد أتاحت للمشروع استخدام الصوف كمادة خام لتنشيط حرفة الغزل والنسيج المحلية • وكان النسيج من الحرف التى تمارس فى الخابورة ، إلا أنها اضمحلت بتأثير ازدهار البترول • وفى منتصف السبعينات ، كان معظم الصـوف يلقى جانباً ، بل إن كثيرا من الأغنام لم يكن يجز صوفها مطلقاً •

وبالاشتراك مع وزارة الزراعة فى عمان ، وضع مشروع « دورهام » خطة للغزل والنسيج • واشترك فى هذه الخطة حتى الآن عشرات من النساء اللائى بدأن مرة أخرى عملية غزل الصـوف • وبالإضافة إلى ذلك يقـوم الآن عدد أصغر من النسـاء بنسج خليط من الأنسجة التقليدية والحديثة • وهذه المنسوجات تباع بنجاح فى مسقط ، بل وقد تم تصـدير بعض خيوط الغزل إلى انجلترا واستراليا [١٣] • وهكذا فقد أدى هذا العمل إلى إحياء وتوسيع المهارات التقليدية ، وإلى الاستخدام الفعال للخامات المحلية ، وإلى المساعدة فى إقامة الصلات بين المزارعين والرعاة الذين ينتجـون الخامات وبين الحرفيين ، وهو مثال آخر على الاعتماد المتبادل بين المهارات المكملة لبعضها البعض • وإذا ما استمر هذا العمل فى الاتساع فإنه سيضم أيضـا حرفيين محليين آخرين ، ممن يصنعون إطارات المنسوجات والمغازل، والبكرات ، بل وحتى الأنوال التى يستخدمها النساجون •

وإذا ما أمكن صنع هذه المعدات محليا ، فسيكون من الممكن صيانتها وإصلاحها محليا ، بما يوفر التكاليف المرتفعة والتأخير ، والاعتماد الذى لا ضرورة له على الموردين الأجانب ، وهى النواقص التى ترتبط حتماً بعملية الاستيراد .

المشروعات المرتبطة :

وإلى جانب المزرعة كانت للمشروع أيضا نقاط انطلاق أخرى ترتبط بنفس القدر بالاستراتيجية الرئيسية للتكافل والاستقلال الريفى . وقد ذكرنا آنفاً اثنتين من هذه النقاط : مشروع قنوات المياه (وحدة تصنيع على نطاق صغير فى قرية) ، ومشروع الغزل والنسيج (حرفة زراعية مستقلة فى القرية) . وهناك اثنتان أخريان : مشروع إنتاج عسل النحل ، ومشروع الطاقة المتجددة وهما يرتبطان بصورة غير مباشرة بأنشطة المزرعة . إلا أن الهدف من كليهما كان يتمثل فى مزيد من الاستخدام الفعال للموارد المحلية ، وفى خلق العمالة المحلية الماهرة . وعلى المدى البعيد سيؤدى العمل إلى ترابط كل هذه المشروعات مع بعضها البعض ، بالصورة الواردة فيما يلى :

إن منتجى عسل النحل التقليديين لا يوجدون إلا فى منطقة محدودة جداً فى شمال عمان [١٤] . وهم يستخدمون جذوع النخيل المفرغة كخلايا للنحل ، مما يجعل من المستحيل التحكم فى النحل ، ثم يستخلصون العسل من الأقراص بعصرها . ويلقون بالشمع جانباً بعد ذلك . وتم البدء فى مشروع عسل النحل بمفهوم الأساليب الحديثة (وهى أساليب وسيطة فى مستواها على أية حال ، لاعتمادها على خلايا ذات أحجام صغيرة) ستسمح بدرجة أكبر من التحكم فى النحل . كما ستسمح بإعادة استخدام الأقراص ، مما يزيد بالتالى من إنتاج العسل . وهذه الخلايا يمكن إدخالها أيضا إلى الأجزاء الأخرى من عمان حيث توجد نباتات مماثلة ، أو إلى إقليم ظفار [١٥] . مما يزيد إلى حد كبير من اجمالى انتاج عسل

النحل • إلا أن مناطق الزهور فى أى مكان من عمان لا تكفى لأن يتصور المرء وجود مزارعين يكرسون كل وقتهم لتربية النحل ، وإن كان من السهل أن نتخيل أن يحتفظ أحد مربى الماشية ، على سبيل المثال ، بعدد من خلايا النحل • إذ أن ذلك سيوفر العسل لأسرته بما يكمل دخله ، كما سيقوم النحل بتلقيح محاصيله ، كما سيتمتع باحترام جيرانه باعتباره رجلاً ماهراً • وبالتالى فإن ذلك سيساعد فى الحفاظ على استقلاله داخل مجتمع القرية ، وسيثنيه عن النزوح إلى العاصمة •

ومشروع عسل النحل يوضح أيضا بصورة رائدة مفهوم عمل آخر من المفاهيم التى ينطوى عليها المشروع • ألا وهى أن الأبحاث والتنمية يجريان بصورة متوازية ، بحيث يستفيد كل منهما من الآخر • ولما لم يكن هناك سوى القليل من المعرفة العلمية عن النحل العمانى وبيئته ، فقد استخدم المشروع أحد الباحثين البيولوجيين ، الذى كانت أحد مهامه الرئيسية * هى إعداد دراسة بيئية (ايكولوجية) عن نحل العسل فى عمان [١٦] ، والمعلومات التى كشفت عنها هذه الدراسة عن توزيع وتركيز وقيمة زراعات العلف ، وعن الآفات الزراعية ، والأوبئة ، ومنافس نحل العسل ، وعن عمل النحل فى مناخ عمان •• الخ ، إنما هى معلومات ذات قيمة عملية فائقة •

أما برنامج الطاقة المتجددة ، فكان الجزء المحورى منه يتمثل فى استخدام الطواحين الهوائية فى ضخ المياه • ويتوقف هذا المفهوم على أمل أن يصبح من الممكن تصنيع الطاحونة (التى صممتها مجموعة O. T. D. G.) محلياً •

---

* المهام الرئيسية الأخرى كانت تتركز حول اعداد أبحاث حول بيولوجية وادارة نحل العسل الصغير المعروف باسم Apis Florea •

والتصميم المطروح لا يتضمن قوالب مصبوبة أو تروس ، وإنما عمليات قطع ولحام وصقل فقط — مع استيراد بعض الأجزاء الخاصة (وأهمها الدعامات المعدنية) من الخارج • وصنعت الطاحونة الأولية بمعرفة مؤسسة P. D. O. « مؤسسة التنمية النفطية » وفى مايو ١٩٨٠ ، بدأت الاختبارات بالقرب من ورشة الشركة لضخ الماء من أحد التجاويف الضحلة •

ومثل هذه الآلة يمكن أن تشكل قاعدة لمشروع تصنيع إقليمى — وليس مجرد مشروع يقتصر على قرية واحدة — حيث يمكن استخدام وتطوير المهارات الحرفية ، فحيث يمكن صنع طاحونة ، يمكن أيضا إنتاج المعدات الأخرى التى بنفس الدرجة من التعقيد • وستتمثل الفائدة الرئيسية التى ستعود على المجتمع فى صناعة جديدة توفر العمالة الماهرة ، وتتجاوب مع متطلبات الإقليم المتناسبة والمتغيرة • وستكون تكلفة الطاحونة أكثر من تكلفة المضخة التقليدية التى تعمل بمحرك الديزل ، ولكنها لن تحتاج الا لصيانة أقل بكثير من المضخة ، كما لن تكون بحاجة لاستخدام الوقود البالغ التكلفة • وسيكون استخدام هذه الطاحونة مثالياً فى المواقع النائية حيث يكون نظام الرياح مناسباً •

وفى موقعها الدائم بالقرب من الخابورة ، ستوفر هذه المضخة الهوائية الأولى المياه المحلية لمجموعة معينة من المنازل فى السهل الساحلى • ولماشيتهم أيضا • بعد أن يختبر بالكامل المعدل المتوسط للضخ اليومى ، وبعد أن تتضح كفايته ، سيكون ممكنا للمشروع أن يوصى باستخدامها لمتطلبات الزراعة الأكثر اتساعا • وفى تلك المرحلة يمكن للمرء أن يتصور استخدامها إلى جانب قنوات الرى الجديدة فى رى الفصفصة Alfalfa وحشائش رودس ، وغيرها من المحاصيل الأخرى • وفى تلك المرحلة أيضا لن يكون على المزارع إلا أن يبحث لدى الموردين المحليين عن معظم المعدات التى يحتاجها •

وفى نفس الوقت ، يجرى اختبار استخدام أشعة الشمس لإدارة معمل تقطير شمس لإنتاج ماء مقطر من المـاء المالح • وأخيرا ، يؤمـل فى تسخين بعض المياه التى تضخها الطاحونة الهوائية ، بتمريرها خـلال « أنبوب شمسى » مصمم خصيصاً لهذا الغرض ، وتخزينها فى مستودعات مغلقة ، فإذا ما أمكن تسخين المياه المحلية دون استخدام الكهرباء ، فإن حياة القرية ستصبح أكثر سهولة ، دون أن يزداد اعتمادها على الموردين الخارجيين •

أعمـال التوسـع :

كان نجاح كل جوانب المشروع يعتمد محلياً على النجاح فى إشراك الناس فى تطوير مهاراتهم المتكافلة • فالأفكار يجب أن تثبت قيمتها ، ثم يتبناها عندئذ عدد متزايد من المزارعين والحرفيين •

وفى كل مشروع مركز للتجارب ولإظهار محاسن المشروع ، بالإضافة إلى مبدأ العمل الخاص بالاتصال المباشر والمتكرر بأهل القرية • ودرجة التركيز التى تنصب على المركز تختلف من مشروع لآخر ، حسب كميـة التجارب والعرض التى تعتبر ضرورية ، وأيضا حسب تعقيد النظام الذى يراد إدخاله • فبالنسبة للمـاشية والدواب على سبيل المثال كان القسط الأعظم من التركيز خلال السنوات الثلاث الأولى ينصب على مزرعـة المشروع ذاته • فالمزرعة كانت ضرورية ، إذ لم يكن هناك من أصحاب المعرفة المحلية من يمكن للمشروع الاعتماد عليه فى تقديم توصيات مؤكدة للمزارعين المحليين حـول أساليب وحدات ماشية المزارع الصغيرة ونجاحها المرجح • كما أن حجم الاستثمارات المطلوبة — من حيث رأس المـال والوقت وموارد الأرض — لأى مزارع بمفرده كانت لا يمكن أن تشجعه على ذلك إلا عندما تتاح له أدلة أكثر على نجاح المشروع • وكانت المزرعة توفر أيضا إمكانية اختيار وتعديل كل جزء من أجزاء نظام المزرعة ، بمـا

يهدف — كما ذكرنا آنفا — إلى تحقيق زيادة ملموسة فى الإنتاجية ، مع البساطة فى الإدارة •

ومن الناحية الزراعية ، فقد أوضحنا فى المرحلة الحالية أن النظام يعمل بنجاح • ومازال من الممكن تحسين أو تغيير أجزاء من النظام — مثل قنوات المياه التى يجرى حاليا استبدالها — ومازال يتعين اختبار شىء آخر أو شيئين — مثل الألبان • إلا أن أفكاراً مثل تهجين الماشية المحلية بالماشية المستوردة ، واستخدام حشائش رودس ، وتوسيع أحواض الرى ، والزرع بواسطة آلة الروتافيتور «Rotavator» ، كانت موضع رضا المزارعين المحليين ، حتى أن أشكال ممارساتهم الخاصة تتأثر الآن بهذه الأفكار •

وبناء على ذلك فقد وصل العمل بالمزرعة إلى نقطة تحول ؛ فالمزرعة أصبحت تعمل بكامل قوتها ، ويمكن الآن تركها أكثر فأكثر فى أيدى المساعدين العمانيين أنفسهم • وتحويل اهتمام العمل الجديد بصورة أكثر اكتمالا فى اتجاه التوسع • والتوسع يتضمن أن نشرح بمساعدة البراهين الملموسة ما الذى نفعله بالضبط ، وتوفير الوسائل للمزارعين لكى يتبعوا أفكارنا (مثل • الامداد ببذور حشائش رودس ، وقنوات المياه ، ومعدات تربية الحيوان •• الخ) • كما يتضمن أيضاً العمل مع المزارعين خلال المرحلة الأولى الحرجة التى يطبقون فيها أحد هذه الأساليب الجديدة ، حيث يكون من الأهمية أن يفهموا تماماً ما يفعلونه ، بحيث لا يخمد حماسهم عندما يصادفون مشكلة أولية •

وكان لمشروع النسيج دائماً ورشته التى كانت تجرى فيها التجارب ، منذ بداية المشروع ، على غزل ونسج الأصواف المحلية ، فقد تم اختبار السوق بالنسبة للسجاجيد والحقائب الصوفية بسلع نسجها أخصائى النسيج فى هذه الورشة ، فقبل أن يتم اختبار السوق ، لم يكن من

المعقول أن تطلب من أحـد أن يتدرب للعمل كنساج • وعلى أية حال ، فمنذ البداية ، كان التوسع فى أعمال الغزل يحـدث فى بيوت القرية ، حيث كانت النسـاء يقمن بهـذا العمل • وهناك ، كان بمقـدور النسـاء أن يقارنّ بين عجلات الغزل وبين المغزل التقليدى ، كما نجحنا فى تشجيعهن على تحسين طول الوبرة ومتوسط نوعيتها • وكان تعليم الأفكار والأساليب الجديدة يجرى فى البيوت ، حيث كان يمكن بصـورة مباشرة معرفة مدى كونها تتناسب مع طريقة حياة النساء • وكانت النساء ماهرات ومتحمسات بصـورة أكيدة ، والآن ، وبعد عمليتين ناجحتين للبيع فى عمان ، يبـدو أن السوق أصبحت تتمتع بالقوة • فأصبح من الممكن ابتكار منتجات جديدة• إلا أن المشكلة الرئيسية المعلقة هى مشكلة التنظيم ، فالنسـاء يعملن معاً (على أشكال تعاونية) لبيع سلعهن بسعر طيب لتاجر التجزئة أو لتاجـر التصـدير •

ومثل مشروع النسيج ، كان لمشروع النحل مركز صغير يتألف من ورشـة ومنحل صغير • وكان يتعين على أخصائى النحل أن يعرفوا الظروف المحلية والنحـل المحلى • وبالتالى كان المنحل ذا قيمـة كبيرة بالنسبـة لهم • كمـا كان مفيدا فى إظهار مزايا المعدات الجديدة لمربى النحـل المحليين • ولكن كان من الممكن هنا إقناع مربى النحل بإجراء التجارب فى أرضهم الخاصـة • ففى أسوأ الأحـوال قد يخسرون خلية نحل تقليدية (قد يصل ثمنها ربما إلى ٢٠ جنيهاً استرلينياً) ، إلا أن الخسـارة لن تؤثر على بقية خلاياهم التقليدية • وفى أفضل الأحـوال ، فإن الخلية تبدأ فى إظهار مزاياها المتعددة للمالك وتصبح بالتالى وحدة عرض إضافية بالنسبة لكل جيران مربى النحل •

وكانت هذه الطريقة تضع فى الفترة الأولى عبئا إضافيا من العمـل والمسئولية على عاتق الأخصائى • إذ كانت جولاته طويلة جدا ، كما كان يتعين عليه أن يتأكد من أنه لا يمكن لخلية أن تفشل بسبب عدم الاهتمام

الجيد بها ، ولكنه كان يتمتع بالإمكانية المباشرة لشرح أساليب التحكم فى النحل لصاحب الخلية الجديدة ، وتلقينه فهما أصح للبيولوجية الأساسية للنحـــل •

أما مشروع الطاقة المتجددة ، فمـــا زالت كل جوانبه فى مرحلـــة التجارب • فالطاحونة الهوائية قد ضخت المياه لأول مرة ، فى موقع الاختبار بورشـــة شركة البترول ، فى مايو ١٩٨٠ • أما معمل التقطير الشمسى ، فلم يحقق على الإطلاق ما يقترب من إنتاجه النظرى الأقصى ، إلا أن مزيدا من العمل سيبذل لتعديل التصميم فى محاولة لتحسين الأداء • أمـــا وحدة التسخين الشمسية فما زالت فى انتظار إقامتها •

مشاركة الحكومة :

نتيجة للروابط الوثيقة المتزايدة بين حكومة عمان والمشروع فقـــد أصبحت وزارة الزراعة أكثر إدراكا ، وأكثر اشتراكا بصـــورة مباشرة فى التقدم الذى يتم إجراؤه فى الخابورة • ومع انشغال الحكومة فى إعداد الخطة الخمسية (١٩٨١ / ١٩٨٥) • فقـــد بدأت مناقشات مفيدة مـــع المشروع ومع جامعة دورهام ، بهدف إدخال مبادىء العمـــل فى المشروع والمعرفة التى تم تحصيلها حتى الآن فى استراتيجيات الخطة الخمسية • ومن المأمول أن يلعب ذلك دورا مفيدا فى إطار الخطط الحكومية الأوسع للتنمية ، وفى مساعدة المجتمعات الريفية فى عمان على زيادة ثروتها الخاصة • وبالتالى على الاحتفاظ بهويتها الاقتصادية والاجتماعية المندمجة •

شـــكر

يود الكاتب أن يعرب عن عرفانه بالجميل لجامعة دورهام ، وبوجـــه خاص للبروفيسير هـ • باون ــ جونز الذى بدأ عمل الجامعة فى عمان • ولقد قدم الكثيرُ من المنظمات والأفراد فى عمان المساعدة القيمة للمشروع على مـــدى سنوات ، ولكن من المستحيل إنجاز هذا العمل دون الإسهام الذى قدمته وزارة الزراعة والمصايد ومؤسسة التنمية النفطية P. D. O ــ وفى صلب الدراسة مناقشة كاملة لدورهما •

وأخيرا يجب على الكاتب أن يتوجه بالشكر للعاملين بالمشروع ، فى المـــاضى والحاضر ، حيث أن خدماتهم المخلصة ، التى كانت غالبا ما تتم فى ظروف صعبة ، قد تغلبت على الكثير من المشكلات ، وأسهمت فى أن يتقدم المشروع بصورة طيبة على الطريق لتحقيق أهدافه الأولية •

سلطنة عمان
وزارة التـراث القـومى
المكتبـة
الرقم العـام : ٢٠٠٧
الرقم الخاص : ٠٨٠

المراجـــــع

١ — أديث بنروز (١٩٧١) البترول والدولة فى الجزيرة العربية، فى « **شبه الجزيرة العربية : المجتمع والسياسة** » الناشر : د . هوبوود ص ٢٧١ / ٢٨٥ .

٢ — دورهام (١٩٧٨) **المياه** — الأبحاث وعملية المسح للتنمية شمال عمان — التقرير النهائى — المجلد ٢ — جامعة دورهام — ١٩٧٨ .

٣ — ج . س . ويلكنسون
(١٩٧٧) « **المياه — الاستيطان القبلى فى جنوب شرقى الجزيرة العربية — فى أفلاج عمان** » .
أوكسفورد — كلارندون — ١٩٧٧

٤ — دورهام (١٩٧٨) « **التسويق** » — الأبحاث وعمليات المسح للتنمية فى شمال عمان — التقرير النهائى — المجلد ٦ — جامعة دورهام — ١٩٧٨ .

٥ — دورهام (١٩٧٨) « **صيد وتسويق الأسماك** » — المرجع السابق .

٦ — ج . س . بيركس
س . أ . سبكلير
(١٩٧٧) « **حركات هجرة العمال فى جزء من شمالى سلطنة عمان** » — تقرير عمل لمشروع الهجرة الدولية التابع لمنظمة العمل الدولية — مايو ١٩٧٧ ص ٨٧ .

٧ — رينارد ايلاكو جيب (١٩٧٥)

مجموعة تقارير من بينها التقارير الآتية :

* رينارد / ساونى / ايس (مارس ١٩٧٥) .
« مسح موارد المياه فى شمال شرقى عمان » .

التقرير المؤقت .
— ايلاكو (يناير ١٩٧٥) —
« مشروع تنمية موارد المياه فى شمال عمان — التقرير المؤقت » .
المجلد الأول — التقرير الرئيسى .
* السير أ . جيب وآخرون (أبريل ١٩٧٥)
«مسح موارد المياه فى شمال عمان — المجلد الأول — التقرير الرئيسى .

٨ — ر . و . راتون (١٩٨٠)

« تنمية امكانات عمان الزراعية » فى « قضايا التنمية : دول الخليج العربى » (تحت الطبع) .

٩ — أ . ف . شوماخر (١٩٧٣)

« الصغير هو الجميل » — لندن — بلوند آند بريجز .

١٠ — وايتهيد (١٩٧٢)

* **سلطنة عمان — مسح اقتصادى ١٩٧٢ »** — مجموعة وايتهيد الاستشارية — هارولد وايتهيد وآخرون .

١١ — ر . و . راتون (١٩٧٩)

نتائج وتوصيات مجموعة D. U. K. D. P. رقم ١ ، **الزرع باستخدام جرار ذى عجلتين فى منطقة الباطنة .**

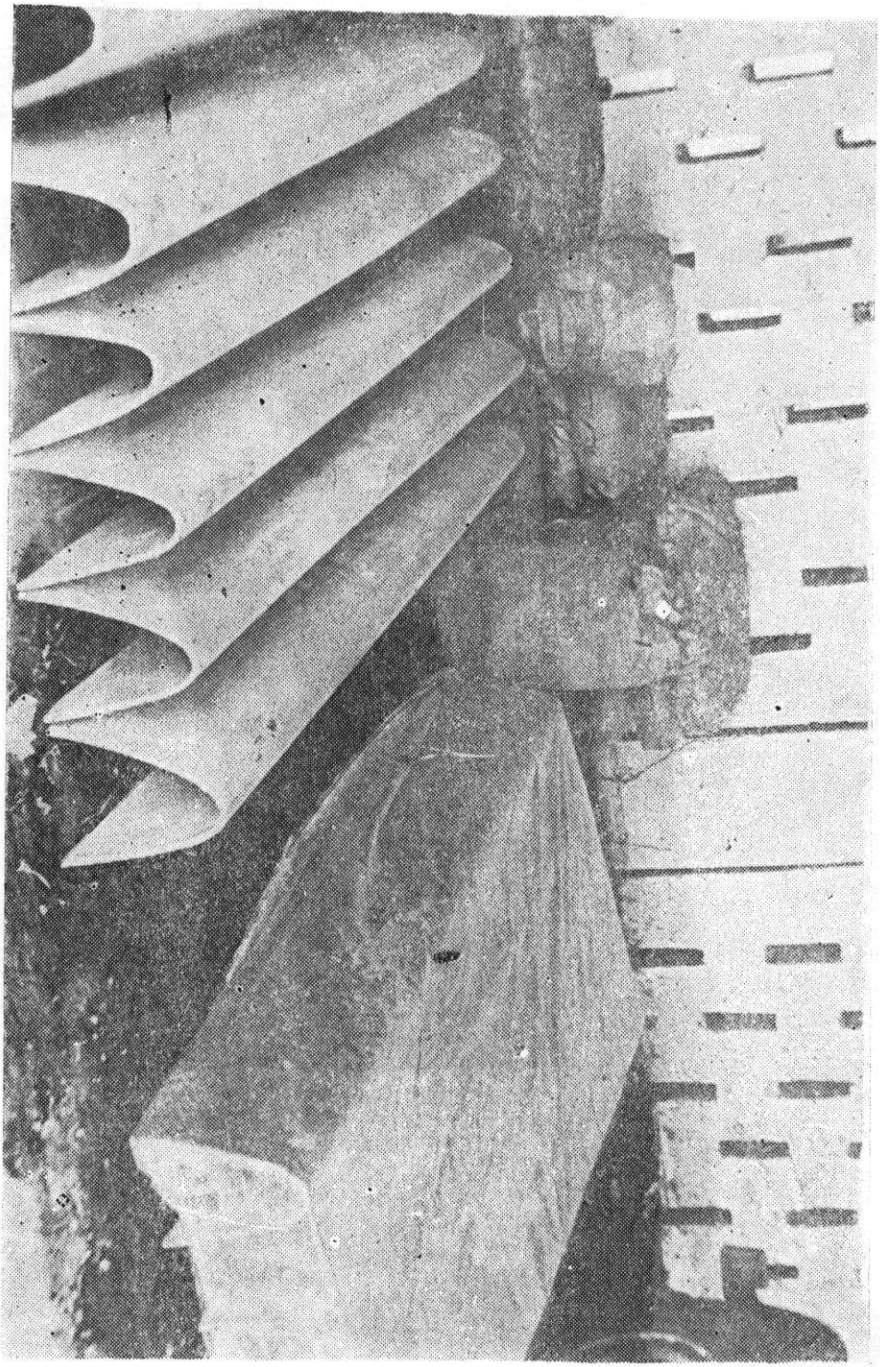
١٢ — ك . كـــوك
ر . ماس (١٩٨٠) نتائج وتوصيات مجموعة D. U. K. D. P رقم ٣ **توصيات لبرنامج للتوسع فى تربية الحيوان .**

١٣ — س . بروكنشـــا (١٩٨٠) القارير الأولية لمجموعة .D.T.K D P المجلد ٤ / رقم ١ : **مشروع الخابورة للغزل والنسيج — التقرير السنوى حتى ١٥ مارس عام ١٩٨٠ .**

١٤ — م . مانلى (١٩٧٨) تربية النحـــل فى شمال عمـــان — **« الموارد الطبيعية »** — المجلد ٤ / العـــدد ٩ — نوفمبـــر ١٩٧٨ — ص ١١ / ١٤ .

١٥ — أ . بيركلى **(١٩٧٩)** **تربية النحل فى ظفار** — تقرير غير منشور لمشروع انتاج عسل النحل فى عمـــان .

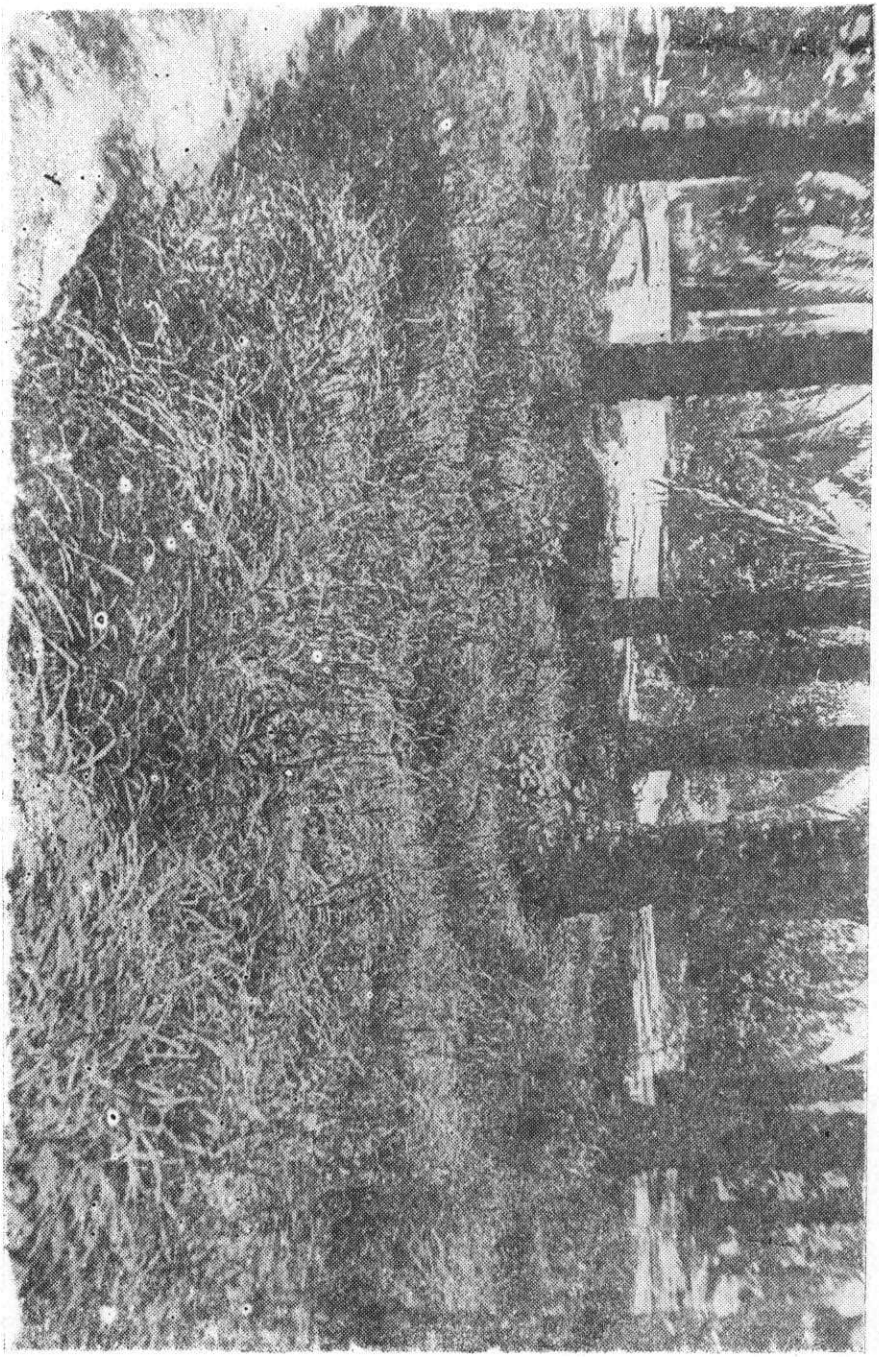
١٦ — ر . وايتكومب **(١٩٧٩)** **« التقرير المؤقت / مايو ١٩٧٩ »** — تقرير غير منشور لمشروع انتـــاج عسل النحل فى عمان .



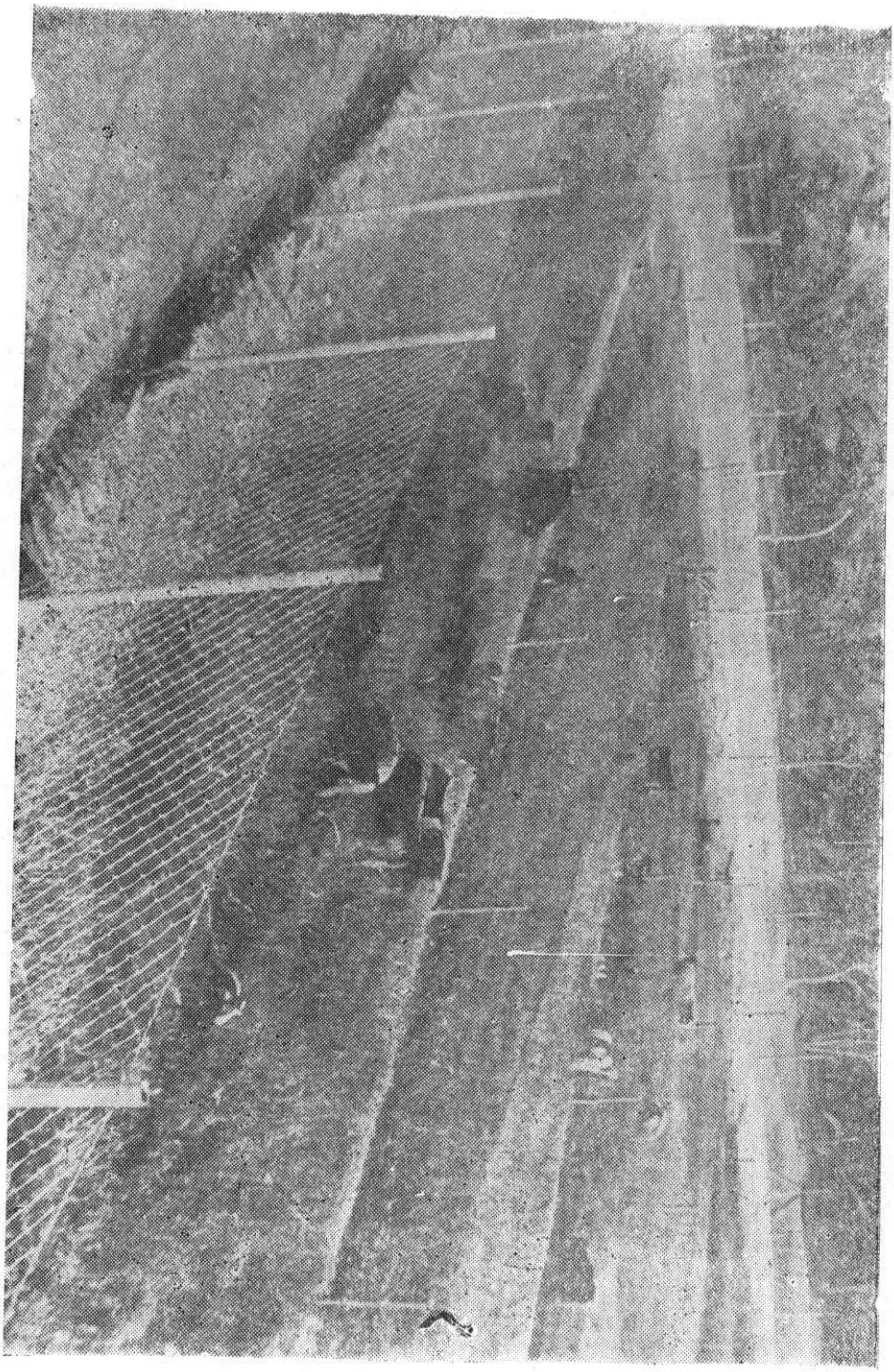
(شكل رقم ١)



(شکل رقم ۲)



(شكل رقم ٣)



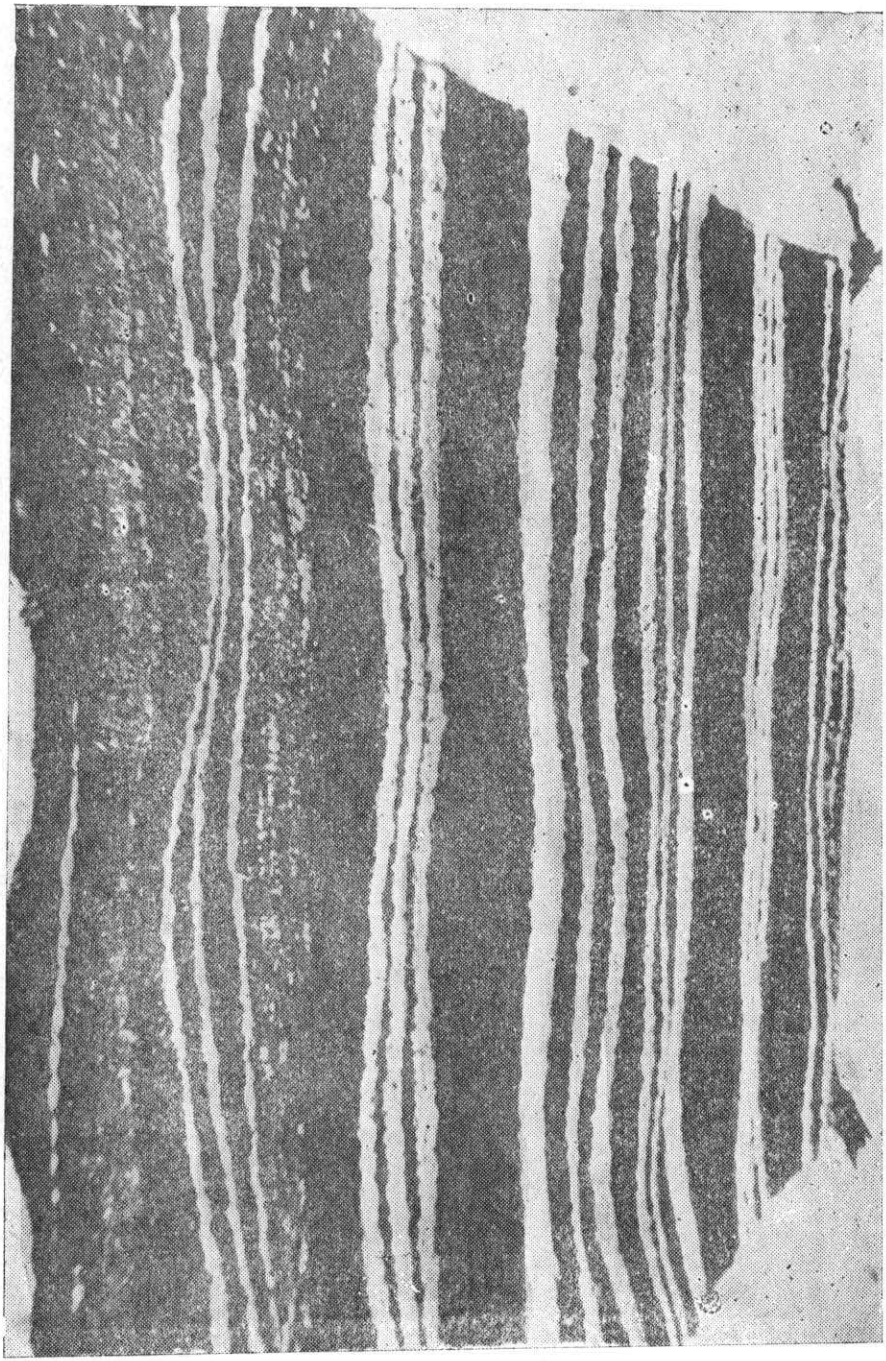
(شكل رقم ٤)



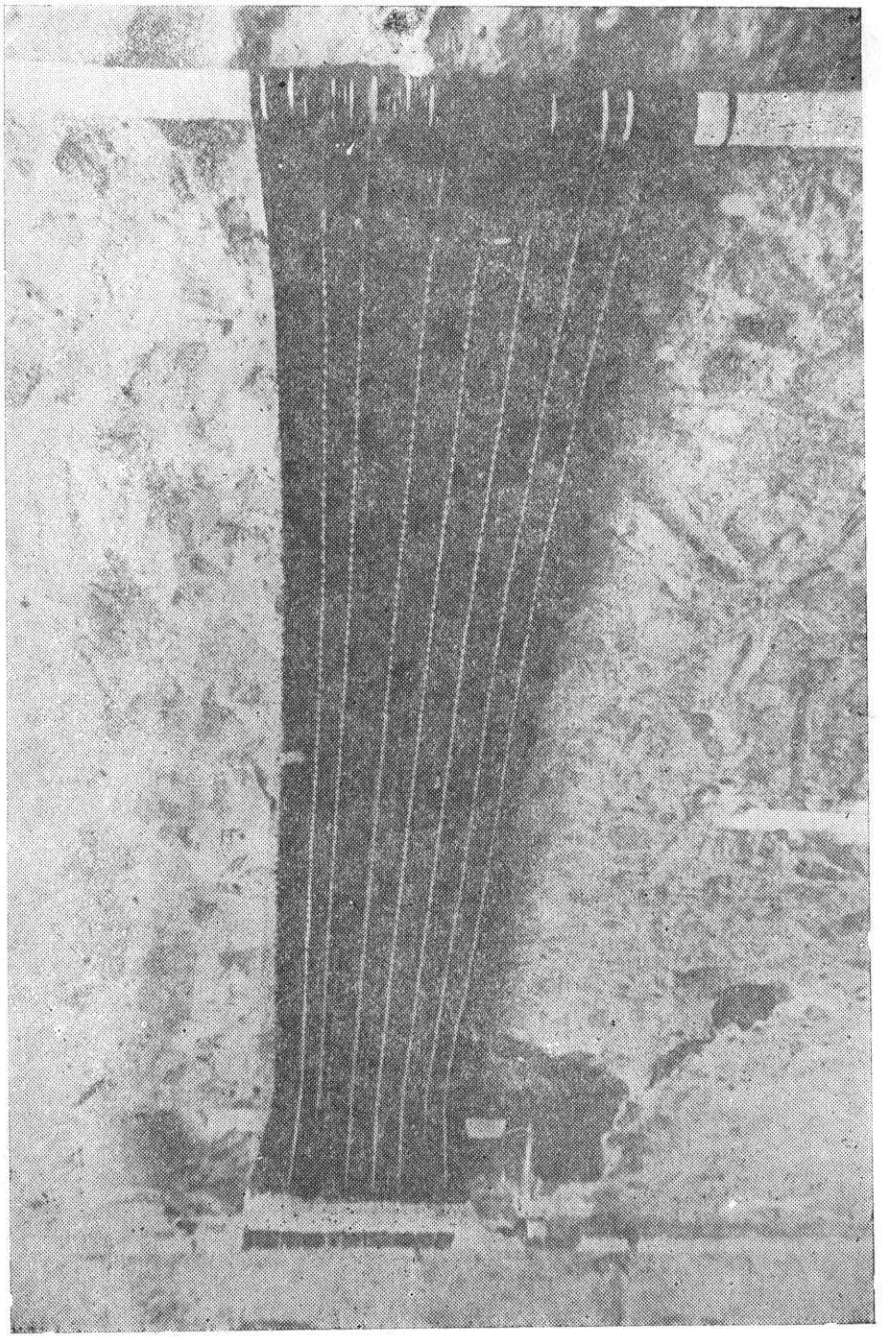
(شکل رقم ٥)



(شكل رقم ٦)



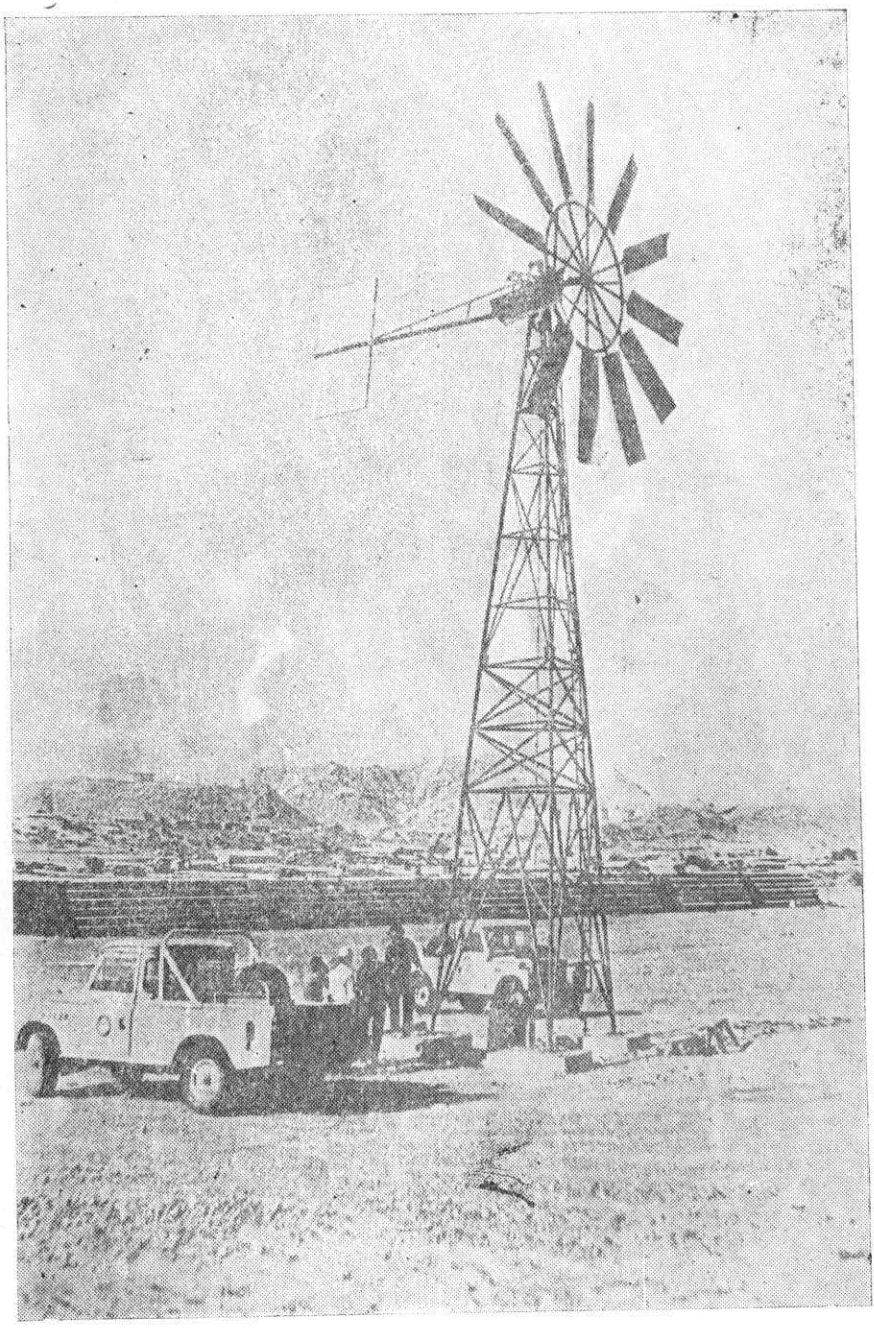
(شكل رقم ٧)



(شكل رقم ٨)



(شكل رقم ٩)



(شكل رقم ١٠)

النشاط الملاحي العُماني
على الساحل العربي الجنوبي

بروفسور . آر . سارجنت

Omani Naval Activities of the Southern Arabian Coast
in the late 11th/17th Cent.

by Prof. R. B. Serjeant

مقدمـــة :

تأثرت عمان واليمن أثناء القرن العاشر وحتى القرن الســادس عشر بتزايد الوجود البرتغالى فى المحيط الهندى والنمو العظيم لإمبراطوريتهم البحرية •وحتى قبل ذلك ، وفى عام ١٥١٥ تعرضت اليمن للتوسع المملوكى على ساحل البحر الأحمر • وأعقب ذلك وبسرعة هجــوم الأتراك العثمانيين الذين ألحقوا بها الهزيمة واعتبروها مغامرة من مغامراتهم الامبراطورية والتى دفعتهم إليها ثروات [١] البلاد الشهيرة من ناحية ، ولمقاومة الحصار البرتغالى الذى فرض على طرق التجارة إلى الهند من ناحية أخرى • وكان البرتغاليون قد احتلوا قبل ذلك مسقط وحصنوها تماماً • وكانت التجربة غاية فى المرارة والتعاسة بالنسبة للشعب العربى ، لأن الأتراك والبرتغاليين كانوا فى الحقيقة قساة ، خونة وجشعين •

وقد حقق أئمة اليمن من الزيديين النجاح فى النهاية وطردوا العثمانيين من الموانىء الداخلية عام١٠٤٥هـ و ١٦٣٦م وبعد سنوات قليلة ومع احتلال سلطان بن سيف لقلعة الميرانى أو قلعة القائد ، استطاعت عمان أن تؤكــد سلطانها فى مسقط • وبدأ العثمانيون فى الواقع الانتقام لأنفسهم وذلك بمهاجمة الممتلكات البرتغالية فى الهند وشرق أفريقيا ، وأغاروا على بومباى بمهاجمــة الممتلكات البرتغالية فى الهنــد وشرق أفريقيا ، وأغاروا على ديو وممباسا •

والعمانيون يعملون فى البحر ، كما أنهم يعملون بالرعى والزراعة • وتكمن قوتهم فى قدرتهم البحرية ، فى حين يستمد أئمة الزيديين سلطتهم[٢] وتأييدهم من نفوذهم على القبائل المولعة بالحرب فى الجبال الشمالية ، والمحصورة داخل أراض بدون سواحل بحرية ، ومن هنا فإنهم يختلفون عن سلاطين الرسوليين « «Rasulid» » فى تعز فى القرن الثالث عشر وحتى منتصف القرن ١٥ والذين كانوا يستطيعون من خلال سيطرتهم على البحر

من غرض نفوذهم على طول الساحل الجنوبى للعرب إلى حد أنهم كانوا يفرضون جزية سنوية على بعض الموانىء الساحلية وعلى بعض الأماكن الصغيرة والمعروفة مجتمعة باسم بلاد التفاريق (وهو نص ورد فى الوثائق العمانية الأخيرة) والتى كانت بمثابة مرفأ للأسطول التجارى الهندى • كما كانوا يحتفظون بقوة بحرية لمواجهة القراصنة •

أما الزيديون فلا يبدو أنهم بنوا أى أسطول أو قوة بحرية • وقد أدت الانتفاضات المحلية إلى خسارة موانئهم البحرية وبالتالى فقد العائد منها وهو ما جعلهم عاجزين عن دفع الإعانات المالية ، وربما كان لذلك دور هام فى انحدارهم وانحطاطهم فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر •

الأنشطة البحرية العمانية على السواحل الجنوبية :

سجل « طبق الحلوى » الغارات التى قام بها العمانيون طوال عشر سنوات على طول السواحل الجنوبية وفى البحر الأحمر وحتى (المخا) «Mocha» • وكان الدافع لهم كراهيتهم للبرتغاليين إلى جانب سعيهم للقضاء عليهم • حدث كل هذا فى الوقت الذى كان فيه المحيط الهندى يعج بالقراصنة • وبالنسبة لليمنيين كان تأمين عمليات الشحن التى تتم فى موانئهم تبدو لهم أكثر أهمية من اعتبارات الدين أو الجنس وذلك بسبب حاجة الأئمة إلى العوايد من جمرك « المخا » وعدن •

وعند بزوغ هلال ذى الحجة عام ١٠٧٩ هـ حوالى ٣ مايو ١٦٦٩ م [٤] ظهر العمانيون على شاطىء عدن والمخا وقاموا بعمليات حربية للقضاء على الفرنجة وبدأوا بمهاجمة ثلاث مراكب شراعية كبيرة «Jilab» [٥] وكانت ملكا للفرنجة (الفرنسيين) [٦] وذلك عند وصولها إلى باب الفردة «Babel Furdah» • وقد دافع الفرنجة باستماته عن ممتلكاتهم وهلك ومات بعضهم بينما أصيب البعض الآخر • ولم يستطع نائب « المخا » أن يصدهم

نظراً لعددهم الكبير • إذ وصلوا فى سبع سفن كبيرة «Birash» [٧] وذلك بالرغم من جلبه المتطوعين «Ghawà,r» لمساعدته من أماكن متعددة• كما ناشد الإمام إرسال قوات لمساندته ولكن هذه القوات لم تصل إلى أن خرج العمانيون بما أخذوه من مغانم • وأصبح البندر ضعيفا غير آمن بسبب خروجهم [٨] ، كما غير بعض السفن طريقها إلى جدة •

وفى عام ١٠٨٠ هـ حوالى يونيه ١٦٦٩ م مرت مجموعة من العمانيين من طاشا «Tasha» [٩] إلى جيزان مقتفين أثر سفينة بايزيد [١٠] لأنها استطاعت أن تشق طريقها متجنبة المرور من المحثة • ولذلك فقد تبعوها مقدرين أنهم سيعودون أيضا معها • ولكن السفينة ضللتهم وذهبت إلى جدة • وقد اضطر شعب جيزان عند رؤيتهم إلى الهرب منهم بمجرد وصولهم ولكنهم تركوها بعد أن ثبت لهم خطأ اعتقادهم وتقديرهم •

وبعد شهر أو شهرين من هذه الحادثة جاءت أخبار من حضرموت فى اليمن تقول إن ٢٠ سفينة برتغالية كبيرة أغارت على عمان انتقاما من الإساءة العمانية على ديو «Diu» فى العام السابق والتى فقد فيها بعض التجار المسلمين ممتلكاتهم •

رساله [١١] الإمام سلطان بن سيف إلى الإمام المتوكل إلى اليمن ورده عليها

فى ربيع الأول عام ١٠٨٠ هـ / أغسطس ١٦٦٩ م وصل خطاب من ملك عمان ، سلطان بن سيف إلى مقر المتوكل وبينما طبع السليمى الخطاب وردّ إمام الزيديين عليه بدون مقدمة أو تعليق أو تاريخ ، أورد « طبق الحلوى » الخطاب بنصه التاريخى ، وأثبت بطريق الصدفة ان سلطان بن سيف كان لايزال مزدهراً فى هذا التاريخ •

ولما كانت الرسائل مصاغة على صورة نثر مسجوع ومزدانة

بأسلوب الرسائل الذى كان سائداً فى ذلك العصر من المحسنات البديعية ، فإن ما يقصده الكاتب لم يكن من السهل إدراكه دائما وتحديده ، وفى عدة نقاط لم أكن واثقاً تماماً من صحة الترجمة • وعند ترجمة هذا الأسلوب إلى الإنجليزية فإن الغموض وعدم الدقة فى بعض النقاط كان لا يمكن تجنبها • ولكن النص يختلف فقط فى نقاط قليلة ، والنص المكتوب فيما بعد هو ما جاء فى « طبق الحلوى » ولكن عندما يكون هناك اختلاف مع ما كتبه السليمى فإننى قد أوردتها بين قوسين مربعين •

ملحوظة : نص الرسائل سترد فى آخر المقال •

تعليـــــق

« ان الخلافات الطائفية بين كل من المدرستين الإسلاميتين الاباضية والزيدية تنعكس بوضـــوح فى لغة الخطابات • فكلا الملكين تلقبه طائفته (بالإمام) ، بيد أن أحدهما لا يخاطب الآخر بهذا اللقب ، بل إن سلطان بن سيف لا يخاطب حاكم الزيدية بلقب المختار ، المتوكل ، وإنما ببساطة على أنه (عالى الجناب) • وهو يصفه بأنه القرشى العربى ولكنه لايورد أية إشارة لانحداره من نسب النبى • رغم أنه يشيد بجده الأعلى على بن أبى طالب كمثل أعلى له • والحاكمان كلاهما يستخدمان لقب (الملك) فى مخاطبة أحدهما للآخر • وهما يتبعان السنة أو الشريعة •

والمتوكل حانق بسبب انتهاك « المحشة » من قبل السفن العمانيـــة التى كانت تهاجم البرتغاليين هناك • وقد رفض سلطان بن سيف هـــذا مشيراً إلى سياسة العمانيين فى مهاجمة البرتغاليين أينما وجدوهم •

« وطبق الحلوى » يسخر من تأكيد سلطان بن سيف أن « خلف » قد ترك ظفار بنـــاء على رغبة مولاه ، ولو كان الأمر كذلك لمـــا خلف المدفعين وراءه • وللحق ، كما يقول ، أنه خرج من ظفار عندما دهمه جيش السلطان الكثيرى « وهو يخبرنا بأن المتوكل قد أمر بإطلاق المدفعين ، ولكنه يضيف أن الشخص المكلف بالرد على سلطان بن سيف لم يكن حقيقة مؤهـــلا لذلك ، وهـــو يدرك فى خبث الترقية التى يعطيها الملوك « لكتاب الإنشاء » دون تعقل • وربمـــا لهـــذا السبب فإنه لا ينقل عن نص الرد ولكنـــه أعطى بواسطة معلق هامشى ويعتقد أن مؤلف « طبق الحلوى » له نظرة متطرفة إلى الكاتب الذى هـــو ، على حـــد قوله ، العالم الكبير القاضى أحمـــد بن صالح أبو الرجال (٧٤) ، من عائلة العلماء المشهورين •

وإذا كان خطاب سلطان بن سيف بليغاً وسريعا فى دحض اتهامات المتوكل بالتهديدات الغامضة ، فإنه مع ذلك يعرض إمكانية المصالحـــة وعلى الجانب الآخر فإن رد المتوكل قد صيغ ، بالنسبة لرجل إباضى ، بعبارات

عدوانية شديدة القسوة مع إشارات إلى ماقام به علىّ لقمع الخوارج وذلك فى لغة حافلة بمثل هذه الروايات عن ذلك الأخير والتى يجدها المرء عند كتاب قدامى مثل المبرد .

انهيار نفوذ الزيدية فى حضرموت : البرتغاليون والعمانيون فى خليج عـــدن والبحر الأحمر :

فى رجب ١٠٨٠ هـ / أواخر نوفمبر إلى ديسمبر ١٦٦٩ م [٧٥] ، وقعت معركة بحرية ضارية بين العمانيين والفرنجة . وفى المرحلة الأولى منها كانت رياح النصر مع الجند العمانيين .

ولنعد الآن إلى اليمن ، يقول الجرافى [٤١] إنه فى عام ١٠٨٠ هـ ٧٠ — ١٦٧١ ميلادية ، وصلت قوة ضخمة من البرتغاليين المسيحيين إلى باب المخا وأعلنوا للحاكم أنهم يعتزمون إعـــلان الحـــرب عليـــه ولكن لم تقدر قوة من البرتغاليين على الثبات ، وانسحب البرتغاليون إلى سفنهم أوجبرتهم القوة على العودة إلى بلادهم ، وحينئذ بدأ بناء قلاع المخا كحماية للبلدة من تكرار مثل هذا الحادث فى المستقبل .

وفى عـــام ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٣ م [٤٢] ، وجاءت أنباء عن هدنة بين حاكم عمان والبرتغاليين (البرتغال) وانه استراح من عدوانهم .

وفى عام ١٠٨٤ هـ / ٧٣ — ١٦٧٤ ميلادية ، جاءت رسائل من الحاكم المهرى لجزيرة سقطرى «Socotra» والساحل الحضرمى الواقع بين الشيهر وظفار ، يسترعى انتباه الإمام ويعلن أنه قرر الاقتداء به [٤٢]

ولم يشر « طبق الحلـــوى » [٤٣] إلى أيـــة متاعب تتعلق بغارات العمانيين حتى نهاية ربيع الأول ١٠٩٠ هـ / تقريبا ١١ مايو ١٦٧٩ م ، عندما وصلت أولى السفن الهندية إلى المخا ، فاعترضها رجال عمانيون

واحتجزوها هناك • (أى فرضوا عليها الرسوم الجمركية والعشـــور) • وبعد ذلك بقليل ، وعلى وجه التحديد فى جمادى الأولى ، أى العاشر من يونيو وحتى التاسع من يوليو من نفس العام (٤٤) ، وصلت أنباء مـــن عامل عدن ، الشيخ راجع قال فيها أن سفينة من ماشليفتان «Masuli patan» قـــد وصلت الى ســـواحل عـــدن وأن بحارتهـــا خائفـــون من الجنـــد العمانيين ، لذلك بعثوا إليه فى جـــوف الليل ليعززهم بالرجال ويمدهم بالأبطال ، وقد استجاب لمطالبهم • وعندما كانت السفينة غاصة بالهنود وبهؤلاء الجنود فوقها ، لم يجدوا إلا قليلاً من الوقت ليفكروا بعـــد الفجر ، حتى انقض عليهم الجنود العمانيون وهم متخفون بشكل مدهش وبدأوا فى سحب السفينة « بالكلاليب » • وعند ذلك نالت منهم الفاجعة أى منال لأنهم لم يدركوا أن الأمر قد دبر بالفعل أثناء الليل وأن طلقات القدر هى التى كانت تضربهم (كم أهلكنا من قبلهم من قرون فنادوا ولات حين مناص) •

فى المخطوطات والكتب المطبوعة المستخدمة لم أجد إشارات أخرى للنشاط البحرى العمانى تجاه السواحل اليمنية •

وقد كان المهرى أحمـــد بن الحسن قوياً جداً حتى أنه جرد حملة عبر البحر من المخـــا لتستولى على زيلع «Zayla» فى ١١٠٧ هـ / ٩٥ — ١٦٩٦ م • ولابد أنه كانت له بعض السيطرة على البحار فى هـــذه البقعة • ولكن يمكن أن يكون العمانيون قد فقدوا ولعهم بالعمليات ضد الموانىء اليمنية بعد أن أصبحوا أكثر اهتماما بشرق أفريقيا •

ويروى لنا السليمى جزءا من قصيدة لخلف بن سنان الغامرى عن فتوحات سلطان بن سيف التى شملت المخا ، حيث يستعيدها الشـــاعر قائلاً • وأيضا فى المخا فإنه امتص نخاع عظامهم « كذا فى مخا قد امتص منهم أعظما » وعـــاد بعدد من أفلاكهم التى بـــدأت كالجبال • وفى باب

المندب [٤٥] هناك كثير من الدم الذى ذهب هدرا • وكثير من المتاع الذى فقد • وعلى حد قول السالمى « هناك تاريخ لهذه الغارات • الذى لم يجمع بعد فى الدفاتر » وقد يكون من الغريب أن تكون هناك روايات عن الأحداث التى وصفها المؤرخون اليمنيون نقلا عن مصادر عمانية •

ملاحـــــق

ملحـــــق رقم ١

•• إن قضية الأمن الهامة بالنسبة للملاحة الهندية التى تستخـدم الموانى اليمنية ربما زادت أهميتها بسبب الإجراءات التى اتخذها الصفى «al - Safiyy» فى أعقاب اعتداء هوبرث هوجو على السفن فى المخـا ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٢ م كمـا جاء فى كتاب البرتغاليين (صفحة ١٢٢ والصفحة التى بعدها) دون أن يكون العمانيون متورطين فى ذلك •

وعندما وصل الصفىّ إلى عدن جاء « تجار الهند » فعاملهم بمودة وخلع عليهم مراتب الشرف والهدايا النفيسة • وخلال الشهرين اللذين أقامهما فى عدن رست هناك سفينتان إحداهما تسمى السواكنجى والأخرى تسـمى « المركـب الصـاحبى » • وكانت هـاتان هما أكـبر مركبين ترســوان فى عـــدن ، وكـل منهمـــا محملـة بأربعمائـة بالـة وألف وخمسمائة شخص (١٠٤) • وكان حجـم كل منهمـا كبيراً حتى أن باب الفرد لم يكن بالاتسـاع الكافى لمرورهمـا • ولم يكن فى الامكان ادخالهما إلا من باب الساحل • وأعد الهنود وليمة لصفى وحاشيته لم يعرفوا لها مثيلا من قبل • ولكن ما إن اكتشفوا أن الذين أعدوهـا هم البراهمة حتى فزعوا • وعندما جاء العيد ، أقام صفى مأدبة منوعة رائعة لقواده ودعا إليها أيضا علية القـوم من الهنود وتجول فى البندر السعيد فوجد أغلبه فى حالة سيئة • وبعد ذلك بعث إلى زعماء الهنـود وقـدم جواداً هدية لكل منهم ، وكتب إلى السلطان حـاكم الهند وبعث معهم واحداً من رجاله بخمسة خيول عربية أصيلة ومعها سروجها المزركشـة الكسـوة المحلاة بالفضـة ، وهدية مماثلة إلى الوزراء •

ثم بعث إلى حاكم بر العجم (الساحل الإفريقى) حاكم ظفار ،

ووضع لشعوب هذه البلاد قواعد وافقوا عليها ووافق على المطالب التى حددوهـا •

ويمكن أن تفسر تصرفات صفى الإسلام على أنها تميل إلى استرضاء التجار الهنود وإقامة علاقات طيبة معهم • وربما كان من المهم لو علمنا ما هى القواعد التى وضعها ، فربما كانت أساسا معترفاً به بشكل عـام لقانون بحرى عرفى بيد أن هذه قضية غير محسومة •

ملحـــق ٢ :

إننى حقيقة مدين بالملاحظات القيمة التالية عن إنتاج وتجارة اللبان والدور الذى لعبه آل كثير وبيت كثير فى ذلك ، إلى مستر سان جـــون ارميتاج ، الذى يعرف ظفار كما كانت خلال عهـــد والد السلطان قابوس •

ويأتى الإنتاج الرئيسى للبان القابل للتسويق من إقليم القارا • وفى عام ١٩٥٦ م أخبرنى السلطان أن أفضل إنتاج من اللبان النجـــدى يأتى من « الوراء » ، إلى الشمال والشمال الشرقى من « طاقة » حيث يلتقى جبل القارا بجبل سمهان • وباستثناء بعض البخور الردىء جداً بالقرب من ريسوط فإن جميع البخـــور ينمو على ارتفاع ٠٠٠ ٢ــ ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر • وهناك أنواع من اللبان أقل جودة على ارتفاعات أقل •

وآل كثير فى ظفار هم فى الأصل رعاة غنم لديهم نوع من الأراضى المغلقة فى وادى جرزين بين صلالة ونجـــد • وهم قد استوعبوا الحياة الجبلية ويختلفون كثيراً عن بيت كثير • وبالاشتراك مع القارا فإنهم يمتلكون أغلب بساتين البخـــور ومع ذلك فإن اللبان ينمو أيضا فى أراضى بيت كثير (البدو الذين يشكلون مع الرواشـــد آل حمدان من آل كثير) والسفوح العليا من الأودية على المنحدرات الشمالية من جبل القارا • وتجول قبائل بيث كثير فى تلك الأودية غرباً حتى صباروت (باستثناء بيت موسان من بيت كثير الذين يمتلكون السهول حتى قشن والصحارى حتى غانم) •

والآن :

(أ) بعض أبناء بيت كثير أيضا يملكون ويجمعون اللبان وعـــادة ماتكون حيلة بيعه هى الدخل الإضافى الذى يشترون به بنادقهم وغيرها من السلع الكمالية •

(ب) بعض أبناء بيت كثير أيضا يستأجرون البساتين من القاريين كما يفعل المشايخ — وعادة ما تكون الأجرة هى نصف الإنتاج • وربما كان البنيانيون من صلالة «Salalah» يشترون نصيب القارا •

(ج) القارا ، آل كثير (بما فيهم بيت كثير) والمهرة (سكان ظفار) يجمعون البخور ، وصاحب الشجرة يحصل على عشرة بالمائة من قيمة المحصول • وقد اعتاد ذلك عدد قليل من الرواشد (آل كثير) فى موسم جمع اللبان • أى شهور الصيف قبل موسم الرياح الموسمية فى المحيط الهندى •

(د) آل عمر (كما يسمون أنفسهم) هم فرع من بنى عمر من عمان وكانت لهم السيادة من مربط حتى جاسك • وقد استقلوا إلى حد كبير بتجارة البخور من مربط • وهذه الأخيرة كانت بالطبع ذات أهمية كميناء تجارى نظراً لقربها من بساتين القارا وسمهان (أعتقد أن شعب مربط قد تعودوا أن يشاركوا فى الجمع) والحرب الأخيرة أكدت أهمية مربط على أنها المركز الرئيسى للبخور على ساحل صلالة •

وهكذا ، فإننى وإن كنت واثقاً من أن آل كثير كانت لهم منزلة فى السوق (لامتلاكهم لمنطقة اللبان النجدى الخاصة بهم ووصولهم إلى محصول القارا ، إلا أنهم لم يكونوا محتكرين بالطبع مالم تكن الأزمان قد تغيرت •

والغيول «Ghuyul» هى ، فى الواقع كانت ، جداول مفتوحة جارية تخرج من عيون ريضات جرزيز «Rizat Girziz» وغيرها ولكن الريضات كانت ، حسب ما تعيه الذاكرة تستخدم فى رىّ حدائق سعيد بن تيمور فى المعمورة ، والآن فيما اعتقد ، فى المزرعة الملكية • ومع ذلك فإن المساحة التى كانت تروى يوماً باثنين من الغيول تمتد بين معسكر

السلاح الجـــوى الملكى والتلال التى لايزال من الممكن رؤيتها من الجو •

كانت الحافة ، وهى القرية الواقعة بين صلالة وأطلال البلد ، هى مرفأ هام • وقد سمعت أن (طاقة) كان يشار إليها على أنها بير طاقة ، وهناك ارتباط بينهما وبين القارا ، « بيت معاشانى «Bait Ma'ashani» وبين البخـــــور •



ملاحظـــــات

(١) صالح اوزبران (تقرير تركى عن البحر الأحمر والبرتغاليين فى المحيط الهندى عام ١٥٢٥) ، دراسات عربية ، لندن كامبريدج ، ١٩٧٨ من ص ٨١ الى ص ٨٨ . « اذا ما هوجمت بأنه سيكون من الممكن السيطرة على أراضى الهند وإرسال كميات كبيرة من الذهب والمجوهرات الى اسطنبول فى كل عام ».

(٢) الحصن الآخر هو الجلالى .

(٣) نقلا عن طبعتى غير المنشـــورة لتاريخه ، ولكن راجع صالح بن على الحامد العلوى ، تاريخ حضرموت ، جدة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، الجزء الثانى ص ٦٨٤ نقلا عن شانبال . راجع بن دويز من السلاطين اليمنيين .

(٤) المرجع السابق .

(٥) طبق الحلوى ، ٧٨ ــ ب .

(٦) قارن كتابى البرتغاليين ، المرجع المشار اليه ص ١٣٥ ، جلبة ، وربما كان هذا وصفا محدودا جدا .

(٧) المنطق هو ذاك الوارد بالمخطوط ، أولئك هم البرتغاليون .

(٨) انظر كتابى « البرتغاليين » ، ص ١٢٣ ، الصورة ٧ تظهر طريق المخـــا حوالى سنة ١٧٢٠ وأنا أميل الى تحديد (الباب) بمكان المرسى الواقع عند طرفى الرأسين ، ومـــع ذلك فان الصورة توضح بوابة حقيقية الى البلدة . ولم يكن من الممكن تحديدها من طبوغرافية المخـــا E. Masro ، محاضرة ندوة الدراســـات العربية لندن ١٩٨٠ ، ص ٥٥ ــ ٦٦ .

(٩) قارن البرتغاليين ، ص ١٣٤ ، البرشة هى سفينة كبيرة ، ولكنها قد تعنى أيضا الجليوت ، وهو قارب طويل .

(١٠) أظن أن هذه الكلمة ترتبط بالنداء لطلب المساعدة ، ياغارتاه ، غـــوار تعنى طلب المســـاعدة . تارن صنعاء مدينة عربية اسلامية ، لندن ١٩٨٠ ملخص الجزء الثانى .

(١١) ليس لهذا المعنى ما يدعمه فى القواميس .

(١٢) أو « ضرب فى » .. ، تاج العروس ، أفسده وأخذه بغير رفق .

(١٣) « طبق الحلوى » ، ص ٧٩ أ ، فيه « طاسا » ، جيزان قد استنبط من كلمات مدونة دون علامات صوتية مميزة .

(١٤) بايزيد سيصبح حمدانيا .

(١٥) « طبق الحلوى » ، ص ٨٠ ب ، الصفحة التى تليها :
E. griffini, **Rivista degli studi Orientali** Roma, 1910, III, 912, no. 119
وكتاب صاحب عمان الى الامام المتوكل على الله ، اسماعيل بن القاسم ، الامام سلطان بن سيف . مطبوع فى تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين بن عبد الله السالمى ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، الجزء الثانى ، ص ٥٦ ، والصفحة التى تليها .

(١٦) تخرمت ، استخدمت من أجل الوزن ، وهى صعبة قليلا فى السياق .

(١٧) تقرأ الطرولسى « لطبق الحلوى » ، الدروز .

(١٨) قراءة Afà'a - hu «afà - hu» للسالمى .

(١٩) ربما كى تترجم على أنها (العبيد المشركين) كوسيلة لاهانتهم .

(٢٠) باب الفردة .

(٢١) السالمى يستخدم نقصد بمعنى نسلك .

(٢٢) تقرأ نتخذ عند السالمى ، وربما يقصد بالمخطاف المرساة ،

(٢٣) السيارة ،مركب بحرية ، (يسارة) عند السليمى تبدو محرفة . ولكن غالبا ٧ تعنى أيضا الأظافر .

(٢٤) «S. B. Miles, op. cit... I, 214 - 15» يلمح الى كرة اللوحات التى فقدت أو دمرت عندما دخلوا فى الكنيسة فى ديو .

(٢٥) فى « طبق الحلوى » توجد كلمة دون علامات نطق مميزة ، يمكن أن تقرأ على أنها جمبروه . وربما كانت تتفق مع التركية جاهان نوما التى يسميها جومرو . وعند السالمى فانها جيرون . «Jirun» أرض الخلافة

الشرقية Lands of the eastern caliphate» ١٩٣٠ و ص ٣١٩ ،
جيرون «Jirun» (خطأ) هى جزيرة بالقرب من هرمز القديمة . وجمبرو هى بندر عباس الحالية .

(٢٦) أسلوب قرآن ، وان كان ليس من القرآن .

(٢٧) من القرآن (انما أنا من المنذرين) (سورة النمل آية ٩٢) .

(٢٨) هذا كى نفهم معنى أنها كلمة واحدة ظاهرة تعنى واضحة ولكنها تعنى أيضا منتصرة .

(٢٩) السالمى يحذف (من جانبه) .

(٣٠) السالمى يوردها عيسى ، جمال بيضاء ذات سمرة وصفرة .

(٣١) تقرأ محسن عند السالمى ، وتعنى النوازل .

(٣٢) السالمى يحذف (التسليم) .

(٣٣) تقرأ عند السالمى ، لاتحتسى ، ويبدو أنه يقصد الغضب الذى قد يصيب السلطان العمانى من مفاجأة العدوان .

(٣٤) يضيف السالمى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(٣٥) النص المستخدم هو السالمى ، الجزء الثانى ، ص ٨٥ .

(٣٦) قاصبة أرض .

(٣٧) هذه العبارة ربما تحمل اهانة مناسبة ، لأن اليهودى الذى يعتنق الاسلام ، يعرف فى اليمن الزيدية بالمحتدى ، وبالطبع فانه كان يعتبر الاباضيين من الكفرة .

(٣٨) الباطن ، بمعنى القوى ، لقب لعلى بن أبى طالب ، بمعنى المدح .

(٣٩) مارن ، كافر ، كما فى روايات السنية عن الخوارج .

(٤٠) هذه الكلمة لم يتيسر تتبعها فى القاموس .

(٤١) المعركة التى انتصر فيها على على الخوارج .

(٤٢) الرواية التى على هامش طبق الحلوى تختلط بالصلاة على النبى وآله وأصحابه . الاشارة الى آل النبى ، الأسياد ، يبدو أنها كانت غير مستساغة للسالمى لكونه اباضيا ، لذلك حذفها .

(٤٣) محمد الشوكانى ، « البدر الطالع » ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ / الجزء الأول من صفحة ٥٩ — ٦١ ، يقول انه قد ولد فى ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م ، وهو عالم مشهور وألف عملا عن تاريخ حياة مشاهير الزيديين .

(٤٤) طبق الحلوى ، ص ٨٢ ب .

(٤٥) فى المرجع المشار اليه ، ص ١٦٤ .

(٤٦) « طبق الحلوى » ، ص ٩٦ ب .

(٤٧) نفس الكتاب ، ص ١٠٠ — أ .

(٤٨) أدبيا ، تؤخذ كنموذج ولكن المعنى المقترح يبدو قياسيا هنا .

(٤٩) ١٢٢ أ .

(٥٠) نفس الكتاب ، ص ١٢٢ ب .

(٥١) نفس الكتاب ، الجزء الثانى ١٦ — ٢ .

(٥٢) هجاء آخر نكلمة مندب .

(٥٣) الجرموزى — فى المرجع المشار اليه ، ٣١٨ — ١٩ .

(٥٤) حتى مع الاقرار بصحة الزحام على سفن الحج فان هـــذا لايبدو عددا كبيرا .

(٥٥) هناك بعض المعلومات المفيدة عن اعادة بناء أجزاء من عدن .

(نص الرسـائل)

وهذا كتاب منه الى ملك صنعاء اليمن : بسم الله الرحمن الرحيم • من امام المسلمين سلطان بن سيف بن مالك رأس العرب اليَعْرُبى العربى العمانى إلى عالى ذروة الجناب المعظم الهمام المكرّم اسماعيل بن القاسم القُرَشى العربى •

اما بعد • فانا نحمد الله على آلائه وجميل صنعه وبلائه ونسترشده الى سلوك سبيل رضاه ونستزيده من خزائن مواهبه وعطاه انه بيده مفاتيح كل خير وكفاية كل بؤس وضَيْر• وان سألت أيها المحب عنا ورُمت كيفية الحال منا فانا بحمد الله فى حال يُسَرّ به الوَدود ويساء به الحسود • ثم لتَعلم أيها الملك أنه قد وصل الينافى مدة أيام قد تصرّمت وشهور قد تخرمت (١٢) رجل من جنابكم يزعُمُ انكم أرسلتم بيده طروساً بها درَر رائق لفظِكم وخطابكمَ غير انه يقول إن المركب الذىأقبل فيه عابه الانكسار فغرق فى اليم فأدرك الطروس المسطَّرة (١٣)حكم التلَفَ ثم بيْد أنه قد أفاه الينا (١٤) من نتائج لسانه واتَّضح لنا من واضح نطقه وبيانه أنكم علينا عاتبون ومنا واجدون لاجل قطع خُدّامنا فى العام الماضى مراكب رقاب المشركين (١٥) على بابكم (١٦) وأخذهم لسفنهم الواردة لجنابكم ولعمرى انا لندرى أن العتاب بين الأخِلاّء عنوان المودّة الخالصة والصَفَاء وزائد محض المودّة الصادقة والوَفَاء غير انه يجب عند اقتراف الجرائم وانتهاك المحارم فانا نحن لم نقصد (١٧) الى انتهاك ذلك سبيلاً ولا نجد لك على الزام فِعل ذلك دليلاً إذ كنا لم نجهّز مراكبنا ونتخذ مخلِبنا (١٨) ليسارة رعيتك (١٩) **ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيّتك** ولكن جهّزنا الجيوش والعساكر وأعدَدْنا اللهازم والبواتر لتدمير عَبدَة الأوثان (٢٠) وأعداء الملك الدَيّان تعرضاً منا لرِضاء رب العالمين واحياء لسنّةنبيه الأمين ورَغبة فى ادراك أجر الصابرين المجاهدين وحاشا لمثلك ان يَغْضَب لقتال عبدة الأصنام وأعداء الله والاسلام • ألستَ من سلالة على بن أبى طالب الساقى للمشركين وبىّ المشارب وأنت تدرى بما

جرى بيننا وإياهم من قبل فى سواحل عمان وفى سائر الأماكن والبلدان من سَفْك الدِماء وكثرة الصيال وتناهب الأملاك والأموال • وانا لنأخذهم فى كل موضع تحلّ به مراكبهم وتغشاه حتّى من كُنج وجِيرُون [٢١] بَنْدَرَى الشـــاه ولم يُظهر لنا من أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً وإن كنت فى شكّ من ذلك فاسئل به خبيراً أو لا نُذكرُك أيّها الملك ، والذكرى تنفع المؤمنين [٢٢] • وانا لك من المُنْذِرين وعليك من المحذّرين [٢٣] ، انا لمـــا ملِكنا تلك الايام بلدة ظَفار • وهى عنا نازحـــة الفيافى والقِفار لم نَرَ فى ملكها صلاحاً لشىء أوْجبَه منا النظر وحاكتْه الأذهان والفِكَر ، فتركناها لا من خـــوف قوة قاهرة ولا كلمة علينا ظاهرة [٢٤] ولا يد غالبة ولاكفّ سالبة ، وحين ما خرج عنها عاملنا خَلَف خلّف بها شيئاً مـــن مدافع المسلمين لِغفْلة [٢٥] جَرَتْ عن حملها فى ذلك الحين ولمّـــا ملكتم أنتم زمام عِيسها [٢٦] واجتليتم ضـــوء بدرها وشمسها لم تدفعوا لنا تلك المدافع كان لم يكن وراءها ذائد ولا دافع ، فاعلم أيها الملك ان البعل غيور والليث هَصور والحرّ على غير الاهانة صَبور ، ومن أنذر فقد أعـــذر وما غدر من حذّر • على ان فى اصطلاح ذات بيننا وبينكم راغبون طالبون وفى استِبقاء صُحْبتك راغبون ولاطفاء الفتن واخماد المحن [٢٧] بيننا واياك مؤثرون ، فان كنت راغباً فى الذى فيه رغبنا وطالباً لمـــا له طلبنا فادفع لنا اياها [٢٨] • ولاتحتس بسُرعة الاعتداء خميّاها ، وان ابيت الا المَيل الى اغتنامها والجزم على خبط ظلامها • ففى الاستعانة بالله [٢٩] على من اعتدى وسعة • ومن كان مع الله كان الله معه [٣٠] • وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام عليك ورحمة الله وبركاته•

وهذا جواب [٣١] ملك صنعاء اليمن : بسم الله الرحمن الرحيم • من شمس سماء الخلافـــة العلية ومضرب سرادقات الشريعة المحمّدية الى قاصية أرض [٣٢] الملك المالك سلطان بن سيف بن مالك اليعربى العربى العمانى أراه الله نهج الهداية [٣٣] وجنبه مـــلك الضلال والغواية •

اما بعد : حمد الله والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى وصيّه

الأترع البَطين [٦٩] الحاصد سيفه رؤس المارقين وقد وصل كتابك الذى شحنته بالابراق والارعاد وعدلت به من تحسين العتاب الى تخشين الخطاب ظنًّا منك ان هذيان وعيدك وطنين ذباب تهديدك يزعزع من باسنا صخرة صمّاء أو يحرّك من وقارنا جبلاً أشمّا فكيف يكون ذلك ٠

وأسيافنا فى كلِ شرْقٍ ومغْرب بهـا من قراع الـدارعين فلـول

أين ذهب حجاؤك حتى طلبت منا المدافع بهذه الأراجيف والبقاقع [٧١]
وإنّما تُقطع أعناق الرجال المطامع

أما علمت ان الليث اذا هيج على فريسة كان أشد اقداماً وأعظم جرأة واعتزاماً ، لاجرم انها لمـا نأتْ بنا وبك الديار وحالت دوننا ودونك الأمصار فاسترسلت لفظك فجاوزت فى سوء المقدار حدك وانفردت بأرضك فطلبت الطعن والنزال وحدك ٠

ياسلكاً بين الصوارم والقنا إنى أشُمّ عليك رائحة الدم

فاقطع عرى آمالك عن هذه المدافع فهى أول غنيمة ان شاء الله من قطرك الشاسع وقد دعوتنا على النزول على حكم الظباء [١] والاسـل

فالْبَثْ قليلاً تلْحق الهيجا جمل

ونحن من القوم الذين سقوا قومك يـوم النَهْروَان [٧٢] كؤوس الحتوف وأنتم أتباع من سقى فما بدأ به اوائلنا فى سلفكم ختمنا به من بقى والسلام انتهى جوابه وبكل اسف انا لم نقف على جواب الامام لهذا الكلام وما أظنه الا كما قال الشاعر :

وهل تغنى الرسائل فى عدو اذا ما لم يكن ضباً رقاقا

---

(١) فى نسخة الظباء ولعل الصواب الظباة .

وأئمتنا بحمد الله تعالى ممن ذكرهم الله فى كتابه بقوله « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً — الى قوله تعالى — والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما » فهم الأئمة الفعالة وغيرهم الأئمة القوالة وكان هذا الرجل زَيدى المذهب وكأنه يثبت الوصاية لعلى وما افتخاره بقتل أهل النهروان إلا كافتخار اليهود بقتل عيسى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكذلك من قتل فى سبيل الله « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » ودلائل الحال تقتضى أن بينهما وقوع وقائع ولكن لم نطلع على ذكر شىء من ذلك • وتمكن هذا الامام من اليمن والهند وغيرهما •

وقتلوا من اصحابه فوق عشرين نفسا وفيهما رفع الامام الاداب عن افل الدبة
بعد ان مات بعضهم من الجوع واسلم البعض ٥ وفي وسط خريفها درت شايب ابحه
وعمت وحدت الحيوة العباد والبلاد والحمد لله وفيها غزت دهمه الى حدود برا قش
بالجوف فانتهبت طرفا من الهاوي رعاوي في هذه الايام عرض الامام على ولد
اخيه القاسم ابن احمد ابن الامام الدخول في ولاية البلاد التي بحت بيد صنو محمد
ابن احمد فاباها احتشاما لجانب اخيه فعظم بذلك عنده وعند الناس وفي ربيع
الاول وصل الى الامام مكتوب من ملك عمان سلطان ابن سيف ولفظه ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من امام المسلمين سلطان ابن سيف راس العرب اليعربي الى عالي ذروه جناب المعظم
الهمام المكرم اسماعيل ابن القاسم القرشي العربي ٥ اما بعد فالحمد لله على سوابغ
الآيه وجميل صنعه وبلايه ونستزيده الى سلوك سبيل رضاه ونستمديه من
خزاين مواهبه وعطاه اما بعد مفاتيح كل خير وكفاية كل بوس وضير وان سالت
ايها المجد عناء ورمت كنه كيفيته المحال مناه فالحمد لله في حال يسر به الوفود
ويساله الجنود ثم لتعلم ايها الملك المبجل والسيد المجلل انه قد وصل الينا في مدة اياما
قد تصرمت وشهور قد تخرمت رجل من جنابكم يزعم انكم ارسلتم يديه طرفا وتحفا
بها درة من رايق لفظكم وخطابكم غير انه يقول ان المركب الذي اقبل فيه غابر
الانكسار فغرق في اليم فادرك الدروس المسطر حكم التلف ثم بيد انه قد تفانا
الينا من نتايج لسانه واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه انكم علينا عاتبون ومنا
واجدون لاجل قطع خدامنا في العام الماضي للمشركين على بابكم ولعدم
تسفنهم القاصدة الى جنابكم ولعمري انا نذهب ان العتاب بين الاخلاء عنوان المودة
الخالصة والصفاء ودليل محض المحبة الصادقة والوفاء غير انه يجب عن افن الجرايم
وانتهاك المحارم فاما الخرق فلم نسلك الى ارتكاب ذلك سبيلا ولا نجد لك على الزلتنا
فعل ذلك دليلا اذ كنا لاخترام اكنا وخشد مخالبنا لسيارة ربعتك ولا

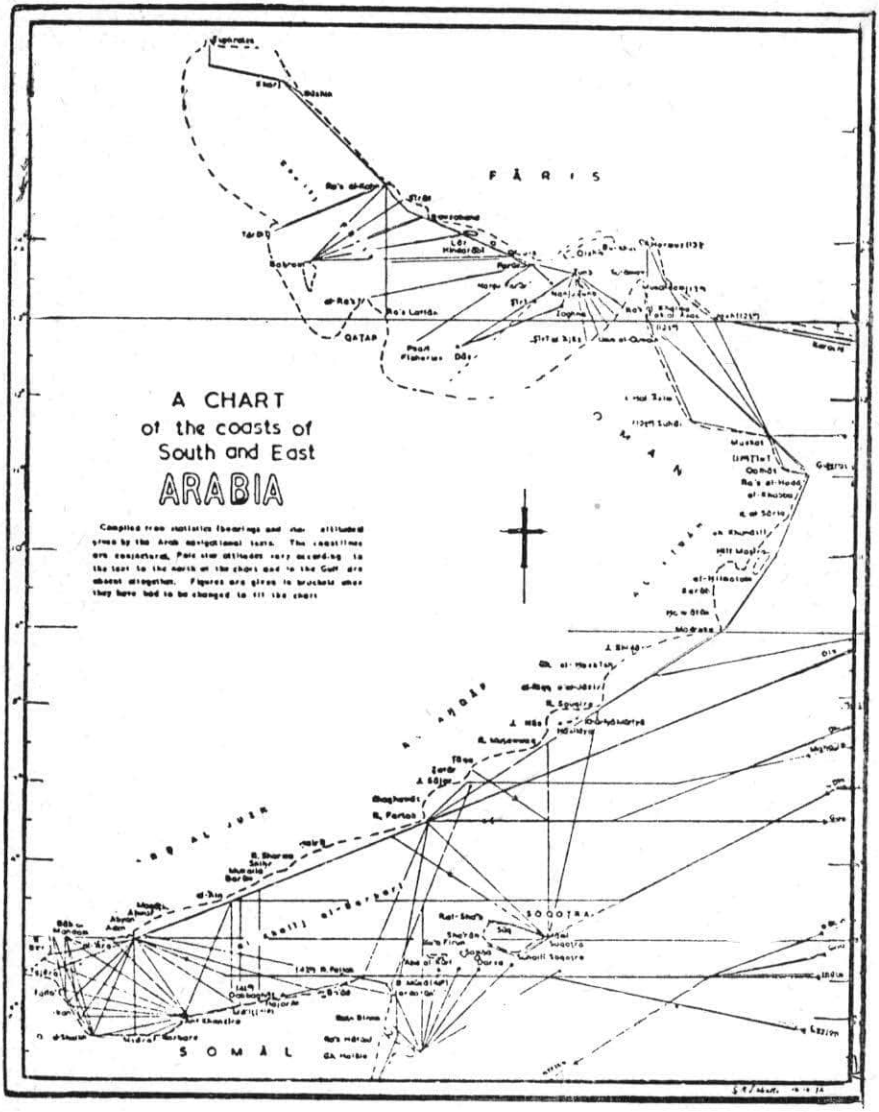
لاستباحة اهل حكمك وقضيتك لكن جمعنا الجيوش والعساكر واعددنا للملاقاة
والبوائر لتدبير عبدة الاوثان واعداء الملك الديان تعرضا لمثال رضاء رب
العالمين واحياء لسنة نبيه الامين ورغبة في ادراك فضل الصابرين المجاهدين
وحاشا لملكك ان يغضب لقتال عبدة الاصنام واعداء الله والاسلام التاركين
سلالة ابي طالب الثاني للشركين وفي المشارب وانت تدري بما جرا بيننا
وبينهم من قبل في سواحل عمان وفي سائر الاماكن والبلدان من سفك الدما
وكثرة القتال وتناهب الاملاك والاموال واما فاخذهم في كل موضع حل به
مراكبهم ونفشاه حتى من كيخ وجرون بندري الشاه ولم يظفر الينا من اجل ذلك
غنما ولا بكيرا فان كنت في شك من ذلك فاسال بهرجيتيا الا واتا نذكرك
ايها الملك والذكرى تنفع المؤمنين واتا لك من المنذرين وعليك من الجاهلين
انا لما ملكنا لك الايام بلد ظفار وهي عنا نازحة القفار والقفار لم نر
في تملكها صلاحا الشيء اوجبه منا النظر وحاكمه الاذهان والفكر فتركناها
لا من خوف قوة قاهرة ولا لكلمة علينا ظاهرة ولا يد غالبة ولا كفة سالبة
وشاعة ما خرج منها عامل اخلف بها شيئا من منافع المسلمين لغفلة منه جرت
عن حملها في ذلك الحين ولما ملكتم انتم زمام عنها واجلبتم ضبعا بن رماها وشمها
لم تدفعوا الينا تلك المدافع كان لكم من ورائها ذاب ولا دافع فاعلم ايها الملك
ان البعل غيور والليث هصور والمرء على غير الاهانة صبور ومن انذر فقد اعذر
وما عذر من حذر على انا لا صلاح ذات البين بيننا وبينكم طالبون وفي
استبقاء صحبتك راغبون ولاطفاء الفتن واخماد الاحن بيننا وبينك مثابرون
فان كنت راغبا في الذي فيه رغبنا وطالبا لما له طلبنا فادفع لك الخير لنا
اياها ولا تحتم بسرعة الاعداء حتياها وان ابيت الا الميل لاغتنامها والحرص
على خبط ظلامها في الاسعاد بالله من اعتدى فسعده وسعده ومن كان مع الله
كان الله معه والسلام عليك ورحمة الله انتهى المكتوب بحروفه وفيه من

ديباجة الالفاظ وغير كلمات الآنفة والشهور ما يقضي بان عامله المسمى بخلف انما
نقب عن طغار لرغبة مخدومه وقد سلمت صفه اخراجه عنه شيء من هذا وهذه
صناعة تخول الملوك على يدي اكابر الدولة وبلغائها فان من البيان لسحرا
والا فان خلفا الرجع من طغار الا بما دهمه من جيش السلطان الكبير ولو كان
خروجه رغبة لما رغب عن المدفعين وهو امس ما يكون اليهما وكيف لا وهما
اية الايتاء على دولته ورياسته واعظم ما يجمل به عند الوفود على مخدومه الغراء

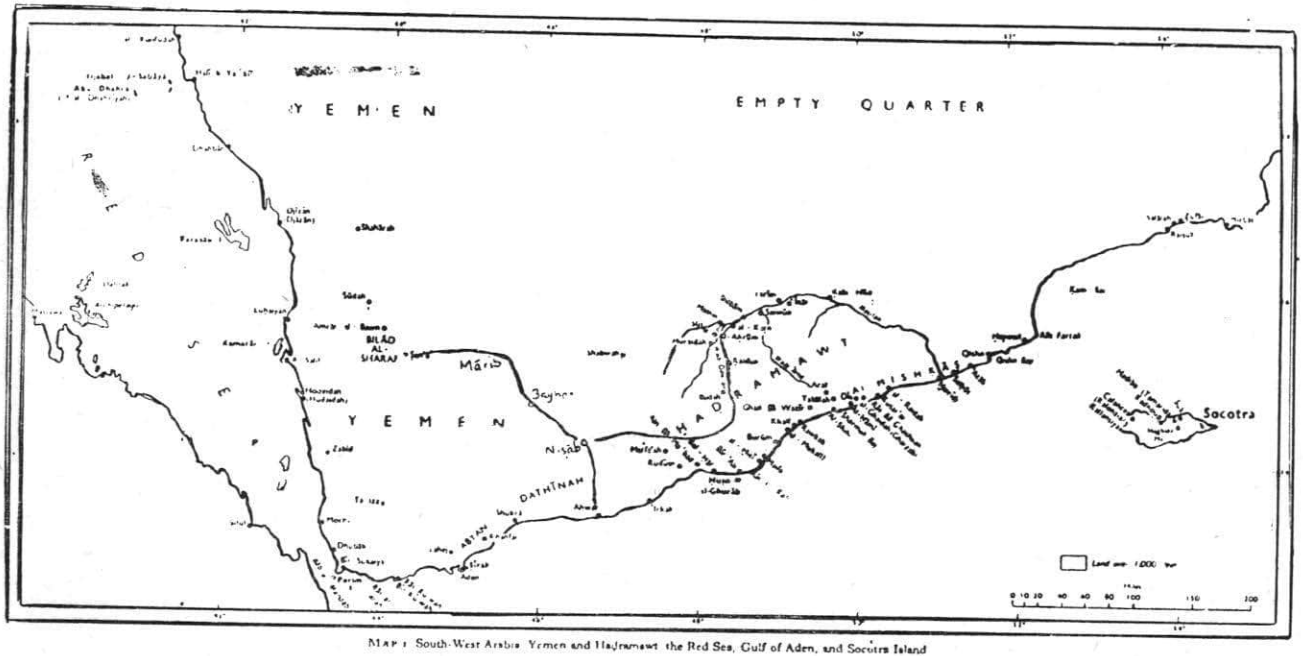
ويتنجب المهول كل تجلة ٥ ولا بد للمغلوب ان يتعللا

والامام امر باطلاق المدفعين وتول الجواب من لا يحسن الدخول في هذا الباب
ولا مثر ما حافظ الملوك على تشييد مناصب كتاب الانشا كالصاحب والصابي
والقاضي الفاضل وغيرهم ممن يكون ترجمة في دست الكتابة بضعف المملكة او ثلثيها
واجح بملك يطبق الدنيا ملكه ولا يجد اذا نابه ما يعوا الى الكتابة غير الاقدام
وفي نصف وتسع الثاني غزت دهمه من برط ومعهم بتوريون الى حدود معين
من بلاد الجزر فانتهبوا فيها وقد موا الى صافيه الصفي احمد فارسل ولده الحسين
ابن احمد في جماعة الى معين فلم يصادف اولئك الغازين وكانوا قد اثروا تتبعوا اثر
وصوله وتعقب ذلك مسير جماعة من برط الى اطراف المراعي ومعهم الداعي السيد
محمد ابن علي الغرباني وطلبوا الواجبات من اهلها وكانت قطعة القاضي علي ابن محمد
العنسي ومن اليه فمنعوا عنها فاقتتلوا وذهب واحد من اصل القرير فحمل عليهم اهل
القرير وحملوا على جماعة منهم ثم رجع السيد الداعي الى المراعي وفي
هذه السنة صالح الشريف حمود سعد ابن زيد ملك مكة ولم يدخل مكة حتى من
غيلة الاتراك وامر فكر من الحجاز في اسبع سكان وجال في بلادهن تلك الوهاد
بمن معه من الفرسان وكان قد ترك التهوم لاطراف القنا غنان فرسه الى غنان
كل غنا وما استفاد من نجد تر غير فرع النجود والعدول عن سكنه الى مساكنه
السودان والاسود مصاحبا لفرضابه مسندا لاترابه واحبابه ٥





SEA ROUTES ALONG SOUTH ARABIAN COAST

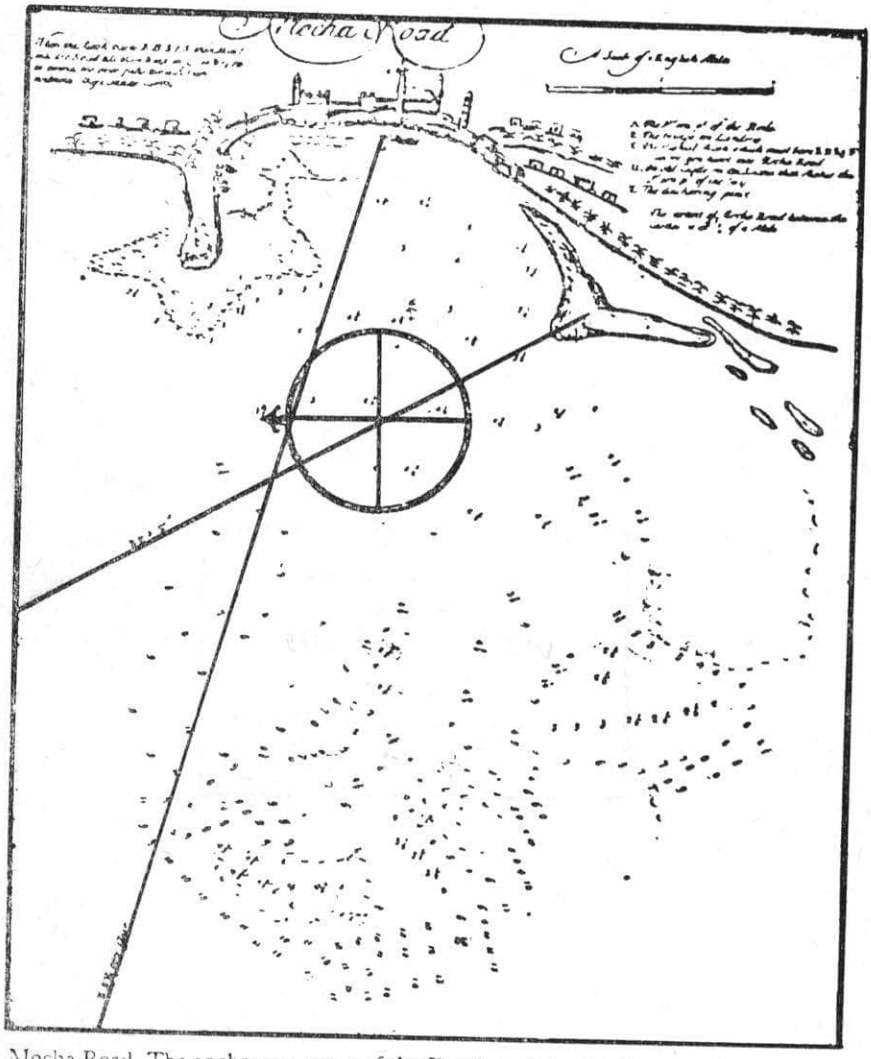


MAP 1 South-West Arabia: Yemen and Hadramawt, the Red Sea, Gulf of Aden, and Socotra Island

SAFIYY AL ISLAM'S PROBABLE ROUTE TO WÁDÍ HADRAMAWT



MAP 2. The littoral of the Indian Ocean



Mocha Road The anchorage, scene of the Dutch exploits, lies between the castles on the two spits which form the horns of the bay

(From H Cornwall, *Observations on Voyages to India*, 1720)


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٠٠٧
الرقم الخاص : ٨٠.

خزينة المسكوكات بسناو
من العهد الإسلامي الأول

مستر . ان . لوبيك

The Sinaw Hoard of Early Islamic Coins

Mr. N. Lowick

فى سبتمبر عام ١٩٧٩ عثر على آنية تحتوى على ٩٦٢ قطعة من العملات الفضية وأجزاء من عملات أخرى أثناء أعمال البناء على شاطىء جدول مائى فى سيح التهشيت «Sayh al - Tahshit» على بعد كيلو متر واحد غربى قرية « سناو «Sinaw» داخل عمان • والواضح أن الآنية ، وهى من الرصاص الأخضر المبطن بالزجاج من نوع يشاع أنه « ساسانى — إسلامى » • وقد أخفيت فى حفرة من الحصباء المتماسكة قليلاً وتربتها التحتية من الرمل • ويبلغ قطر الآنية من ٧٥ إلى ٨٠ سم وعمقها حوالى ٣٠ سم ويحيط بقاعها العديد من الصخور النهرية •

وقد تحطمت الآنية أثناء العثور عليها • وليس من المؤكد تماما كم عدد القطع النقدية التى كانت تحتوى عليها فى الأصل • وأخطرت وزارة الآثار بوجود ٤٣٤ قطعة وسلمت إلى دكتور ب • ر كوستا ٣٧٠ قطعة أخرى أثناء زيارته لتفقد موقع الاكتشاف • وعندما أعيدت جميع القطع النقدية إلى الإناء أصبح واضحا أن العدد الذى عثر عليه لا يمكن أن يكون أكثر من مجموع القطع التى تم تسليمها لأن الآنية لا يمكن أن تستوعب أكثر من ذلك •

ولقد أمكن التعرف على عدد القطع النقدية على أنها قطع ساسانية وإسلامية قديمة ورفع تقرير إلى وزير التراث القومى والثقافة وتقرر عندئذ إعارة الكنز إلى المتحف البريطانى لمدة ستة أشهر للتنظيف والدراسة •

كان كثير من القطع النقدية مغلفة بطبقة قشرية وملتصقة ببعضها البعض • ويبدو أنها وضعت فى الآنية فى أكوام أو رزم ، ونتيجة لذلك كانت القطع حول الحافة أكثر التصاقا ببعضها من تلك التى فى الوسط • وقد وصلت جميع القطع • وكان هناك ٢٥٨ قطعة لم تكن واضحة المعالم فى الأصل ثم نظفت بحامض النمليك لإزالة الكلوريدات • ونتيجة

لذلك أصبح فى الإمكان تحديد العهد الذى ترجـــع إليه القطع والتعرف على معظمها بدقة •

وتضم مجموعة الـــ ٩٤٨ قطعة الحالية عددا كبيرا من القطع غـــير الكاملة والمتآكلة ، وهناك عدد صغير من القطع قد جمعت كل منها جزئين وإلى جانب ذلك كانت هناك قطع كثيرة متآكلة للغاية وأظهر فحصها الحواف المكسورة وأن هناك كياناً داخليا تحول فى أغلب الحالات إلى شكل بللورى مما يجعل العملة هشـــة جداً • وقد فقدت بعض القطع الكاملة « رنينها » — وهذا دليل على أنها كانت تالفة من الداخل • فقد لوحظ فى بعض القطع أن الكســـور فيها قديمـــة • ولذلك كان من الواضح أن التآكل بفعـــل الصدأ هو سبب وجـــود الكثير من القطع غير كاملة حيث أن الكثير منها قد تكسر إما أثنـــاء عملية كنزها أو بعـــد اكتشافها واستخراجها من الآنيـــة التى تكسرت وقد تكسر عدد صغير من القطع أثناء تنظيفها ولم تدفن ســـوى حفنة من القطع كأجزاء صغيرة • وهـــذه يمكن تحديدها من حوافها المقطوعة (وسنتناول ذلك فيما بعد) •

وفيما يلى تصنيف للمخزون حسب الأسر المالكة وغيرها :

الساسانية	٦	هرمز الرابع — كسرى الثانى	٥٨٩ — ٦٢٣ م
الساسانية العربية	٢	٤٨ هـ (؟)	٦٦١ — ٦٧٩ م
العصر الأموى	٣٢٩	٩٧ — ١٣١ هـ	٦٩٨ — ٧٤٣ م
العصر الأموى الأندلسى	١	١٥٤ هـ	٧٧٠ م
العصر العباسى	٥٩٧	١٣٢ — ٢٢٦ هـ	٧٥٠ — ٨٤١ م
الإدريسية	٥	١٧٤ — ٢١٦ هـ	٧٩٠ — ٨٣١ م
السليمانية	١	٢٢٢ هـ	٨٣٦ م
خلف	٣	(١٧٥) — ١٧٦ هـ	٦ — (٧٩١) م
تقليـــد	٢	« ٩٣ » ٢١٧ هـ	

وآخر قطعة يمكن تحديد تاريخها هى درهم عباسى من عصر الخليفة المعتصم يرجع تاريخه إلى عام ٢٢٦ هـ أو ٨٤٠ — ٨٤١ م • وهكذا يمكن الافتراض بأن هذه القطع قد دفنها أو تركها صاحبها فى هذا العام أو بعده مباشرة • ولكن ينبغى القول أنه لم تكن هناك سوى قطعة فقط ترجع إلى عام ٢٢٦ للهجرة وقطعة واحدة فقط للعام الذى سبقه ، وبهذا يكون التاريخ الدقيق لهذا المستودع غير واضح المعالم ، كما كان ينبغى أن يكون لو أن هناك قطعاً كثيرة من العام الأخير يحتويها هذا المستودع •

وهذه المجموعة الأولى من عصرها يعلن عنها فى عمان وواحدة من أوليات نوعها التى تظهر فى أى مكان فى شبه الجزيرة العربية • وهناك كثير من كنوز القرن التاسع الإسلامى معروفة لكن أغلبها اكتشفت فى روسيا واسكندنافيا وأجزاء من أوروبا الشرقية وهى تشهد على وجود تجارة مزدهرة بين العالم الإسلامى والسويديين والصقالية والخازاريين «Khazars» وشعوب أخرى تعيش فيما وراء المشارف الشمالية للخلافة — وهى تجارة ساهم فيها الإسلام وخاصة الفضة فى حين قدم أهل الشمال العبيد والفراء والمواد الخام المختلفة التى تلقى طلبا فى الشرق الأوسط •

وأقرب كنز من الناحية التاريخية لكنز « سناو » هو ذلك الذى اكتشف فى عام ١٩٦٦ فى « دوبرنيو » فى روسيا البيضاء • وقد تم حصر هذا الكنز فى عام ٢٢٧ هـ = ٨٤١ م أو بعده وهو يحتوى على ٥٢٧ قطعة نقود : ٥٠٣ منها من العصر العباسى • وهناك كنز آخر من « كوتشيل » فى استونيا مدفون تحت الأرض منذ عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ — ٨٣٨ م وهو يحتوى على ٤٧٠ قطعةنقود : منها ٤٠٧ قطعة من العصر العباسى • ويصبح هذا الكنز أساساً للمقارنة مع كنز « سناو » وإن كانت هذه العملات قد دفنت وراء تخوم دار الإسلام إلا أن الظروف التى جمعت فى ظلها ووضعها كعملة فى العهد الذى دفنت فيه قد تكون ظروفا متباينة للغاية •

وليس فى أرض الخلافة إلا القليل من كنوز القطع النقدية الإسلامية القديمة ، وذلك لأن العرف العادى الذى كان سائداً فى الشرق الأوسط إلى وقت قريب أن يتم صهر القطع النقدية القديمة وتحويلها إلى مجوهرات • وجدير بالذكر أنه عثر على كنز قوامه أكثر من ٩ آلاف قطعة فضية من عصور الساسانيين والأمويين والعباسيين وغيرهم — وقد اكتشفت أثناء الحفريات التى أجراها كولد واى فى بابل عام ١٩٠٠ م لكن حتى الآن لم ينشر عنه شىء إلا سوى ما أعلن عن الجزء الساسانى من الكنز •

وقد لقى كنز « زاخو » فى شمال العراق والكنز المرينزباى الذى عثر عليه فى جنوب شرق تركيا نفس المعالجة الجزئية •

ولقد اكتشفت إلى جانب ذلك كنوز أخرى يرجع تاريخها إلى العصر العباسى القديم ومازالت بحاجة إلى الإعلان عنها • وثمة استثناء جدير بالذكر وهو كنز من النقود التى تعود إلى عصور ساسانية وعربية — ساسانية وأموية وعباسية وعملات أخرى من أم الحجارة فى سوريا ، وهذا الكنز أذاع اكتشافه الدكتور م • أبو الفرج العش عام ١٩٧٢ • ويرجع تاريخ هذا الكنز إلى عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ — ٨٠٩ م وبذلك يكون أقدم من كنز « سناو » بثلاثين عاما • وهناك كنوز عديدة ومجموعات من القطع النقدية قد أذيع اكتشافها أخيرا ويرجع تاريخها إلى حوالى نفس الفترة أى فى عهد الرشيد والأمين والسنوات الأولى للمأمون من خلافته وحده • ولكن لم يعثر حتى الآن على كنز من عصر المعتصم فى أى بلد من بلدان الشرق الأوسط •

وقد عرفنا منذ زمن طويل من دراسة الكنوز الأوروبية لقطع النقود الإسلامية أن الدرهم العربى كان تداوله واسع النطاق بفضل احتوائه على نسبة عالية من الفضة ، وقد أدت إلى ذلك الأحوال الاقتصادية المستقرة التى تحققت بفضل توحيد مناطق شاسعة من الشرق الأوسط تحت سلطان الخلفاء الأمويين وخلفاء العباسيين ، وكانت التجارة نشطة وسريعة فى

جميع أنحاء الإمبراطورية الإسلامية • وترتب على ذلك أن الكنوز التى كانت مدفونة فى سوريا والعراق وإيران كانت تحتوى على قطع نقدية تم سكها فى مناطق بعيدة مثل مراكش وأسبانيا المسلمة (الأندلس) •

ولم يكن تداول القطع النقدية من الفضة والذهب محدوداً بالحدود الإقليمية أو حدود الدولة كما أصبح فيما بعد ؛ ولكن نظراً للتشابه بينها من حيث الوزن ودقة الصنع قد ساعد ذلك على انتشار تداولها بغض النظر عن المكان الذى سكت فيه فى العالم الإسلامى ومن هنا كان وجـود عملات هـذا الكنز من القطع النقدية التى سكها الأمويون فى أسبانيا والإدريسيون والحاكم الخارج المستقل فى المغرب ، والسليمانيون فى تلمسان والعباسيون فى أفريقيا (القيروان) والعباسيون فى تونس •

إن أغلبية الكنوز المعاصرة بما فيها عدد مدفون فى أوروبا ، تحتوى على كمية كبيرة من تلك الدراهم المغربية •• ومن الواضح أن هـذه الكنوز انتقلت على طول طرق القوافل الشرقية إلى العراق وإيران قبل تصديرها إلى الشمال ، وان تحرك الفضة وانتقالها كانت مقررة إلى حد الاحتياجات الاقتصادية ، ففى حكم المهدى مثلا كان هناك هبوط ملحوظ فى نشـاط سك النقود فى الأجزاء الوسطى والشرقية من بـلاد الخلافة ، وأصبحت المناطق الخاضعة للخلافة العباسية فى شمال أفريقيا من ناحية أخـرى غنية وناقست بغداد نفسها فى الإنتاج ، وانخفض إنتاج الدرهم فى أوائل حكم الرشيد إلى حد كبير فى الشرق بينما نشط جـداً سك « العملة » المراكشية وكانت تسك نقوداً فضية أكثر من بغداد •

سـك النقـود :

فيما يلى قائمة مفصلة بالإقليم لـ ٥٨ مجموعة من القطع النقـدية حسب ما يحتويه الكنز • وصنفت كل مجموعة من القطع النقدية حسب أهميتها بالنسبة لعددها فى الكنز •

أسبانيا	الأموية	العباسية	دول آخرى	المجموع
الأندلس	٣	—	١	٤
شرق أفريقيا ومصر				
العباسية	٠٠	٣٠		٣٠
أفريقيا	٣	١١		١٤
مصر		٨		٨
تودغة			٥	٥
المباركة		١		١
العلية			١	١
دليلا			١	١
سوريا والعراق وعبر القوقاز				
مدينة السلام		١٩١		١٩١
واسط	١٧٧			١٧٧
دمشق	٤١	٤		٤٥
البصرة	١٣	٢٨		٤١
الكوفة		١٨		١٨
أرمينية	٣	٢		٥
الجزيرة	٤			٤
تشيسيفون			٢	٢
حاران	١			١
السامية	١			١
مايسان	١			١
آران		١		١
معدن باجونايز		١		١

أسبانيا	الأموية	العباسية	دول أخرى	المجموع
قصر السلام		١		١
الرفيقة		١		١

الجزيرة العربيـــة				
اليمامـــه		١		١
إيـــران	الأموية	العباسية	دول أخرى	المجموع
المحمـــدية		٥٩		٥٩
زرانـــج		٢٤		٢٤
بـــاخ	١	٢٠		٢١
مـــرو	٩	١٢		٢١
أصفهـــان		١٨		١٨
نيســـابور		١٠		١٠
هـــارات		٩		٩
الـــرى	٣	٥		٨
دارعيجرد	٥		٢	٧
كرمـــان	٤	٣		٧
إصطخـــر	٧			٧
تابـــور	٧			٧
جـــاى	٤	٢		٦
مـــاهى	٥			٥
ســـوق الأهواز	٤			٤
حمـــدان			٣	٣
أردشيرخـــور	٢			٢
مـــار البصرة	٢			٢
إيـــران	الأموية	العباسية	دول أخرى	المجموع
اللســـوس	٢			٢
جند نســـابور	٢			٢
أبراشهـــر	١			١
نهـــر تـــرا	١			١
التيمـــره	١			١

سيجبستان	١	١
ســوراق	١	١
فــارس	١	١
جــورجــان	١	١
تاباريستان	١	١
ترانس أوكسيانا (ماوراء النهر)		
سمــرقند	٥٦	٥٦
بعــدن الشاسن	٦	٦
الشــاش	٤	٤
بخــــارى	٣	٣

كانت مدينة الســلام أو بغداد تعتبر أهم مركز لســك النقــود ، كمــا دل على ذلك معظم الكنوز التى اكتشفت إبان العصر العباسى • وبلغ عــدد القطع التى عثر عليها فى بغداد (١٩١ قطعة) وليس ثمــة شــك فى أن أكثر دور سك النقــود ازدهارا فى ذلك العصر كانت فى بغداد وإن كانت تنتج عدداً قليلا نسبيا من القطع النقدية إذا قورنت بــدول أخــرى • وتأتى فى المرتبــة الثانية بعد دار النقــود فى مدينــة بغداد ، « واســـط » « Wasit » التى كانت تعتبر دار سك النقود الرئيسية فى العصر الأمــوى • وبلغ مجموع ما عثر عليه من انتاجها ١٧٧ قطعــة • وثمــة مدينتان أخريان أسهمت كل واحدة منها بأكثر من ٥٠ قطعة فى الكنز وهما ــ المحمدية أو « الرى » عاصمة ولاية « جبال » الإيرانيــة « Jibal » (٦٧ قطعة) وسمرقند فى ترانسوكسانيا أو ما وراء النهر (٥٦ قطعة) • كانت دار ســك النقــود فى « الرى » أهم دار لســك النقــود فى إيران منذ حكم المنصور فصاعداً ، وتشهد بذلك عدد القطع الباقية ، وكانت تأتى فى المرتبــة الثانية بعد بغداد فقط فى الخلافــة العباسية ككل •

إن أهمية سمرقند ، وما يؤيدها من دور سك للنقود فى ترانسوكسيانا وخراسان تستحق عناية أكثر • لقد افتتحت دار سك النقـــود فى سمرقند فى أواخر حكم الرشيد ، وأصبحت أكبر دور ســـك النقـــود نشاطا فى عهد المأمون • والتى كانت تزوده بالقطع النقدية أثناء ولايته فى الشرق وحربه مع أخيه الأمين • وظل انتاجها كبيراً تحت حكم المعتصم وخلفائه وأصبحت فيما بعد واحـــدة من اثنتين من أهم دور سك النقود فى ظل الأسرة السامانية « Samanid » • وهناك فى الكنز عدد لا يقل عن ٥٤ قطعة من سمرقند يرجع تاريخها إلى ما بين ١٩٣ و ٢٢٦ للهجرة مقابل ٣٤ قطعة فقط من مدينـــة الســـلام • إن هذا الاختلال غير واضح فى كنوز أخرى من تلك التى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع ، مع أنه يبدو أن مدينة الســـلام أصبحت أقل نشاطاً فى ظل حكم المأمون • فمثلا يحتوى كنز دوبرينو (Dobrino) على٣٩ قطعة من مدينة السلام سكت فيما بين عام ١٩٣ و ٢٢٧ مقابل ٣٤ قطعة فى سمرقند • ومن بين القطع السينوية التى يرجع تاريخها إلى حكم الأمين والمأمون والمعتصم ، ١٠٦ قطعة سكت فى دور لسك النقود فى خراسان وترانسوكسيانا (ابرشهر أو نيسابور مرو ، وهرات ، وزاران ، وبلخ ، وسمرقند وبخارى ، والشاش ، ومعـــدن الشـــاش) • وفى حين أن هناك ٧٤ قطعة من دور ســـك أخرى • ولعلنا ينبغى أن ننتهى إلى أن حجم القطع التى أضيفت فيما بعد إلى الكنز قد استوردت إلى عمان من شرق إيران ، وإن كان وجود ليس أقل من ثمانى قطع من مصر (أى الفسطاط أو القاهرة القديمة) ، التى يرجع تاريخها إلى نفس الفترة ، قد تدل على أن بعض القطع النقدية قد انتقلت مباشرة من الغرب •

إن وجـــود قطعة واحدة من سك عربى (اليمامة ، عام ١٦٨ للهجرة) ليس من الضرورى أن يتسبب فى إثارة دهشة • لقد كانت هناك فى إبان العصر العباسى دار واحـــدة لســـك النقود فى شبه جزيرة العرب التى كانت تســـك النقـــود على أســـاس منتظم ـــ وهذه الدار كانت فى مدينة

صنعاء عاصمة ولاية اليمن • وثمة داران آخريان لسك النقود تخصصتا فى سك النقود الفضية — وذلك فى اليمامة عاصمة المنطقة الادارية فى شرق شبه الجزيرة العربية (قطع نقدية يرجع تاريخها الى عام ١٦٥ — ١٦٩) ومكة (٢٠١ قطعة من نوع واحد) • اما النحاس فكان قد ثبت وجود قطع منه فى البحرين •

وهناك مجموعات بين قطع متلألئة من دور لسك النقود فى اسبانيا وشمال أفريقيا ومصرمع مجموعة قوامها (٣٠قطعة) من الدولة العباسية تحتل رأس القائمة وهذا يشهد على المستوى الرفيع للكنوز العباسية الأولى •

كرونولوجيا :

إن توزيع قطع النقود التى تظهر عليها تواريخ واضحة تتضح فى رسم بيانى فى نهاية هذ البحث مع إدخال التواريخ الهجرية فى محور أفقى وعدد عينات كل سنة على محور رأسى • أن السلسلة الواسعة للتواريخ التى تمتد على مدى ١٤٨ عاما (دون إحصاء القطع الساسانية الثمانى والقطع العربية — الساسانية) من عهد قيام عبد الملك بإصلاح النقد فى عام ٧٩ للهجرة حتى السنة قبل الأخيرة من حكم المعتصم متميزة تماماً ، فالتوزيع واضح للقطع النقدية على مدى هذه الفترة •

ويلاحظ أن هناك قطعاً قليلة يعود تاريخها إلى العقد الأخير من حكم المأمون وحكم المعتصم ، ومن ناحية أخرى هناك عدد كبير من القطع الأموية والعباسية التى يعود تاريخها إلى ١٥٠ — ١٥٨ هـ / ٧٦٧ — ٧٧٤م و ١٨٠ — ٢٠٦هـ (٧٩٦ — ٨٢١) ولقد استلفت نظر العلامة السويدى سيتور بولين « Sture Bolin » الانتباه إلى حقيقة أن معظم كنوز القرن التاسع من القطع الإسلامية من أوروبا ونسبة القطع النقدية التى يعود تاريخها إلى نفس العصر ثابتة • إن الجداول البيانية المتعرجة لتوزيع القطع التى جمعت من هذه الكنوز تعكس ذرى وانخفاضات فى

نفس الأماكن ، وأن الكنوز التى دفنت فى تواريخ مختلفة تعكس رسومات بيانية مماثلة • ويتضح من هذه الظاهرة أن الكنوز تعتبر دليلا على مدى نشاط سك النقود فى أزمنة مختلفة بغض النظر عن متى وأين أودعت أو دفنت ، إن جميع الكنوز فى الغالب التى دفنت قبل القرن التاسع عشر تتضمن قطعاً نقدية يرجع تاريخها إلى الجزء الثانى من حكم المنصور ومن عهدى الرشيد والمأمون • ولذلك فإن من الواضح أن هذه تمثل عصور الذروة فى الإنتاج فى عهد الخلافة ككل • ومن ناحية أخرى ليس هناك كنز يحتوى قطعاً كثيرة من عصر المعتصم ولذلك فإن الذى يمكن استنتاجه من ذلك هو أنه كان هناك هبوط ملحوظ فى إنتاج النقود أثناء حكمه •

إن هذه الاعتبارات تبرز نموذج هذه القطع العباسية فى الكنز • ولكنها لا توضح وجود القطع الأموية التى يبلغ عددها ٣٣٦ قطعة — أى ثلث الكمية كلها • ويلاحظ أن هناك قطعاً أكثر يعود تاريخها إلى أعوام ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ (١٧ و ٢٠ ، ١٩ قطعة على التوالى) مما عثر عليه فى أى عهد بعد ذلك فى الكنز • وليس ثمة ما يدعو من حيث المبدأ لماذا لم يستمر تداول القطع الأموية فى العصر العباسى • بالرغم من أنها تضاهى الدراهم العباسية من حيث الوزن ودقة الصنع وظهور كتابة اسم الجلالة واسم الرسول الكريم عليها • ولكنها لا تحمل اسم الخليفة الأموى ، بيد أنه يبدو أنها لم تستثن وذلك من وجهة النظر الدينية والسياسية • وبالإضافة إلى ذلك ، هناك كنوز كثيرة أخرى يرجع تاريخها إلى أواخر القرنين الثامن والتاسع تتضمن قطعاً أموية متناثرة التواريخ وكذلك قطعاً نقدية من النوع الساسانى ، والعربى — الساسانى • وفى الوقت نفسه فإنه من غير العادى حقاً أن تزيد نسبة القطع النقدية الأموية فى مثل هذه الكنوز عن ١٠ فى المائة • أما حيث يكون الأمر كذلك ، أى تزيد عن هذه النسبة فإننا قد نشك فى أننا نتعامل مع ما يمكن اعتباره كنزاً (أصليا)،

بمعنى أن القطع النقدية لم تأخذ حقها جميعا من التداول ودفنت فى وقت واحـــد •

وهناك عدد آخـــر من الكنوز الأوروبية التى يتضح أنها تتألف من مجموعتين أو أكثر من مجموعات النقود المتباعدة الأزمان ، ومجموعات أخرى بيد أنها نتيجة لتجميع تدريجى ، تم على مدى فترة طويلة • وهناك علامات عديدة تشجعنا على أن نرجع كنز سناو (Sinaw) إلى فئة أو أخرى من الفئات الأخيرة •

إن مقياس البلى ، وهو فى العادة مفيد ، ليس من السهل تطبيقـــه نظراً للحالة السيئة الخاصـــة بحفظ النقود على أنه يبدو أن القطع الأموية ليست أكثر بلى من القطع العباسية ، وهـــذا دليـــل محتمل على أنها وضعت فى مكانها المألوف قبل التاريخ الذى حدد لحفظها • وإلى جانب ذلك هناك قطعة واحدة يعود تاريخها إلى عام ١٣١ للهجرة ، أى فى السنة قبل الأخيرة للحكم الأموى والسنة الأخيرة التى كان يوجد فيها قطع نقدية أموية • إن غالبية الكنوز التى يرجع تاريخها إلى المـــدة من نهاية العصر الأمـــوى وبداية العصر العباسى تتضمن أكثر من عينة واحـــدة من النقود التى يرجع تاريخها إلى عام ١٣١ للهجرة ، إن الكنز الدمشقى الذى يحتمل أن يكـــون قد دفن فى عام ١٣١ ، يتضمن ٧٢ قطعة تنتمى إلى هذا التاريخ من بين ٢٣٧٧ قطعة أموية •

وفى كنز أم الحجارة « Umm Hajarah » الذى دفن فى عام ١٩٣ للهجرة ويشمل ٤٠٩ قطع منها ١٧ قطعة أموية فقط ، وهناك عينتان يرجع تاريخهما إلى عـــام ١٣١ هـ وقطعة أموية واحـــدة يرجـــع تاريخها إلى عام ١٣٢ هـ • وهناك قطعتان من الاثنتى عشرة قطعة الأموية التى عثر عليها فى كوشتيل يعـــود تاريخها إلى عام ١٣١ ، وقطعة واحـــدة من بين الأربع والعشرين قطعة أموية فى كنز دوبرينو يعـــود تاريخها إلى ذلك

العام • ولذلك فإن من الواضح أن عام ١٣١ كان عاما سُكت فيه نقـود كثيرة • ومن الناحية الإحصائية ، فإن وجـود قطعة نقدية واحـدة تعود إلى هـذا التاريخ فى مجموعـة قوامها ٣٣٦ قطعة أموية ، لا يمكن توضيحه مالم يفترض أن جملة القطع النقدية قد دفنت قبل ذلك التاريخ • وربما فى عام ١٣٠ ، إن العينة الوحيدة المؤرخة عام ١٣١ ، عبارة عن قطعة مثقوبة ولم تكن مدفونة مع القطع الأخرى ولكنها عاشت كقطعة من الحلى حتى العصر العباسى •

وهناك اعتبارات مماثلة نوعاً ما تنطبق على القطع الساسانية فى الكنز • وهناك ست قطع فقط ، ثلاثة منها مشوهة الحـواف وتآكلة حتى حلقاتها الداخلية وثلاثة منها قد سكت فى حمـدان ولا تمت إلى قطع النقود الساسانية بصلة • وهناك احتمال وجـود بقايا بعض المجموعات الأقدم التى وضعت مع مجموعة القطع الأموية أو فى مرحلة قبل ذلك • وربمـا تكون بعد عملية إصلاح النقد فى عهد عبد الملك حينما كانت النقود ذات الطراز الساسانى أو الساسانى ــ العربى ، مازالت متداولة • على أنه يبدو من غير المحتمل أن ست قطع من هذا القبيل متصلة هـذا الاتصال الوثيق ، وقد سحبت من التداول فى عام ٢٢٦ عندما أضيفت القطع الأخيرة إلى الكنز •

إن كنز سناو ، مثل كنز أم الحجارة وغيرها ليس مستودعاً نهائياً وإنمـا يمثل عملية من التجميع التدريجى الذى ليس ثمـة شك أنه أمر عادى فى مجتمع لم تكن فيه مصارف ، أو سندات ادخار أو كمبيالات والذى تجمع فيه النقود كسبائك بغض النظر عن نوع أو وضع العملة •

القطع النقدية المتآكلة والمثقوبة :

إن الأنقاض المتسم بالتزوير فى حجم القطع النقدية بقطعها حافتها على مـدى استدارتها كان شائعاً فى الخلافة ، كما كان شائعاً فى مناطق

أخرى فى العالم قبل العملات النقدية المسكوكة • وذلك بالرغم من العقوبات النظرية الصارمة • وهناك فى كنز سينو ٣٦ قطعة أطرافها مقطوعة بوضوح • منها ثلاث قطع ساسانية و ٢٣ قطعة أموية (أحدثها يرجع تاريخها إلى عام ١٢٩ هـ) وعشر قطع عباسية (أحدثها يرجع تاريخها إلى عام ٢١٥ هـ) • إن النسبة العالية للقطع الأموية (المقصوصة) أمر طبيعى من وجهة نظر واحدة ، وهى أنه كلما طالت مدة تداول القطعة ، كلما ازدادت احتمالات (تقليمها) وفى الوقت نفسه ، يمكن أن تكون هناك عوامل ساعدت على زيادة هذه الفرص إلى حد كبير • وحيث أن (قالب) قطع النقود الأموية غالبا ما كان يزيد عن الدائرة الخارجية للتصميم • فإن آثار (التقليم) أقل عرضة للاكتشاف مما هو الحال فى القطع العباسية • لأنها مصنوعة بطريقة أكثر دقة وإحكاماً •

ويبدو محتملا أيضا أن (التقليم) يمكن أن يكون قد استعمل أكثر بالقطع من الأنواع التى باتت عديمة الاستعمال •

ان القطع الأموية فى الكنوز التى يعود تاريخها إلى العصر العباسى غالباً ما كانت (تقلم) وربما كان ذلك لأنها فقدت القيمة التى كانت لها فى الأصل كقطعة نقدية ، ولم تعد جديرة بالاقتناء كسبيكة • ولذلك يمكن أن تكون القطع (المقلمة) فى كنز سناو من بين تلك القطع القليلة التى استمر تداولها فى العصر العباسى ، واحتفظت بقيمتها كفضة ولكن لم يعد ينظر إليها بعين الاحترام كنقد بالمعنى الكامل ، وقد تكون القطع الساسانية الثلاث (قلمت) فى العصر الأموى لنفس الأسباب •

وهناك ١٤ قطعة مثقوبة ، واحدة منها عربية ساسانية ، وثمانى قطع أومية (آخرهما مؤرخه ام ١٢٦ هـ) ، وخمس قطع عباسية (أخرها مؤرخه عام ١٩٩) • والغرض من ثقب القطع النقدية هو التمكين من خياطة القطع فى عباءة أو لبسها كقلادة • لأن الثقب يكون دائما عند حافة القطعة ، وأن النسبة العالية للقطع الأموية المثقوبة أمر جدير بالملاحظة ،

لأنها كما هو الحال بالنسبة للقطع (المقلمة) التى يحتمل أن يكون تشويهها قد جرى فى العصور العباسية حينما توقف تداول القطع النقدية ، اللهم سوى تقديرها حسب قيمتها السبيكية •

وهناك احتمال كبير فى أن القطع النقدية من الطراز الساسانى والعربى — الساسانى كانت تستخدم كأدوات للزينة والحلى لأنها تحمل صور شخصيات • ومن الصعوبة بمكان تبرير أسباب ثقب القطع العباسية اللهم على أساس أنه كان هناك طلب مستمر للفضة لاستخدامها كحلى للمبلاس ، وأن هذا الطلب لا تكفى الموارد الفضية لسد احتياجاته •

شظايا :

كما سبق أن ذكرنا ، هناك قطع كثيرة ناقصة ولكن عددا قليلا منها أضيف إلى الكنز • ومن بين سبع شظايا (التى تم التعرف عليها من حوافها) منها قطعتان أمويتان وخمس قطع عباسية وهكذا تكون النسبة متساوية فى مجموعتين تقريباً • وهناك ثلاثة من الشظايا جعلت هكذا ، بقطع النقود قطرياً عبر الوسط • لكى تكون قيمة النصف الواحد منها تساوى درهماً • وهناك شظيتان يبلغ حجم الواحدة منها ربع قطعة كاملة • أى أن نصف القطعة قطع إلى ربعين لكى تكون قيمة الواحدة منها ربع درهم • أما القطعتان الآخريان فإن واحدة منها فى حجم ثلثى القطعة الكاملة والأخرى فى حجم الثلث • وهما ذات شكل شاذ •

والظاهر أن القطع قد جزئت حتى يمكن إجراء عمليات بيع وشراء صغيرة • وإن الدليل على ذلك وعلى كنوز أخرى من المناطق المختلفة التابعة للخلافة توحى على الأقل قبل منتصف القرن التاسع • بأنه ليس أمراً عاديا قطع النقود لاستخدامها كأجزاء • ومن ناحية أخرى فإنه كانت

هناك كنوز إسلامية فى روسيا وشمال أوروبا تتكون إلى حد كبير من شظايا •

قطع نقدية رائعة :

من بين القطع التى فى الكنز أنواع نادرة وقطع لم ينشر عنها من قبل شىء سواء عن مكان وتاريخ سكها • وسنتحدث عنها فى الجزء المنشور الخاص بالكنز • أما الآن فإننا نكتفى ببحث أربع من القطع الهامة — قطعتان خوارجيتان وقطعتان من القطع المقلدة •

إن جميع القطع التى يتكون منها الكنز من فئة الدراهم (أو فى حالة المجموعات الساسانية والعربية — الساسانية من الدراخمات — التى يساوى الواحد منها قبل الإسلام درهماً) باستثناء قطعتين صغيرتين يبلغ وزن الواحدة منهما أقل من جرام •وتجد مكتوبا على جانب منها الصيغة التى شاع استخدامها أثناء الدولة العباسية وهى « محمد رسول الله » وعلى الجانب الآخر شعار الخوارج « **لا حكم الا لله** » • لقد استخدم صيحة التعبئة هذه أول الأمر المنشقون عن حزب على فى معركة صفين ، وظهرتا فى مجموعات القطع النقدية التى صدرت فى عهد قطرى ابن الفجاءة ، من الخوارج ، المعادى للخليفة فى المدة بين عام ٦٩ و ٧٨ للهجرة •• (٦٨٨ — ٦٩٧ م) وكذلك على الدراهم التى سكها المتمرد الخارج فى الكوفة عام ١٢٨ للهجرة (٧٤٥ م) •

وبحلول العصر العباسى لم تعد حركة الخوارج تشكل خطراً سياسياً خطيراً على الخلافة ، مع أنها كحركة دينية جمعت من أسباب القوة ماجعلها تستقر فى كثير من العالم الإسلامى المترامى الأطراف — ففى شمال أفريقيا تزعمتها أسرة روستاميد فى تاهرت « Tahart » وفى ستسان حيث حصلت على تأييد شعبى بين خصوم الحكام العباسيين وفى شرق شبه جزيرة العرب حيث تأسست الإمامة العبادية فى نزوه عام ١٣٥

للهجرة (٧٥٣ ميلادية) ، وفى جنوب أفغانستان حيث أنشأ حمزة ابن عبد الله ، زعيم الخوارج سنة ١٨١ للهجرة (٧٩٧ للميلاد) إمارة فى جارديز • ولسوء الحظ لا تتيح القطعتان الصغيرتان أى مفتاح يدل على أى فرع من فروع الخوارج هو المسئول عن اصدارهما ؟ لأنهما لا تحملان تاريخاً أو كتابة ، وأن طرازهما هو صورة طبق الأصل للعملات الإسلامية التى كانت متداولة فى القرن الثامن وأوائل القرن التاسع • ولكن حيث أنه لم تلاحظ أى عينات فى أى من الكنوز الكثيرة التى عثر عليها فى الشرق الأوسط وأوروبا • فإن من الإنصاف القول أنها لم تتمتع بتداول واسع ، ولكن تم صهرها أو فقدت أو دفنت فى مناطق ليست بعيدة عن مكان سكها • وهذا يجعل إعادتها الى الأئمة العباديين فى نزوة أكثر احتمالا ، ولكن لا يمكن تأييد هذا الا باكتشاف عينات أخرى فى نفس المنطقة فى شبه جزيرة العرب •

ومن القطعتين المقلدتين ، تعتبر الأولى نقدا أمويا فى فترة ما بعد إصلاح العملات ، التى يعتقد أنها سكت فى (واسط) عام ٩٣ للهجرة (٧١١ ميلادية) ، ولكنها تعرض قطعاً مشابهة مختلفة من حيث الطراز والنمط بما فى ذلك خطأ فى هجاء التاريخ ونجمة فوق شعار معكوس ومايبدو أن حرف « أ » باليونانية أسفله • وهناك قطع قليلة مقلدة تعرّف باسم مكانى سك النقود فى واسط وسوق الأهواز وتحمل تواريخ تتراوح بين ٩٠ و ٩٥ للهجرة • وكلها تحمل نجوما فوق الشعار المعكوس وبعضها يحمل حرف « أ » • ويوحى هذان الشكلان ان عمليات التقليد قد يكون مصدرها الجزء الغربى من العالم الإسلامى • إن قطع النقود الذهبية الأموية التى كانت متداولة فى شمال أفريقيا قد سكت على أساس الصلدوس الذهبى البيزنطى والفئات الأقل قيمة وهى تحمل شعارات لاتينية تضم حروفاً تشبه الألف باليونانية • أما النجوم فقد استخدمت فى القطع الذهبية الإسلامية فى الأندلس وعلى قطع نحاسية فى طنجة ،

وهناك درهم أفريقيا (القيروان) مؤرخ فى سنة ١٢٨ مع نجمة تحت شعاره المعكوس •

أما دراهم واسط التى تعتبر أكثر العملات الأموية وفرة ، فقد كانت تتداول فى جميع أنحاء الخلافة ، وقد تكون هى القطع التى اختارها أحد المزورين كنماذج لعمليات التقليد • وقد لا يكون التصديق أمراً صعبا إذا قلنا ان حرف « أ » يدل على كلمة (أفريقيا) •

والتقليد الثانى جرى لنموذج عباسى مبكر ، قيل أنه لعملة ضربت فى مدينة السلام (بغداد) عام ٢١٧ للهجرة / ٨٣٢ ميلادية • وهو يختلف من حيث النمط والطراز عن الدراهم البغدادية المعاصرة ، التى لها شعاران هامشيان على وجهى العملة لا على وجه واحد • ويعكس التقليد خطأ فى هجاء التاريخ على غرار الخطأ الذى وجد على ورق البردى المصرى • وكذلك على دراهم الإدريسيين المتداولة فى القرن التاسع • ولكن ثمة اختلافا أكبر عن النقود البغدادية ، هو إضافة جملة « العدل لله » فوق الشعار المعكوس ، وقد لوحظ ذلك على وجهى عدد من الدراهم المغربية التى تم سكها عام ٢٢٠ للهجرة فى كل من وزقور ••• « Wazaqqur » والوطيط « Watit » وياجارهان « Yajarhan » ولكن لم تظهر على النقود العباسية هذه العبارة فهى أصل واحد من خمسة أصول أو مبادىء للطائفة المعتزلة • والقطع المغربية موضع الحديث قد أوعزها دانييل يوستاش إلى المعتزلة وذلك فى مجموعة كتاباته عن نقود الإدريسيين ومعاصريهم وإن تاريخ التقليد إذا كان تاريخاً صحيحاً ، يحددها بزمن أسبق من زمن الدراهم الآنفة الذكر ، وأن الكتابة التى تظهر عليها مزيفة ، وقد يقال إنها ترجع إلى زمن قبل فترة المعتزلة فى المغرب •

كثرسينو : الرسم البياني بين التوزيع الزمني للنقود الأموية والعباسية
حزبية المسكوكات بسناو
٢٠
١٥
١٠
٥
هـ
٧٩
٨١
٨٣
٨٥
٨٧
٨٩
٩١
٩٣
٩٥
٩٧
٩٩
١٠١
١٠٣
١٠٥
١٠٧
١٠٩
١١١
١١٣
١١٥
١١٧
١١٩
١٢١
١٢٣
١٢٥
١٢٧
١٢٩
١٣١
١٥٪
١٠٪
٥
١٣٢
١٣٤
١٣٦
١٣٨
١٤٠
١٤٢
١٤٤
١٤٦
١٤٨
١٥٠
١٥٢
١٥٤
١٥٦
١٥٨
١٦٠
١٦٢
١٦٤
١٦٦
١٦٨
١٧٠
١٧٢
١٧٤
١٧٦
١٧٨
١٨٠
١٨٣
١٨٤
١٨٦
١٨٨
١٩٠
١٩٢
١٩٤
١٩٦
١٩٨
٢٠٠
٢٠٢
٢٠٤
٢٠٦
٢٠٨
٢١٠
٢١٢
٢١٤
٢١٦
٢١٨
٢٢٠
٢٢٢
٢٢٤
٢٢٦
هـ

بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان

بروفسور س. بكنجهام

Some Notes on the Portugese in Oman

Prof. C. Backingham

لا تهدف هذه الدراسة المقدمة « لمؤتمر دراسات عمان » لأن تكون معالجة وافية ، أو حتى استعراضا للموضوع الذى تعنى به • إذ يتطلب ذلك وقتا أطول بكثير عما كان متاحا •

كما أنه لن تتطلب قدراً كبيراً من الأبحاث فى السجلات التى لم تنشر بعد ، ولا تمحيصاً دقيقاً فى تلك السجلات التى نشرت • والتى يوجد معظمها فى طبعات غير مرضية ، سواء من حيث النصوص أو من حيث الحواشى التفسيرية •

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه سيتطلب الموازنة بين الأدلة الأثرية والأدبية ، والأدلة الموجودة بالسجلات ، فضلا عن تفقد أكثر من عشر مواقع ومبان على الأقل فى عمان ، وهو شىء لست مؤهلا للقيام به على الإطلاق •

وكل ما أعتزم فعله هو تبيان الصورة التى يتمتع بها هذا الموضوع بالأهمية بالنسبة لأى شخص مهتم بالتاريخ العمانى ، وتقديم بعض الاعتبارات التى يجدر فى رأيى الاهتمام بها عند دراسة المسائل المتصلة بذلك • مع طرح بعض الملاحظات العابرة والقليلة على بعض المصادر والوقائع •

إن قيمة المصادر البرتغالية بالنسبة لتاريخ معظم بلدان ساحل المحيط الهندى ، هى قيمة معترف بها بوجه عام ، رغم أن الاستفادة بأكثر هذه المصادر شيوعاً لم تكن كافية على الإطلاق •

وبالنسبة لمؤرخى عمان ، فإن هذه المصادر تتصف بأهمية غير عادية • نظراً لندرة المصادر العربية ، على الأقل التى نشرت حتى الآن ، والتى تتعرض للفترة التى كان فيها ساحل عمان خاضعاً للسيطرة البرتغالية • بدرجات متفاوتة وإن كانت كبيرة ، وهى فترة القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر •

وأعتقد أن أعضاء هـذا المؤتمر سيوافقوننى على أن أكثر الأعمال أهمية فى التاريخ العمانى هو « **تحفة الأعيان** » لمؤلفه نور الدين أبو محمد عبد الله بن حامـد السالمى ، رغم أنه يرجع إلى تاريخ متأخر .

وكما أشـار الدكتور ج . س . ويلكنسون ، فإنه أفضـل بكثير من الكتب التاريخية الأسبق والمعروفة أكثر ، مثل كتابى سرحـان بن سعيد وابن رزيق اللذين « ترجما إلى الإنجليزية » ، بينمـا لم يترجم كتاب السـالمى .

فمن الواضح أن السالمى . الـذى كان يكتب قبيل وفاته عام ١٩١٤ بقليل ، كانت لديه مصادر أفضل . أو على الأقل كان يستفيد من مصادره بشكل أفضل من سرحان أو ابن رزيق . اللذين لم يزيدا عن كونهما مجرد نسـاخين .

ومع ذلك فحتى هـو لم يكن لديه سـوى القليل ليقوله لنا عن عمان فى القرن السـادس عشر . وعلى حـد قول الدكتور ويلكنسـون فإنه « قد ورث التقاليد الكفاحية للعلمـاء اليعاربة العظماء فى القرن التاسع عشر ، كما لعب هـو نفسـه دوراً رئيسياً فى إعادة الإمامة عام ١٩١٣ . ولابد وأن نضع هذه الخلفية فى الاعتبار دائماً عند دراسـة أعماله ، التى كتب كثيراً منها بهدف واضح ، يتمثل فى إحياء الروح التوسعية القديمـة لـدى المؤمنين » .

وكان اهتمامه الأساسى ينصب على مطامح وأقدار الإمامة ، التى كانت فى حالة من الانهيار فى الفترة التى نحن بصددها . فسلطتها كانت مقصورة على الداخل فحسب ، وحتى فى الداخل ، كان النباهنه دائمـاً مـا يتحدونها ، وغالباً ما يتفوقون عليها .

وفى هذا الوضع يجىء وصـول البرتغاليين إلى السـاحل الـذى كان معظمه خاضعا فى ذلك الوقت لملك هرمز . أمـا المذابح وأعمال النهب

التى قام بها البوكرك ضـــد السكان فلم يذكرها السالمى بأكثر مما ذكرها سرحان وابن رزيق •

وفى القرن التالى ، تشير كتبهم إلى انتصارات الإمام ناصر بن مرشد على البرتغاليين ، ولكن دون أن تذكر أى تفسير للطريقة التى جاء بهـــا البرتغاليون أصـــلا إلى هناك •

وبالتالى فإننا نكاد أن نعتمد بالكامل على السجلات البرتغاليـــة لكى نعرف الأحـــداث التى وقعت على الســـاحل وفى الباطنة خـــلال القرن السادس عشر ، بما فى ذلك أنشطة البرتغاليين أنفسهم •

ومن الواضح أن ذلك يضفى أهمية كبرى على روايتهم للوقائع ، ولكنه يعنى فى نفس الوقت أننا لا نملك ســـوى قليل من الرقابة على هـــذه الرواية • فحتى الآن ليست هناك أية روايات عربية أو فارسية معروفة يمكن أن نقارن بها وصف البرتغاليين لمـــا فعلوه ، بالطريقة التى يمكن بها مثـــلا أن نقارن التاريخ اللاتينى للحملة الصليبية الثالثة بالروايات العربية عن حياة صلاح الدين •

ولذلك فمن الضرورى أن نتذكر أثناء قراءتنا لكتب باروس وكاستانيدا وكورييا وكويتو ، الأسباب التى دفعتهم للكتابة ونوع الكتب التى كانوا يحاولون كتابتها ، والأفكار والافتراضات التى طرحوها فى أعمالهم • والمواد المنشـــورة حتى الآن تضم بصورة شاملة تقريبا كتب التاريخ •

وأبرزها كتب باروس وكاستانيدا وكورييا وكويتو ، وكتب السيرة هذه هى الأقرب أحيانا إلى « سيرة القديسين » للمبالغة فى اظهار أفضال أبطالها — مثـــل « **تعليقات** » البوكرك ، وكتب الوصف العـــام للشرق ، مثل كتابى **دوارتى باربوزا ، وسما أورينتال لمؤلفه تومى بيريز** • ورغم أن هذا الأخير لا يتضمن سوى القليل عن عمان •

وفى القرن التالى ، لدينا بطبيعة الحال وصف بوكارو البالغ القمة لحصون ومدن الشرق البرتغالى •

عندمـا نجح البرتغاليون فى نهاية المطاف فى إيجاد طريق بحـرى إلى الهند ، وأقاموا حصونهم ومحطاتهم التجارية على الساحلين الإفريقى والآسيوى للمحيط الهندى ، لم يكن لديهم أى شك فى أنهم يقومون بشىء ذى أهمية هائلة بالنسبة لتاريخ العالم •

فقد كانوا ينظرون لإنجازاتهم على أنها عكساً للفتوحات الإسلامية فى القرنين السابع والثامن • فالعرب فى الحـد الغربى لتوسعهم ، قـد فتحوا شبه جزيرة ايبريا ، وهاهم البرتغاليون الآن يهاجمون شواطىء شبه الجزيرة العربية نفسها ، ويهددون مدينة مكة المقدسة ، ويخضعون الأمراء المسلمين مثل حكام هرمز وملقا •

وكانوا يرون أنفسهم جـديرين بأن يقارنـوا بأعظم الفاتحين فى التاريخ ، وهم أبطال اليونان والرومان وخاصة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر اللذين كانا بصـورة ما مستكشفين مثلما كانا فاتحين •

شأنهم فى ذلك شأن البرتغاليين • وهكـذا نجـد كاستانيدا يجعل عنواناً لكتابه « **تاريخ اكتشاف وفتح البرتغاليين للهند** » كمـا أن تقليد باروس للمؤرخ ليفى واضح للجميع ، وفى روايته تظهر فى الغالب المقارنات الكلاسيكية •

كما أن العنوان الذى وضعه ابن البوكرك لحكاية فتوحات أبيه فى آسيا وهو « **تعليقـات الفونسـو دى البوكرك العظيم** » يعيـد إلى الأذهان ــ وهو المقصود من ورائه ــ يوليوس قيصر ، الذى تشير لـه المقدمة حقاً •

كما أن تقليد « **الالياذة** » واضح تماما فى بناء قصيدة « **لويزياد** »

لمؤلفها كاموس ، حتى أن الأمر لا يتطلب تأكيداً لذلك ، على الرغم من أن أسلوب القصيدة يذكر القارىء بقصائد أريستو وتاسو أكثر مما يذكره بقصيدة فرجيل .

ويمكن للمرء أن يعدد الكثير من الأمثلة . إلا أن واقعة حدثت أثناء نهب بلدة خورفكان تكشف عن ما كان يحدث بوجه خاص . وإنكم لتذكرون أن البوكرك قد هاجم ونهب البلدة ، وقام بنفس ما كان يقوم به فى المدن العمانية الأخرى من قطع آذان وأنوف السكان الذين كان يطلق سراحهم . وقد هرب معظم السكان إلى الداخل .

وعندما وصل الجنود البرتغاليون وجدوا رجلا عجوزا يبدو أنه شخص ذو مكانة وحيداً فى أحد البيوت . فقد كان واهن القوى حتى أنه لم يستطع الهرب من الهاربين . وأخذوه إلى البوكرك ، حيث أشاد به كفاتح لا يقل فى مكانته عن الإسكندر الأكبر .

ولم يكن الرجل يستطيع أن يكون مراوغاً أكثر من ذلك . واندهش البوكرك من أن عمانياً يعرف شيئاً عن الإسكندر ، فما كان من الرجل إلا أن أخرج كتابا مجلداً بالقطيفة القرمزية يحكى عن الإسكندر . وقدمه له .

وسر البكويرك جداً حتى أنه لم يقطع أنفه أو أذنيه ، وأعاده إلى بيته مكرما ، وظل البكويرك كما يقول ابنه ، يحتفظ بالكتاب كشىء عزيز عليه .

وهذه الكتب تنحاز بشدة ، بطبيعة الحال ، إلى كتابه التاريخ على أنه انتصارات مدوية وأحداث ضخمة . فهى تتضمن حكايات الأعمال المشهودة وحالات الحصار والمعارك والفتوحات وعواصف البحار وتحمل المصاعب وذبح الأعداء .

ويبذل هؤلاء المؤلفون قصارى جهدهم للابقاء على أسماء الجنود

الذين قاموا بأعمال متميزة بأى صـــورة من الصـــور • وهم لا يهتمون بتقديم الإجابات للأسئلة التى قد نود طرحها •

وكل ذلك بالطبع ينطبق بصورة أقل على عمليات مســـح الموانىء والحصـــون ، وعلى أعمال مثل كتب باربوزا وبوكارو ، رغم أن تأثير هذه الاهتمامات قد يكون واضحا حتى فى هذه الأعمال • ولذلك ، فإن علمـــاء التاريخ سيرحبون تماماً بأن تبذل وزارة التراث القومى والثقافة جهودها للحصـــول على نسخ من مواد السجلات المتصلة بتاريخ عمـــان فى مكتبات البرتغـــال •

وبطبيعة الحال فإن هذه المواد لن تعنى كثيراً بالأعمال البطولية بقدر مـــا تعنى بالإيرادات والنفقات والإمدادات وما شابه ذلك •

إلا أن الباحثين غالباً ما ينسون أن السجلات يمكن هى الأخرى أن تكون غير موثوق بها • بالضبط مثل أعمال المؤرخين ـــ وإن كان من الأصعب كثيراً رصـــد الأخطاء فيها •

فالمؤرخ يظهر تحيزه ضـــد البكويرك أو صلاح الدين أو ونستون تشرشل أو أى شخص آخر مهما كان • ورغم أنه قد يكون من الصعب جداً على دارس التاريخ أن يرصـــد بالتحديد أثر هذا التحيز فى تشويه الحقيقة إلا أنه على الأقل سيكون متشككا عندما تصبح الرواية محتملة الحـــدوث بصـــورة ضمنية •

أما الأرقام الزائفة ، فإنها قد تبدو مرجحـــة بالضبط مثـــل الأرقام الصحيحة • أما إذا لم تبد الأرقام مرجحة ، فقد لا يكون من السلامة تزييفها • وأى شخص يعتقد أن الارقام الدقيقة فى السجلات هى أرقام يتعين قبولها بالضرورة •

ويجب عليه أن يعود لدراسة فحص البروفسور كاروس ويلسون الراحل لحسابات بريستول • وبعد كل شيء ، فليس هناك الآن من فترض أن إقرارات الضرائب الحديثة تمثل دائماً الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولاشيء غير الحقيقة •

كما أنه من السذاجة بنفس القدر أن يفترض أن محتويات خطاب خاص أو تقرير سرى هى أدق وأصح ما يمكن لكاتب أن يكتبه • فقبل أن نتمكن من استخدام هذه الوثائق بثقة كاملة ، سنكون بحاجة لأن نعرف شيئا عن الكاتب ، وعن المرسل إليه ، وعن المناسبة التى كتب فيها الخطاب مثلا •

فحاكم أحد الحصون مثلا قد يبالغ فى التأكيد على خطر لا يعتقد هو حقا بصحته ، من أجل أن يضمن لنفسه الإمدادات التى يريدها لغرض ما آخر ، كما أن أحد المسئولين عندما يكتب لمسئول آخر يعرف تحيزاته جيداً ، فمن المرجح أن يضع هذه التحيزات فى اعتباره وهو يكتب تقريره •

وعندما تصبح السجلات البرتغالية متاحة ، فإن الأمر سيدعو إلى استخدامها بنفس القدر من الحذر والتدقيق الذى يحدث بالنسبة لأعمال المؤرخين المتاحة لنا بالفعل •

ولإيجاز المعلومات التى يمكننا الحصول عليها من المصادر المتاحة فى الوقت الراهن • يمكن القول بأنها تتصل بالساحل أساساً • وإن لم تكن بصورة شاملة تماماً • وقد كان البرتغاليون يعتبرون الساحل العربى بين باب المندب ورأس مسندم مقسما بين أربع ممالك •

فهناك أولا • إلى الغرب ، مملكة عدن ، وهو ما يعنى فى وقت وصولهم لأول مرة للمحيط الهندى ، ممتلكات الطاهريين وظل هذا الاسم مستخدماً بعد أن خضعت كل من عدن واليمن للمماليك المصريين أولا ، ثم

للعثمانيين بعد ذلك وإلى الشرق من مملكة عدن ، كانت هناك مملكة أكسايل « Xaer » أو أكساير « Xaer » أو أكسر « Xer » وهى ما كان يعرف فى ذلك الوقت بسلطنة شحر الكثيرية •

وكان البرتغاليون يدركون أنها كانت فى بعض الأوقات خاضعة بشكل أو بآخر لحكام مملكة عدن ، أى للباشا العثمانى فى صنعاء • وإلى الشرق منها ، كانت هناك مملكة تسمى كاكسن « Caxen » وهى قشن ، أو غارتاق وهى رأس غرطاق •

وكانت هذه المملكة تضم جزيرة سوقطره ، عندما لم تكن خاضعة للبرتغاليين أنفسهم • وكانت هذه الدولة بالطبع هى السلطنة الأمهرية • التى كانت علاقاتها مع البرتغاليين تميل لأن تكون ودية أكثر مما كان عليه الحال مع سلطنة شحر • وعند رأس الحد ، تبدأ الأقاليم العربية لمملكة هرمز والتى أصبحت هى نفسها تابعة للبرتغاليين حتى طردهم منها الشاه عباس بمساعدة الإنجليز عام ١٦٢٢ •

والمصادر البرتغالية المبكرة لا تقول لنا سوى القليل عن الداخل فقبل وصول البرتغاليين ، كانت هناك أربعة مراكز للقوى فى عمان وهى : الإمامة العبادية فى نزوة ، والنباهنة غالباً فى بهلا • وبنو جبر الذين كانت قاعدتهم فى الإحساء ، وحكام هرمز الذين كانوا تابعين أصلا لخانات المغول فى بلاد فارس •

وكانت كل من هذه المراكز الأربعة تميل للصراع مع القوى الأخرى • ولكن أكثر الصراعات استمرارا كانت بين الأئمة والنباهنة للسيطرة على عمان الداخلية ، وبين هرمز وبنو جبر للسيطرة على القطيف والبحرين •

ومن الواضح أن البرتغاليين كانوا يبالغون بصورة غريبة فى تقدير أهمية بنى جبر • و « تعليقات » البكويرك تشير إلى بنى جبر على أنهم

يحكمون داخل البلاد • ويقتسمون فيما بينهم كل الأراضى الواقعة من الخليج حتى عدن ، والتى تصل إلى مشارف مكة • فالابن الذى يحتفظ باللقب عن أبيه كان يحكم فرطاق وظفار وقلهات ومسقط والأراضى التى تمتد حتى حدود عدن •

بينما يحكم أشقاؤه ساحل الخليج • وكان بنو جبر موضوع المقال الذى كتبه قريز كاسكيل ، والذى تتبع فيه الإشارات التى وردت عنهم فى المصادر العربية وأبرزها الصمهودى وابن اياس • وفى هذا الصدد ، نشير فحسب إلى أن كاسكيل قد اقتصر على اثنين من المصادر البرتغالية ، هما باروس و « **التعليقات** » متجاهلاً كثيراً من التفاصيل حول استيلاء البرتغاليين على البحرين من بنى جبر ، وهو ما يرد فى كاستانيدا •

وفى الغالب تتناقض المراجع البرتغالية على نفسها ، ربما لأنها تستقى المعلومات من مصدر بعينه ثم لاتقارنها بالمعلومات التى حصلت عليها من مكان آخر وهكذا •

فمن الواضح أن البوكرك كان يعتبر أن مدن ساحل الباطنة خاضعة لملك هرمز • وكان ذلك حقاً السبب الذى دعاه لمهاجمتها ، بهدف القضاء على مصدر يمكن أن تأتى منه التعزيزات للحاكم إذا ما هاجمه فى عاصمته • إلا أننا هنا أيضا نجد أن هذه المراجع تصف شيخ بنى جبر بأنه حاكم لأراضى ويرد فى أماكن أخرى أنها تنتمى لسلطان قشن المهرى ولملك هرمز •

وهو ليس المثال الوحيد على أية حال • وفى هذا المثال بالذات ، ربما كانت الحقيقة وراءه تكمن فى أن بنى جبر كانوا يغيرون على هذه المستوطنات الساحلية • ويجبرونها فى بعض الأحيان على دفع ما يمكن أن يكون فدية أو جزية • وفى وصف قلهات عند أول زيارة يقوم بها البكويرك إليها •

فإن « التعليقات » تشـــير فعلاً إلى أنه كان هناك ســـور مبنى بارتفاع الرمح من الجبل الأخضر حتى البحر ، لحماية المدينه من هجمات « البرابرة » الآتية من الداخل والذين يخضعون لملك يسمى ابن جبار لديه كثير من الفرسان • وهذا ليس الخلط الوحيد فى رواية باروس • فحكام الإحســـاء من بنى جبر قد حصلوا من « سالفور » حاكم هرمز على كل من القطيف والبحرين • مقابل مساندتهم له فى خلاف حول ولاية العرش •

إلا أن سالفور عاد وندم على هذه الصفقة واسترد الأراضى ، ثم وافق أخيرا على التنازل عنها مقابل دفع أموال له • وعندما سيطر البرتغاليون على هرمز • رفض الحاكم الجبرى — الذى يحدده كاسكيل بأنه مقرين ابن زامل بن الأجود — الاستمرار فى دفع الأموال • وذلك عندما نزل البرتغاليون إلى أرض البحرين لكى يؤكدوا سلطة تابعهم ملك هرمز •

كان مقرين قد ذهب للحج فى مكة ومعه كثير من الأعيان ، كما يقول باروس ، الذى يضيف أنهم وصلوا فى ٢٧ يوليو ١٥٢١ • وقد تتبع كاسكيل إشارة وردت من ابن إياس عن رحلة مقرين للحج وعن كرمه وسخائه فى مكة ، ولكنه لم يلاحظ أنه فى عام ١٥٢١ ، كان « العيد الكبير » فى شهـــر نوفمبر ، وليس يوليو •

والأكثر من ذلك ، أن باروس يقول هنا أن مقرين كان يخشى من أن يتعرض أثناء عبوره للصحراء لهجوم من جانب بنى جبر وهناك مزيد من التفاصيل حول بنى جبر وصلتهم بالهجوم الذى قام به القائد حسين بن سعيد على صحار فى مارس ١٥٢٢ •

وباروس يصف شيخ بنى جبر بأنه كان يحكم كل المساحـــة تقريبا التى تمتد من الداخل من البحرين إلى ظفار • وهى تمتد إلى ما يزيد عن ٥٠٠ فرسخ • ويقول أن العرب كانوا يطلقون على كل هذه المنطقة اسم

« اليمن » Iaman ورغم أن ذلك قد يبدو غير محتمل بالنسبة لأى شخص على دراية قليلة بالعربية •

إلا أنه يبدو لى أن من المحتمل أنه كان هناك شىء من الخلط فى ذهن باروس بين عمان واليمن • فعمان أصبحت بالنسبة له « اليمن » • ولا يستخدم هذا الاسم مطلقاً للدلالة على الساحل ، وإنما للدلالة على الداخل فحسب • ففى تعرضه لزيارة البكويرك الثانية لقلهات • يقول إن المدينة كانت فى وقت ما أشهر مدن الساحل لأن أحد الممرات التى كانت تخترق السلسلة الجبلية كان ينتهى عندها •

مما جعلها ميناء هاما بالنسبة للجزء الأعظم من الداخل الذى كان العرب يسمونه « عمان Oman » ويقول لنا أن العرب قد اشتقوا الإسم من اسم أحد أحفاد لوط الذى كان أول من سكن هذه المنطقة • ومن الواضح أن هذه إشارة إلى بن آمى « Ben - Ammi » الذى ورد ذكره فى « سفر التكوين » بالكتاب المقدس • وبالتالى فإن لدينا فى الواقع مالا يقل عن ثلاثة أسماء من الواضح أنها مختلطة ببعضها البعض هى : عمان واليمن وأمون « Ammon » •

والكتابان الأساسيان واللذان يتضمنان وصفاً للبلدان المطلة على المحيط الهندى ، من بين الكتب التى ألفها البرتغاليون فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، هما كتابا تومى بيريز ودوارتى باربوزا • وأولهما ليس فيه سوى القليل عن الساحل العربى •

فهو يذكر جزر كوريا موريا ومصيره ، ومثل غيره من المراجع الأخرى ، فإنه يعتبر أن رأس الحد تمثل حدود مملكة هرمز • أما كتاب باربوزا ، فإنه يتطلب قدراً أكبر من المناقشة • وهذا العمل يعتبر عن حق ذا قيمة كبيرة ، فهو يجمع بين الخبرة الشخصية الطويلة فى

الشرق وبين كثير من الملاحظات الدقيقة • إلا أن ما ورد به حـول الجزيرة العربية إنما هـو شيء مخيب للآمال •

وأحيانا يؤخذ ما قاله بجدية أكثر مما يستحق فعلا • ويجب أن نتذكر أولا أننا لا نملك نصاً مرضياً لكتابه • إذ أنه لمـدة طويلة لم يكن الكتاب يعرف إلا من خلال النسخة الإيطالية التى نشرها راموزيو فى مجموعته الهائلة عن كتب الرحلات • وعندما نستطيع أن نقارن بين ما نشره راموزيو بالكتب الأصلية التى استخدمها (مثلما هو الحال مثلا فى كتاب القاريز عن أثيوبيـا) •

وكتاب ليو افريكانوس عن وصف أفريقيا • فسيتضح أنه كان يعطى لنفسه حرية كبيرة فى الخروج عن النص الأصلى أثناء إعداده للنشر • ففى محاولته لجعل النص أكثر سلاسة ودقة • فإنه كان كثيرا ما يدخل فى النص التصحيحات والإشارات التفسيرية •

وهناك أيضا نسخة أسبانية ، وهى التى استخدم اللورد ستانلى أوف الدرلى مخطوطاً لها فى برشلونة لترجمتها إلى الإنجليزية ، حيث نشرتها جمعية ها كليوت عام ١٨٦٥ • وفى عام ١٨١٣ ، نشرت أكاديمية لشبونة للعلوم نصاً برتغاليا للكتاب ، وهو النص الذى استخدمه مانزل لونجوورث داميز فى النسخة الإنجليزية التى نشرتها جمعيـة هاكليوت فى جزأين عامى ١٩١٨ و ١٩٢١ ، كمـا استفاد أيضـا من نسختى اللورد ستانلى وراموزيو •

وهذه النسخة الإنجليزية عظيمة القيمة وذات حواش دقيقة • وإن كان داميز قد أخطأ ، بافتراضه أن باربوزا قد زار بنفسه الجزيرة العربية • وهو مالم يقم دليل عليه • فهـو يقول بأن باربوزا قد ذهب إلى الهند فى أسطول بدر الفاريز كابرال ــ وهو ما يمكن أن يكون قد فعله ــ وإن هذا الأسطول قد أبحر إلى سوقطره وباب المندب وهرمز والخليج •

ثم وصل فى النهاية إلى جـــوا فى الهند ــ وهو مالم يحدث بالتأكيد • فقد أبحر كابرال فى الواقع محاذياً الساحل الإفريقى حتى ماليندا • ثم انحرف عندئذ قاصداً الهند حيث رسا على البر فى أنجاديف • ويخطىء باربوزا خطأً غير معتاد عندما يخلط بين السلطتين الكثيرية والمهرية •

ويجعل الشحر تابعة لملكة فرطاق ، كما أن أسماء الأماكن تظهر لديه مشوهة بشكل خطير • فنجد مثلا أن ظفار فكان تظهر فى النسخة البرتغالية على أنها بروقـــام • أما المخطوط الأسبانى فى برشلونه ، فهـــو أدق • إذ يسميها جور غاءان •

وهذا ليس الموضع الوحيد الـــذى يكون فيه النص الأسبانى أكثر صحـــة من البرتغالى • ومن الواضح أن هناك حاجـــة لنص تجرى مقارنته وتحقيقه جيداً لكتاب باربوزا ، فاللورد ستانلى مثلا لم يستخدم مخطوطين آخرين • للترجمـــة الأسبانية كانا فى ذلك الوقت فى المكتبـــة الملكية فى ميونيخ •

وأود الآن أن أتناول بصـــورة موجزة للغاية مثالين لصلة البرتغاليين بذلك الجزء من عمان الذى يقع إلى الغرب من رأس الحـــد ، وهما أعمال كل من فيسنتى ســـودرى وجين دى سوســـا •

كان فيسنتى ســـودرى أول برتغالى ممن نعرفهم قام بزيارة أى جزء من عمان •ومن الممكن ، أو من المرجح حقا ، أن يكون بيرو دى كوفيـــلا أثناء رحلاته بين عـــدن وهرمز ومالامار قد زار قلهات أو مسقط ، ولكن ليس هناك ما يشير فى السجلات إلى قيامه بذلك ، أمـــا ســـودرى ، فكان رجلاً ذا مكانة • فقد كانت تربطه صلة قرابة بفاسكودى جاما ــ كان ابن اخته ــ وكان قـــد أوفد إلى الشرق بقيادة مستقلة بصـــورة أو بأخرى ، فى الوقت الذى قام فيه ابن أخته برحلته الثانية إلى الهند عام ١٥٠٢ •

وكان هو الذى يلى فاسكودى جاما فى تسلسل القيادة ، بمعنى أنه هو الذى كان سيخلف دى جاما فى تولى القيادة العليا إذا مات أو قتل قبل عودته • وكان سودرى يتولى قيادة أسطول صغير • كان معيناً له أن يبقى خارج مالامار لتقديم المساعدات للمستوطنات البرتغالية • وأن يطوف خليج عدن لجمع المغانم إذا ما كانت هناك حاجة لذلك •

وهناك فروق بين مصادرنا حول ما حدث فى مالابار • إذ يقول باروس أن راجا كوشين وهو حليف البرتغاليين أنه قد رفض عروضه للمساعدة على أساس أن سامورين حاكم «كالكوتا» لن يتمكن من مهاجمته فى المستقبل القريب بسبب ظروف المناخ ، أما كاستانيدا وكوربيا فيقولان بأن الراجا قد طلب منه البقاء ، إلا أنه تخلى عنه وعن البرتغاليين فى المحطة التجارية • بعد أن أغرته احتمالات المغانم الوفيرة •

وهو مثال مثير للاهتمام من أمثلة الاختلافات التى نجدها بين المراجع البرتغالية ، وحسب ما يقوله باروس • فقد قضى سودرى شهرين يطوف ما بين كيب جاردا والسال العربى ، وعندئذ ، وبسبب التغيير الوشيك فى حالة الطقس ، وبناء على نصيحة البحارة المسلمين ، أبحر إلى خليج بالقرب من جزر كوريا موريا •

وجاء إلى الشاطىء قليل من البدو الذين يعيشون على رعى الحيوانات وكانوا خائفين أول الأمر • إلا أنهم استرضوهم بهدايا الأقمشة والأرز • فاطمأنوا آخر الأمر الى الحد الذى جعلهم يأتون بحيواناتهم ، وبنسائهم وأطفالهم إلى الشاطىء لمشاركتهم فى صيد الأسماك • وبعد حوالى شهر ونصف الشهر حذروا البرتغاليين من قرب هبوب عاصفة ، ونصحوهم بأن يتخذوا لأنفسهم مأوى •

إلا أن البرتغاليين لم يفعلوا ذلك ، إذ كانوا يشكون فى أن السكان يحاولون إقناعهم بالرحيل • فى الوقت الذى تستمر فيه قافلة ثمينة قادمة

من هرمز فى هذا الطريق • الا أن التحذير كان لـــه ماييرره • فقد هبت العاصفة وفقدت سفينتان ــ سفينة سودرى وسفينة شقيقه ــ بكل من عليهما من بحارة •

ولا يختلف كاستانيدا وكورييا إلا قليلا فى روايتهما لهذه الواقعة • ويسخر كاستانيدا من القول بأن راجا كوشين قد رفض مساعدة سودرى وأبعده ، فكل من ذهب إلى الهند يعرف أن الفترة من مارس إلى منتصف يونيـــو هى أفضـــل فترة بالنسبة لساموريين لشـــن الهجـــوم • لأن ما من ســـفن تصـــل من البرتغال خلال هذه الشـــهور ، وهو لا يقـــول شيئاً عن الطواف فى خليج عدن ، أو الذهاب إلى سوقطره • مما يقول به كورييا ، بل يقول بأن ســـودرى قد ذهب إلى كامباى لكى ينتظر السفن التى أبحرت فى البحر الأحمر إلى كالكوتا • وأنه قصـــد إلى جزر كوريا موريا بعد أن استولى على بعض المغانم •

والرواية التى يوردها للأحداث التى أدت إلى تدمير السفن لا تختلف بصـــورة كبيرة عن الرواية التى يوردها باروس • ويظل أمامنا السؤال : هل أخـــذ سودرى موقعه خارج الجزر كما يقـــول كاستانيدا ؟ أم خارج الأرض نفسها فى خليج كوريا موريا ؟ وبالنسبة لى لا يبدو أن هناك شكا فى أن القول الأخير هو الأصح •

وكورييا يقول لنا أن كثيرا من السفن كانت تأتى إلى هذه الخلجان • تحمل الأقمشة التى كانت تباع للسكان الذين كانوا يأخذونها وييبعونها فى الداخل • وأنه عندما كانت هذه السفن تصل ، كان كثير من الناس يخرجون إلى الشاطىء ، وأنهم عندما اطمأنوا للبرتغاليين أخذوا يبيعون لهم الماشية والدجاج والبيض والتمر والزبيب • وكل ذلك لا يكاد يكون من الممكن قبوله إذا ما كان قد اتخذ موقعه خارج الجزر ، فلم يكن مسكونا منها ســـوى جزيرتين فقط ، وحتى هاتين الجزيرتين كانتا قليلتى السكان •

وبالمناسبة ، تجـدر الإشارة إلى أن هناك نسختين من المجلد الأول من تاريخ كاستانيدا ، نشرتا فى عامى ١٥٥١ و ١٥٥٤ ، وأحيانا تكـون هناك اختلافات كبيرة بين النسختين ، فبعض الصفحات قد أعيدت كتابتها • ولكن الفصل الخاص لفقدان سفن سـودرى (المجلد الأول ــ الفصل ٥٤) لا يتضمن سـوى تغيير واحـد فقط خاص بواقعة ما حدثت فى وقت لاحق لدمار السفن •

أما الاتصال البرتغالى الآخر بهذه المنطقة • والـذى أود أن أشير إليه فهو خاص برحلة غير عادية بطول الساحل ، فعندما كان دييجو لوييز دى سيكويرا عائدا من البحر الأحمر عام ١٥٥٠ ، بعد أن أرسى سفارة لـدى إمبراطور أثيوبيا ، تفرقت سفن أسطوله بسبب عاصفة • واتفق على أن يكون اللقاء فى ميناء قلهات العمانى •

وتحطمت سفينة جيروتيمودى سوسا بعد أن اجتازت بالفعل رأس فرطاق • ونجا قائدها فى زورق ومعه أحـد عشر شخصا آخرين • ويحكى كاستانيدا أنه لمـا كان محتماً أن يغرق كثيرون على أية حال • فقد قالوا بأن من الأفضل إنقاذ الأشخاص ذوى المكانة • ويقول أن السفينة تحطمت بالقرب من جزيرة مديره ــ ولابد وأنه كان يقصد **مصيرة** •

يقول كل من كاستانيدا وباروس : أنهم ساروا لمسافة ١٠٠ فرسخ بطول الساحل حتى وصلا إلى مكان يبعد عن قلهات مسافة ١٥ فرسخا كما يقول باروس أو ٢٠ فرسخا كما يقول كاستانيدا • والفرسخ البرتغالى يمكن أن يساوى ٣ر٢ ميل جغرافى • وبالتالى فإن مسافة ٣٢٠ ميلا من الحـد ستصل إلى ما وراء رأس مدراكا فى خليج ساوكيره •

ولكن إذا ما وضعنا فى الاعتبار تعرجات الساحل والطبيعة التقريبية بالضرورة لتقديراتهما • فمن المعقول أن نفترض أنهم قـد وصلوا إلى الأرض بجـوار جزيرة مصيره • ويقول باروس أنهم وصلوا إلى بلـدة

تسمى لالام Lalam ، وهى بلدة لا يذكر اسمها كاستانيدا أو كورييا ، وإن كان أولهما يقـــول إن شيخها كان تابعاً لملك هرمز •

بينما يقول باروس أنه كان صديقا للملك ، وقد فشلت فى تعيين هذه البلاد المسماة « لالام » ، وإن كان من المتصور أن تكون لها علاقة ببلدة جعلان •

ومن الممكن أن نعين على الفور معظم الأسماء الجغرافية العمانيـــة الواردة فى كتب التاريخ البرتغالية ، وإن كانت هناك غالباً اختلافات مدهشة فى طرق كتابتها ، حتى لدى الكاتب نفســـه • وربما كانت التشويهات أكثر حـــدة فى كتاب بابوزا ، حيث صـــور تصبح **آشـــأر** ، وقلهات تصبح **كالارانى** ، وتيوى تصبح تيرو ، وداغمار تصبح راجينوا ، وصحار تصبح **كوكيار** ، وخـــور فكان تصبح **بروفان** •

كما أن من وصفه بأنه **ايتيم** ، الذى هزم لونجوورث رامبز ، فلابد وأنه بيتى • ويجب أن نشير إلى أن الاختلافات ليست مقصورة على طريقة الكتابة والهجاء ، إذ أن باروس ، على سبيل المثال ، يشير إلى جزر كوريا موريا ، فى حكايته عن فقدان سفينة ســـودرى ، ولكنه يورد لها وصفاً مختلفا أثناء وصفه العام للشاطىء الشرقى •

وحتى الآن لم أقل شيئا عن أهم مصدر برتغالى نشر حتى الآن • وهو كتاب انطونيو بوكارو الذى يحمل اسم Livre des Plantas de Todac as Fortalezas Cidades Povearoes de Estads da India Oriental

ففى الوقت الذى كتب فيه ، كان قد حدث تغييران بالغا الأهمية ، وهما : تولى اليعاربة الحكم ، وتصميم البرتغاليين على تقوية وضعهم فى الساحل ببناء أو احتلال مزيد من المعاقل والحصـــون ، بعـــد أن راح الإنجليز والهولنديون والعمانيون والصفويون Safawids يهددونهم •

ويصف بوكارو أحـد عشر حصناً فى عمان ، يمكن تعيينها على الفور ، هى : كوريات (**قريات**) أو ماسكات (**مسـقط**) ، ومتارا (**مطـرح**) ، وسيبو (**سيب**) ، وبوركا (**بركـة**) ، وسـوار (**صحـار**) ، وكورفكان (**خورفكان**) ، وكيلبه (**الكربى**) ، ليبديا (**بيديه**) ، وماما (**مـوخى**) ودوبـا (**ديبـه**) .

وكما يعترف بوكارو ، فإن كثيرا من هذه الحصون قد بناها العمانيون ثم احتلها البرتغاليون فقط . كمـا أنه يوفر لنا أيضا المعلومات عن عدد السكان والمنتجات المحلية ، وبوجه خاص مدى اتساع التجارة واتجاهها . وكان متأثراً بقوة الإمام ناصر بن مرشـد ، الذى كان قد جعل نفسـه قبلها بسبع سنوات أعظم حكام الجزيرة العربية شأناً .

وكان تحت إمرته ١٤٫٠٠٠ أو ١٥٫٠٠٠ من الفرسان ، وكان بمقدوره أن يحصل على المزيد بسهولة وكانت قواته أيضا مسلحة بسيوف عريضـة ورماح للرمى وحراب طويلة يستخدمها الفرسان الراكبون ، الذين لم يكن هناك كثير منهم .

وكانت لديه أيضا فرق من الجمال التى لم تكن تقل عن الجياد فى سرعتها وتحملها ، فالجمال تأكل أقل من الخيول ويمكنها تحمل العطش لمـدة يومين أو ثلاثة أيام . ولم تكن هذه القوات الراكبة تستطيع مهاجمة مسقط ، التى كانت تحميها السلسلة الجبلية . ولكن مشاته كانوا قادرين تماما على تسلقها والهبوط منها .

وكانت الصداقة مع الإمام محفوفة بالمخاطر دائماً . فقد كان مصلحاً دينياً ، ويرى أن الإسلام يفرض الحرب الدائمـة ضد المسيحيين . وكان يبرم الاتفاقيات ولكنه لا يحفظها إلا طالمـا كانت تناسبه . وحتى ذلك الوقت ، لم يكن قد تعامل مع الإنجليز أو الهولنديين ، رغم أنه قد هـدد بالتحالف معهما عندما كان فى نزاع مع البرتغاليين .

وكان يجمع بيده بين السلطتين الزمنية والروحية • ويحصل على ١٠ بالمائة من إجمالى الإنتاج ، و ٥ بالمائة من إجمالى المال المكتسب • وكانت سلطته تجعله محترما ومطاعا مثل أى حاكم عظيم فى العالم •

ومن المثير للاهتمام أن بوكارو يعلق على الفشل الكامل الذى منيت به أى محاولة لتحويل الناس إلى المسيحية • فلم تكن هناك أية مفردات معروفة فى اللغة بما يمكن من ترجمة قواعد ومبادىء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية •

وهناك الكثير مما هو بالغ الأهمية فى كتاب بوكارو ، ولكن ما قلته يكفى لإظهار قيمة الوصف الذى كتبه • إلا أن هذا الكتاب بحاجة إلى ناشر يعيد تحقيقه •

فهناك ثلاثة مخطوطات معروفة على الأقل ، إحداهما فى يفورا بالبرتغال ، والآخر فى المكتبة الوطنية فى باريس ، والأخير فى المكتبة البريطانية فى لندن وقد تم نشر النص فى « **السجلات البرتغالية الشرقية** » من مخطوط إيفورا ، ولكن بدون حواش تفسيرية •

أما مخطوط باريس ولندن ، فيوجد فيهما رسوم توضيحية ، وبعض الرسوم على الأقل فى مخطوط باريس أعيد طبعها فى مجلدات مطبوعة • أما الرسوم التوضيحية فى مخطوط لندن ، فإنها ملونة • ولقد كانت آمل أن أعرض هذه الرسوم هنا، ولكننى عندما استعلمت عن ذلك قيل لى أن المخطوط قد سحب لإعادة تجليده ، وأنه لن يكون متاحاً لبضعة أشهر • وأننى لفى غاية الأسف لذلك فمثل هذه اللوحات كانت ستوفر شيئاً من الارتياح يرحب به المستمع الصبور •

ملاحظات جديدة
عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليّين
من ١٦١٣ ـــــ ١٦٣٣

بروفسور . س . بوكسر

New Light on the Relationships of Oman and Portuguese (1613-1633)

Prof. C. Boxer

ينقسم هـذا البحث إلى جزئين ، أولهما يتناول استيلاء البرتغاليين ومعهم العمانيون على صحار من محمد بن مهنا كما سيأتى عام ١٦١٦ ، بينما يرسم الثانى صـورة لمواقف روى فرييرا دى اندرادى من العـرب والإيرانيين • كما وصفها شاهد عيان أسبانى هو رومينجو دى تورال دى فالديز فى ترجمة حياته عام ١٩٣٥ • وكما وصفها المؤرخ أنطونيو بوكارو •

وقد أكد البروفيسور جان أوبين — فى تصويره الذى يحمل عنـوان « Liminaire » للمجلد الأول من مؤلفه Mare Luso - Indicum (باريس ١٩٧١) — على أهمية الجمع بين المصـادر الغربية والشرقية عند دراسة تاريخ المحيط الهندى ، بالنسبة للأزمنة والأماكن التى قد تتزامن أو تتداخل فيها هذه المصـادر •

كما قد لاحظ أيضا أن المصـادر البرتغالية والشرقية عندما يحدث أن تتزامنا ، فإنهما غالبا ما يتوافقان بدرجة ملحوظة ، ويكمل كل منهمـا الآخر بصـورة وثيقة (المرجع السابق ذكره — ص ٩ من المقدمة) •

وسنجد بعض النماذج النمطية لذلك فى صفحات المجلدات الأربعة التى صـدرت حتى الآن من « Mare Luso - Indicum » بينمـا يتمثل نموذج آخر فى حملة صحار عام ١٦١٦ ، وهـو ما سأتناوله فيما يلى •

أما ر • د • باتهرست • فى مقالته الأولى التى تحمل عنوان « **التجارة البحرية وحكومة الإمام • ملمحان رئيسيان فى تاريخ عمان حتى عام ١٧٢٨** » الواردة فى « **شبه الجزيرة العربية • المجتمع والسياسة** » • إعـداد • ديريك هوبوود — آلين آند أنوين — ١٩٧٢ — ص ٨٩ / ١٠٦) •

فإنه يشير بصـورة موجزة لهذه الحملة ، التى يصورها على أنها « مظهر للانتهازية أكثر منها مظهراً للعدوان » (المرجع السابق ذكره —

ص ٩٦) • إلا أن مجال مقال باتهرست لم يسمح له بأن يتطرق الى أية تفصيلات •

ولكونى فى غير التخصص فى الشئون العربية • فقد كان على أن أعتمد على الأعمال العربية المترجمة • والتى كان أكثرها إفادة لأغراض هـو « **حوليات عمان لسرحان بن سعيد بن سرحان من قبيلة بنى على العمانية** » الذى قام بترجمته وإعداده أ • س • روس (كلكتا باتبيست ميشن برس — ١٨٧٤) •

ورواية المؤرخ العمانى لهذه الحملة ترد فى الصفحات ٤١/٤٣ • ومن وجهة النظر الغربية ، يبدو غريبا أن يخصص كل هذه المساحة لواقعة صغيرة نسبياً ، بينما لا يتعرض إلا بإشارات عابرة وفى بضع سطور لأحداث مثل الاستيلاء على ممبسة بعد حصار دام عامين (١٦٩٦ / ١٦٩٨ م) ، ومثل المستوطنات البرتغالية الأخرى على الساحل السواحيلى •

أما أكثر الروايات البرتغالية كمالا • فهى التى أوردها المؤرخ المعاصر أنطونيو بوكارو فى مؤلفه «Decado XIII De Historis da India» فى الفصلين ١٥٧ / ١٥٨ (الصادر فى مجلدين فى لشبونة — ١٨٧٦) ، فى الصفحات ٦٤١ / ٦٤٨ • وبمقارنة هاتين الروايتين السابقتين ، فإن تسلسل الأحداث كان كالآتى :

كانت صحار لعدد من السنين تخضع لسيطرة محمد بن مهنا ، الذى جعلها مركزاً تجارياً يشكل خطراً على تجارة هرمز ومسقط • ولحسن حظ البرتغاليين • فإن أحد الزعماء القبليين المنافسين ، وهو الأمير عمير بن حمير ، طلب مساعدتهم ضد مهنا •

وبناء على أمر من نائب الملك فى جوا ، فقد حصل على هذه المساعدة على

شكل أسطولين صغيرين ، يتولى قيادتهما كل من الدوم فاسكو دى جاما والدوم فرانشيسكو روليم ، بعد أن انضمت قواتهما فى مسقط • وفى يوم ٢٩ أبريل ١٦١٦ ، شن رجال القبائل التابعين للأمير هجوما من البر على صحار ، وفى اليوم التالى ، نزل البرتغاليون من سفنهم لمساعدتهم •

وكلتا الدولتين تتفقان على أن أفراد قوة الإنزال البرتغالية « كانوا يدفعون أمامهم أكياساً من القطن لحمايتهم من نيران الأسلحة الصغيرة التى يصوبها عليهم المدافعون •

كما كانوا أيضا يستخدمون مدفعاً ، يتحرك على الأرض بعجلات خشبية ، ومجهز بحواجز خشبية • وفى أحد جوانب الحصن كان لدى محمد بن مهنا برج فيه عدد كبير من الجنود •

ونقل أفراد قوة الحصار — الأكياس القطنية إلى مواقع مواجهة للبرج ، وأمطروه بوابل من نيران المدافع حتى أحدثوا به شرخا ، وعندئذ انسحبت منه الحامية ، ودخله المسيحيون » • وتم الاستيلاء على البلدة والحصن فى وقت واحد ، ولكن فى غوضى القتال التى حدثت ، لم يكن لدى البرتغاليين القدرة أو الرغبة فى الحفاظ على الشروط التى عقدوها أصلا مع الأمير •

وكانت هذه الشروط كالآتى : أولا ، ألا يسجن أو يستعبد أى فرد من العرب المدافعين أو أهالى البلدة ، بل يسمح لهم بالرحيل ، وثانياً ، أن يعطى الأمير جزءا من الأسلاب للبرتغاليين مقابل مساعدتهم ، ولكنه سيحتفظ بالباقى •

إلا أنه عندما رأى الجنود البرتغاليون المدافعين يهربون حاملين متاعهم • فقد تركوا الصفوف واندفعوا للنهب والاستيلاء على المغانم

والقبض عليهم • وعندئذ ، توجه الأمير بالاحتجاج الى الدوم فاسكودى جاما ، الذى أمر بإيقاف ذلك ، وإطلاق سراح بعض الهاربين •

ولكن انطونيو بوكارو يضيف قائلاً إنه على الرغم من هذا الأمر ، فإن كثيرين قد دخلوا فى عداد العبيد •

والرواية التى يوردها بوكارو (توضح) أيضا أن جنود الدوم فرانشيسكو روليم ، الذى لم يكن على وفاق تام مع الدوم فاسكو دى جاما ، كانوا فى الأساس هم الذين ارتكبوا هذه الحوادث • كما يقول أيضا أن الأمير عمير قد احتج مرارا وبلا جدوى على هذا النقض للعهود • والرواية العربية تقول إن قوات الأمير كانت أيضا تقتل وتنهب وتشتت الهاربين •

وبهذه الطريقة ، تم التخلص من كل سكان المكان ، أما البلدة نفسها ، فقد أحرقت تماما • وظل البرتغاليون يحتلون حصن صحار ، بينما عاد الأمير عمير إلى سمايل « Semail » وهو مبتهج إلى درجة النشوة » [١] •

وعندما وصلت أنباء هذا النجاح إلى جوا ، تجادل نائب الملك ومستشاروه حول ما إذا كان يجب الإبقاء على حصن صحار تابعاً لعرش البرتغال ، أو التنازل عنه لشاة هرمز المتحالف مع البرتغاليين ، والذى كان يطالب به كجزء من ممتلكاته الموروثه على جانبى الخليج [٢] • وقرروا الاحتفاظ ــ مؤقتا ، مع إحالة القرار النهائى فى هذا الشأن إلى الملك فيليب الثالث ملك البرتغال •

وكان قرار الملك هو أنه لابد من الاحتفاظ بالحصن للعرش ، ولكن لما كان حصناً واسعاً جداً بحيث يحتاج إلى حامية كبيرة ، فإنه يجب تقليله إلى حلقة يمكن الدفاع عنها بشكل أكبر ، بحامية قوامها ثلاثون

جنديا برتغاليا ، يساعدهم قـوة من العسكريين « Laskarins » وهم قوة ثانوية من العرب المحليين (٣) .

وكان قائد حصن صحار فى الفترة من ١٦٢٠/١٦٢٢ هو أمارو رودريجيز الذى كتب رسالة بعد سقوط هرمز عام ١٦٢٢ ، إلى الإنجليز يشكرهم على حسن معاملتهم للأسرى البرتغاليين . وعلى اطلاق سراح الذين لم يشتركوا فى القتال (٤) . وانسحب البرتغاليون عن حصن صحار فى فبراير ١٦٢٣ ، حين احتله الفرس لفترة قصيرة ، قبل أن يستولى عليه من جديد فرير دى اندرادى والدوم جونكالو دى سيلفيرا فى شهر يونيو أو يوليو من نفس العام ، بعد مقاومة شديدة من الحامية (٥) .

ومرة أخرى ، عينوا أمارو رود ريجيز قائداً للحصن ، إلا أن المكان كان قد اشتهر بأنه غـير صحى للبرتغاليين ، وإن كان العرب المحليون يتمتعون فيه بصحة ممتازة (٦) .

ومن المؤكد أن البرتغاليين لم يصـادفوا أية صـعوبة فى تجنيـد الذين كانوا قادرين وراغبين فى خدمتهم كجنـود « عسكريين » Laacaries سواء كانوا من هنا أو هناك ، أو من الايرانيين القادمين من موجستان وغيرها من المناطق الأخرى التى كانت تنتمى لهم فى الماضى أو تطالب بها مملكة هرمز القديمـة .

وكان معظـم المجنـدين من المرتزقة البالوشـيين . وتتفق كل المصـادر البرتغالية على أن هذه القـوات الثانوية والمرتزقة كانت تؤدى واجباتها بـولاء مثالى . طالمـا كانت تتلقى رواتبها بانتظام وبشـكل كامل (٧) .

ويضيف بوكارو أن شخصية ومقدرة قادتهم البرتغاليين كانت أيضاً

عاملا رئيسياً فى الحفاظ على هـذا الولاء • ومن بين هؤلاء القادة ، كان أكثرهم شهرة روى فرييِر دى اندرادى ، الذى اكسبته الأعمال والفظائع التى ارتكبها فى الخليج على مـدى فترة تصـل إلى اثنى عشر عامـا (١٦٢٠ / ١٦٣٢) ، اكسبته شهرة دائمـة وسمعة سيئة (٨) •

وخصومه الانجليز فى عام ١٦٢٠ يصفونه بأنه « رجل طويل القامـة ذو بشرة داكنة اللون • متجهم القسمات ، قليل الكلمات وذو روح عالية ، وقد عاش لسنوات طويلة هنا وفى الهند » •

كما نجـد تصويرا آخر لشخصيته بعد ذلك بعشر سنوات على لسان المهندس العسكرى الأسبانى رومينجو دى تورال أى فالديز ، الذى قضى معه تسعة أشهر فى مسقط • وفى الخليج (من فبراير الى أكتوبر ١٦٣٠) • ويعترف فالديز بأنه تلقى من روى فرييِر الكثير من الأفضال الشخصية •

كمـا قوبل منه بالضيافة الكريمة ، إلا أنه ينتقد فيه أن ما كان يحركه هـو القواعـد السياسية أكثر منها المبـادىء المسيحية • ويرى توراك أيضا أن روى فرييِر كان مخادعا وداهية • فكثيراً ما كان يصدر لمرؤوسيه أوامر غامضة ، حتى أنهم كانوا يسألونه تفسيراً لها •

كما كان يبقى على مسافة كبيرة بينه وبين ضباطه ولا يثق فى أى منهم ، حيث كان على قناعة بأن كل ما يحركهم إنما هـو المصلحة الذاتية • وكان حريصاً على أن يحصـل رجاله على رواتبهم بانتظام ، وعلى غذائهم بصـورة طيبة ، ولكنه كان شديد الحزم والانضباط ، وعلى قناعة بأن الخوف يجعل رجاله يبذلون جهودا أكثر مما يجمعهم الحب ، وأنه كان يعامل كلاً منهم على انفراد بشىء من التقدير •

وعلى عكس معظم مواطنيه ، فقد كان عفيف النفس إلى درجة كبيرة ، وبالغ الكرم بماله الخاص ، ولا يقبل أية هدايا مهما كانت بسيطة • وكان

يصر على تنفيذ أوامره بالكامل ، وذات مرة ، أعدم أحد قادة الجنود المحليين « Lascarins » لأنه أبقى على حياة فتاة إيرانية جميلة بعد أن أمر روى فريير بقتل كل الإيرانيين بغض النظر عن أعمارهم أو نوعهم • والشيء الذى يجعل هذا الفعل أكثر فظاعة أن روى فريير دعا هذا الرجل أولا إلى مائدته •

وأثناء الألفة بينهما على الطعام ، سأله بصورة عابرة عما إذا كان قد أبقى فعلاً على حياة الفتاة • ورغم الصورة المزدوجة التى يرسمها تروال لروى فريير ، إلا أن المهندس الأسبانى يعترف بأنه تعلم منه أكثر مما تعلم من أى قائد آخر ، سواء كأسبانيا أو برتغالياً •

ويقول أيضاً إنه كان يتمتع بشعبية بين رجاله ، سواء كانوا من البرتغاليين أو الجنود المحليين « Lascarins » الذى اشتهروا بانضباطهم أكثر من أى قوات أخرى ، باعتبارهم « الجنود الذين خدموا فى الفلاندرز بيننا » (٩) •

والفظائع العديدة التى ارتكبها روى فريير ضد الإيرانيين ربما تكون قد أدت إلى عكس ماهو مستهدف منها • كما أشار وقتها الرحالة الإيطالى بيترو ديلا فالى عام ١٦٢٣ (١٠) وبعد أربعين عاما من ذلك الوقت • لاحظ رحالة برتغالى فى الخليج أن « الحديث إلى الفرس عن روى فريير مثل الحديث إلى الهولنديين عن دوق البا » (١١) •

ومع ذلك • يجب الاعتراف بأن سياسة « إثارة الخوف » التى كان يتبعها قد أتت ثمارها بشكل ما • ففى عام ١٦٣٠ ، وافق خصمه القديم ، الإمام قولى خان ، الذى استولى مع الانجليز على هرمز عام ١٦٢٢ ، وحاكم شيراز ، وافق روى فريير على السماح البرتغاليين بالتجارة فى بندر كونج ، بشروط مماثلة لتلك التى كان يتمتع بها الإنجليز فى جمبرون (١٢) •

كما تمكن روى فرييز أيضا من إقامة وجـــود برتغالى فى جولفار (رأس الخيمة) عن طريق حصن صغير إلى جانب الحصن التابع لهرمز • وكان هـــذا المكان من مواقع صيد اللؤلؤ •

ولم تـــدم فتوحـــات روى فريـــير لفترة طويلة بعـــد وفاتـــه فى ديسمبر ١٦٣٢ (١٣) • رغم أن الإيرانيين لم يعودا هم الخصوم الرئيسيين للبرتغاليين ، وإنمـــا العمانيـــون • فالإمام ناصر بن مرشد كان قد مـــد حكمه فى ذلك الوقت ليشمل كل جبال عمان ، وبعد بضعة أشهر من وفـــاة روى فرييز « استعاد جولفار من أيدى البرتغاليين والهرمزيين • والمؤرخ أنطونيو بوكارو يصف صعود نجم الإمـــام بهذه السطور •

لقد جعل هـــذا الإمام من نفسه منذ سبع سنوات أقوى حاكم فى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، بمناصرته للشريعة المحمدية ، التى كان يظهر نفسه على أنه من أشـــد المتمسكين بها • وكان مقر حكمه فى نزوى • وهى أكبر مـــدن الجزيرة العربية بأسرها • وهى تقع على مسافة أربعة أيام إلى الداخل من مسقط باتجاه الغرب •

وتحت إمرة هذا الامام حوالى ١٤٫٠٠٠ أو ١٥٫٠٠٠ من المقاتلين ذوى المهارة العالية • وليس هناك شك فى أن بمقدوره أن يزيد هذه القوة بشكل كبير • إذا ما أراد أن يجنـــد أعدادا أكبر ، إذ أنهم ملزمون دينا وعرفاً بطاعته •

وكل هؤلاء المقاتلون يحملون سيوفا عريضة قاطعة النصال • كما أنهم مزودون أيضا بالرماح والسهام للخيالة ، رغم أنه ليس هناك الكثيرين منهم • ومقاتلوهم يركبون الجمال ، التى لاتقـــل عن الجياد استعدادا للقتال ، نظرا لسرعتها وقوة تحملها •

وهم بالتالى يستخدمون الجمال ويقدرونها بدرجة كبيرة ، إذ تستطيع

المضى يومين أو ثلاثة أيام دون أن تشرب أى مـاء ، كمـا أنها تستهلك من الطعام أقل بكثير مما يستهلكه الجياد • وعلى أية حال فإن هـؤلاء الخيالـة ، سـواء كانـوا على ظهـور الجمـال أو الجيـاد لا يشكلون أى تهديـد على مسـقط ، بسبب منحدراتهـا الحـادة التى لا يمكن اجتيازها فالخطر يأتى مـن الجنـود الراجلين ، فهم يتميزون بخفـة الحركة تماما لاعتيادهم تسلق الجبال والصخـور ، وهـو ما يفعلونه بسهولـة •

وبالنسبة لأولئك الذين يمتلكون الجياد أو الجمال ، فإن من يمتلكون أكثر يكونون موضـع الاحترام والطاعة ممن يملكون أقل ، ولكن ليس هناك من بين زعمائهم من يمكن مقارنته بالإمام ، إذ ليس هناك فى كل الجزيرة العربية من يمكن أن يساويه أو يطاوله فى مكانته • والجياد فى هـذا الإقليم من الجزيرة العربية (عمان) ، تعتبر أفضل وأقوى الجياد فى الشرق كلـه •

إن حالة الصداقة والسـلام التى تربط هـذا الإمام بالبرتغاليين هى حالة محفوفة بالمخاطر للغاية وتتصف بالتذبذب البالغ • فنظرا لأنه يعلن على الملأ أنه هـو الذى يعيد ويصلح الشريعة المحمدية ، فهو يقول أنه بناء على دينه فانه ملزم بمحاربة المسيحيين حرباً دائمة •

ورغم أنه يعقد فى بعض الأحيان سلاماً مع دولة الهند ، إلا أنه لايحفظ هـذا السلام لفترة طويلة على الإطلاق • بل يبقى عليه فقط بقدر ما يكون ملائماً له • وبقدر ما يعتقد أننا أقوياء بالدرجـة التى تجعلنا ننجح فى الوقوف فى وجهه » •

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن نائب الملك ومجلسه فى جـوا ، عندما وصلتهم أنباء أن الامام قد أعلن الحرب رسميا عام ١٦٣٣ ، كانـوا أميل

إلى قبول تأكيداته بأنه كان فقط يسترد أراضيه وحقول نخيله التى من حقه ، وأنه لن يهاجم الحصون البرتغالية ــ إذا تركه البرتغاليون ينعم بأراضيه فى ســلام •

إلا أن نائب الملك ومجلسه قرروا أن يتركوا قرار الحرب أو السلام لحاكم مسقط ومجلسه [١٥] • واختار هــذا الأخير أن يدخل الحرب التى لم تسفر إلا عن هزيمة البرتغاليين ، وعن ضياع كل الجيوب الساحلية البرتغالية فى عمان فيما بين عامى ١٦٣٣ و ١٦٥٠ •

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى
المكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص :

ملاحظـــات

(١) أ . س . روس (ترجمة واعداد) « حوليات عمان » كلكتا = ١٨٧٤ ص ، ٤٢ / ٤٣ . والدوم فاسكودى جاما القائد البرتغالى — الرئيس هو حفيد ابن « مكتشف » الهند الشهير وكان له تاريخ متميز فى الشرق وأصبح بعد ذلك حاكم تشاول « Cheul » .

فى الفترة من (١٦٤٧ / ١٦٢١) وعندما ترك الخدمة الفعلية أصبح « Cacado » أى من المستوطنين المتزوجين فى كوشين « Cachin » .

(٢) للاطلاع على وصف تفصيلى لمملكة هرمز القديمة والأراضى التى كان حكامها يسيطرون عليها أو يطالبون بها ، أنظر — جان أوبين مملكة هرمز فى القرن السادس عشر «Mare Lute - Indicam II» (جنيف ، ١٩٧٣) .

(٣) ف . ت . جيون (اعداد) «Assontos de Couselhe Foxenes» المجلد الأول » الجزء الأول ١٦١٣ — ١٦١٧ (جـــو — باناجى) (١٩٧٩) ص ٦٧ / ٦٨ ر . أ . دى بلهاو باتو (اعداد) « «Ducumentes Remettides da Indie ou Livres des Moncoes VI» (لشبونه ١٨٩٣ — ص ٣٢٠ / ٣٢٢) .

(٤) نشرت لأول مرة فى بورشاس « **رحلات الحج** » (١٦٢٥) ثم أعيد نشرها فى مؤلفه من اعدادى يحمل اسم «**تعليقات على روى فريير دى اندارادى**» (لندن ١٩٣٠) ص ٣٠٦ / ٣٠٧ والرسالة مؤرخة بتاريخ ٢٧ يونيو ١٦٩٢ ، من صحار ، ونائب الملك فى ليناريس يصف أمارو روينر (كما كان يوقع اسمه عادة) بأنه « رجل رائع للغاية » فى عام ١٦٣٤ .

وكان مراجع الايرادات فى سيلان فى الفترة ١٦٣٣ / ١٦٣٦ ، عندما بدأ عملية مســـح للأراضى فى مملكة جاننا ، وقبل وفاته فى ٢٤ مارس ١٦٤١ . عمل لفترة ما وزيرا للدولة فى جوا . وفى متحف الســـجلات التاريخية فى بانجيم — جـــو . هناك جزء من شاهد على قبره .

(٥) الوثائق المتصلة بهذه الحملة منشـــورة فى مؤلف لوسيانو كورديرو : «Dois Capitase da India» (لشبونه ، ١٨٩٨) ص ٥٦/ ٧٠ .

(٦) وصف انطونيو بوكارو لصحار فى مؤلفه «Livro do Esmdo do India» (١٦٣٥) ، الذى يحتوى لسوء الحظ على أخطاء مطبعية ، أ . براجانسا بريرا «Arquivo Portuguez IV Historia» (باستورا ، ١٩٣٧) ، ص ٩٠ / ٨٣ .

(٧) انطونيو بوكارو : المرجع السابق ذكره ، ص ٧٣
أ . بوتيللودا كوستافيجا (اعداد) .
«Relacao de Todas as Fortalezas Cidades, Poroeoes que on Purtoguezas tom no Estado da India Orcontal, 1633».
(شبونة ، ١٩٣٦) ، ص ١٠ / ١٦ ، وخاصة ص ١٢ .
(شبونه ، ١٩٣٧) ، ص ١٧٧ / ١٧٨ .
Diorio do Condo do Linhares Vice - Rai de India.

(٨) س — بوكسر (اعداد) « **تعليقات على روى فريير دى آندرادى** » (١٩٣٠) ، ولنفس المؤلف : « **التنافس الانجليزى ، البرتغالى فى الخليج الفارسى فى الفترة ١٦١٥ / ١٦٣٥** » ، فى مؤلف أ . بريستدج (اعداد) . « **فصول فى العلاقات الانجليزية البرتغالية** » (واتفورد ، ١٩٣٥) ، ص ٤٦ / ١٢٩ .

(٩) Relaction de la Vida aol Captain Demingo de Toral Y Valoés فى مؤلف — مانويل سيرانواى سانز (اعداد) « **سير شخصية ومذكرات** » (مدريد ، ١٩٠٥) ص ٥٠٦/٤٨٥ — وهو لسوء الحظ مؤلف لم يعتن بطباعته . ولا يمكن الاعتماد عليه تماما . ويقول الذى قام باعداده أن هذا الجزء قد ورد فعلا فى
«Coléccion de dotumentos inéditos paro la Historia de Espana».
الا انه ليس هناك أى أثر لذلك فى هذا المؤلف . وقد يكون تورال أى فالديز شخصية مثيرة للاهتمام بطريقته الخاصة ، وتعليقاته على الهند البرتغالية وشرق افريقيا والخليج كما كان يراها فى الفترة ١٦٢٩ / ١٦٣٤ .

هى تعليقات قيمة جدا . وقد ولد عام ١٥٩٨ ، وبدأ خدمته العسكرية فى الفلاندورز عام ١٩١٥ . وقد كتب أيضا « موثيه » الى روى فريير ، ولم أطالع عليها بنفسى ، ولكن ورد ذكرها فى «Bolotim da Filmatoca» — العدد ١٧ (لشبونه ١٩٦١) ، ص ١٦٠ .

(١٠) « **رحلات بيترو ديلا فالى فى الهند** » (اعداد) جمعية هاكليوت — فى جزئين — لندن — ١٨٩٢ ، ص ١٨٧ / ١٨٨ .

(١١) مانويل جودنيهو
Relacho do novo caminho que Fez por Terrae mar, vindo da India pava Partigal no anno de 1633.
(لشبونه ، ١٦٦٥) .

(١٢) س . بوكسر — « **التنافس الانجليزى والبرتغالى** » (١٩٣٥) ص ١١٣ بالاضافة الى المصادر الأخرى الواردة به .

(١٣) تورد مصادر عديدة تاريخ وفاته على أنه ديسمبر ١٦٣٢ أو ديسمبر ١٦٣٣ ، ولكن موازنة الأدلة ترجح التاريخ الأسبق .

(١٤) انطونيو بوكاسو — **المرجع السابق ذكره** (١٩٣٧) ، ص ٧٥/٧٤ .

(١٥) ورد فى الجزء الخاص بـ ١٥ سبتمبر ١٦٣٣ فى مؤلف بانوورونجا بيسورلونكار «Assentos de Conselhe de Estado, I, 1618 - 1633».
(باستورا ، ١٩٥٣) ، ص ٤٨٧ / ٤٨٨ .

المعارف الدّينيّة فى عُمان الداخلية

بروفسور . دى . ايكلمان

Religious Knowledye in Inner Oman

Prof. D. Eickelman

تعد إمامة عمـــان فى القرن العشرين ١٩١٣ ــ ١٩٥٥ م / ١٣٣١ ــ ١٣٧٥ هـ إلى جانب إمامـــة اليمن ونظام الحكم فى التبت من أواخر الأنظمة الدينية الثيوقراطية فى العالم • فمن حيث المبدأ كانت الامامـــة تشـــكل دولـــة إسلامية مثالية ، وكان على الامام أن ينيب عنه عماله فى الإمامة على « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى القيام بالعدل فيها يأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، وإنصاف الضعيف من القوى بالشـــدة والرخاء ، وأن ينصح فى ولايته على قدر طاقته كما نصح محمد صلى الله عليـــه وسلم » [١] •

يقوم العلماء والأعيان فى مجتمع الإمامة بترشيح الأئمـــة على أساس معرفة هؤلاء بالقرآن وعلوم الدين ومقدرتهم على الالتزام بهذه المبادىء فى أحكامهم [٢] • ويستمر العلماء على تقديم نصحهم ومشورتهم للإمام لضمان التزامه بهذه الأفكار فى الحكم •

وفى ولاية كالإمامة الإباضية ، كان الحرص على إحقاق الحق وإقامة العدل يرتبط ارتباطاً كلياً بمعرفة الشريعة ومبادىء الإســـلام • الا أن غالبية السكان كانوا أميين • ومن بين تلك الأقلية التى تحسن القراءة والكتابة عدد محدود جـــداً كان يفقه تفصيلات الشرائع والأحكام الإسلامية وهؤلاء هم الذين عرفوا بالعلماء [٣] •

لـــذا فإن البحث فيمن امتلكوا هذا العلم وعلاقتهم بمن لم يمتلكوه جوهرى لفهم الكيفية التى تحقق بها المجتمع العادل فى الإمامة العمانية من حيث التطبيق وكذلك السياق الذى اكتسبت فيه هذه الإمامة شرعيتها الشعبية •

وعلى الرغم مما حظيت به أماكن (كدور العلماء مثلا وأنظمة الحكم الثيوقراطية) من اهتمام الباحثين ، فإن ما كتب عن أسلوب حكم إمامة

عمان فى القرن العشرين حتى الآن ضحل وقليل .

وبعض الكتاب الذين انطلقوا من فرضية وجـود إمامة غير سياسية لا تشوبها شائبة فى الماضى البعيد اعتقدوا أن وجود إمامة ما بعد القرن الثامن عشر قد انحطت . ونظراً لاستحالة القيام بأبحاث ميدانية حتى العقد المـاضى ، فقد اعتمد كتاب آخرون فى أبحاثهم ، فى المقام الأول ، على الكتابات النظرية المتعلقة بهذه الفترات المبكرة (٤) .

لـذا كان من الطبيعى أن تجنح أبحاث هؤلاء إلى تصوير وضـع الإمامة بصورة مثالية ، وخلافاً لذلك فإن المقال التالى اعتمد على البحث الميدانى ، الذى مازال جاريا ، بما فى ذلك اجراء مقابلات مع الأفراد الذين عاشـوا فى الإمامة وشاركوا فى إدارتها أو تعاملوا معها مباشرة . كمـا اعتمد على رسـائل وتقارير بيت مال الإمامة وغيرها من الوثائق التى توجد بحوزة هؤلاء (٥) .

ينطوى فهم دور العلماء فى الامامة العمانية على أهمية تفوق بكثير مجرد الأهمية التاريخية والاجتماعية والمحلية . فعندما قامت الحركات الشعبية على أساس جـوهر الإسـلام أو المبادىء الإسلامية الحقة ، كانت الإمامة تمثل المظهر التطبيقى لمبادئها . لذلك فإن فهم أسلوب الإمامة الحديثة فى تصريف الأمـور يتيح المجال لإمكانية إجراء مقارنات أوسع (٦) .

ومن جهة أخرى — وبعكس ما هو شائع — فإن العلاقات بين السلطان سعيد بن تيمور والإمـام محمد بن عبد الله الخليلى (١٩٢٠ — ١٩٥٤م / ١٣٣٨ — ١٣٧٣ هـ) كانت ودية فبعد توليه العرش عام ١٩٣٢ ، تعمـد السلطان سعيد أن يعرض على العديد من مسؤولى الإمامة وخاصة القضاه منهم أو من تعلموا فى الإمامة مناصب فى إدارته وكان فى ذلك مصيباً .

وعليه فإن علماء الإمامـة كانوا يشكلون عنصراً مهماً مما كان «موسكا»

سيسميهم « بنخبة الدرجـــة الثانية » (Scondary elite) أو هؤلاء الذين يجيزون للحكام أن يحكموا [٧] • ولذا فإن فهم هـــذه النخبة ، من هم أفرادها ؟ وكيف كانوا يتعلمون ؟ والأنماط الثقافية التى طبقوا فيهـــا تفسيراتهم للشريعة الاسلامية ؟ يسهل علينا بلا شك فهم السلطة وتقبلها على المستوى الشعبى ، ويتيح لنا تقييم آثار التحولات الكبيرة التى عرفتها عمان بعـــد عام ١٩٧٠ •

التعليم القرآنى

كانت المدارس القرآنية حتى عام ١٩٧٠ هى الوسيلة الوحيدة للتعلم • وقـــد انتشرت هـــذه المـــدارس فى معظم القـــرى والأقاليم رغم تباين مستوياتها بين منطقة وأخرى •

وكانت الحلقات الدراسية تعقد فى المســـاجد أو فى بيوت الضيافة المعروفة محليا بالسبل (مفردها سبله) أو حتى فى الهـــواء الطلق تحت شجرة فى بعض فصول السنة [٨] •

ويبدو للملاحظ بصـــورة عامة أن هناك تشابها شكليا بين المدارس القرآنية فى مختلف أنحاء العالم الإســـلامى ، لكن هناك فى الواقع اختلافات لها من الأهمية مما جعلنا نرى من المفيد إعطاء وصف دقيق لنظام المدارس العمانيـــة [٩] •

ويتميز نظام حلقات الدراســـة بالساعات الطويلة الرتيبة التى تسير على وتيرة واحـــدة طيلة اليوم • فالحلقة الدراسية تعقد من طلوع الشمس إلى صلاة العصر تتخللها استراحتان قصيرتان إحداهما فى الضحى قبـــل الظهر لتمكين التلاميذ من تناول الطعام •

وقد خفض عدد الساعات فى المـــدن والقرى التى أحدثت فيها مدارس

حكومية بصـــورة متناسبة مع أوقات الدراســـة فى هذه المدارس • وعلى العموم فإن حلقات الدراسة تنعقد كل أيام الأسبوع باستثناء ظهر الخميس ويوم الجمعة وأيام الأعياد •

لقد حافظت هذه المدارس إلى الوقت الراهن على كثير من مظاهرها دون تغيير جوهرى • فالحلقة الدراسية العادية تضم ما بين ٢٠ و ٥٠ تلميذا تتراوح أعمارهم بين سن السادســـة والرابعة عشر ومعظمهم من صغار السن (١٠) • وتعطى الحلقـــة الدراسية انطباعا عاما بالفوضى إذ يحشر التلاميذ فى مساحـــة صغيرة ظهورهم إلى ظهور بعض حتى لا يكاد أحدهم يجـــد متسعا لتقليب صفحات مصحفه •

والواقع أن هناك حلقات صغيرة تضم الواحدة منها بين خمسة وستة تلاميذ • بينما يتجمع التلاميذ المبتدئون على مسافة قريبة من المعلم أو المطوع ، حيث يقـــوم مساعد له بإرشادهم فى تلاوة ســـور القرآن يعرف بالمذكر وغالباً ما يكون ابن المعلم أو أحـــد التلاميذ المتقدمين فى الدراسة •

باستثناء هؤلاء التلاميذ الصغار يترك الآخرون لشأنهم فى تلاوتهم فالمعلم يعين للتلميذ سورة أو مجموعة من الســـور لقراءتها خلال اليوم ، يتلوها مرة أولى أمامه ثم يحاول التلميذ فى نفس الوقت تتبع تلاوة المعلم بالإشارة إلى الكلمات فى النص الموجود أمامه •

بعد ذلك يذهب التلميذ إلى مكانه ليقرأ ســـورة مرارا وتكرارا وبين الحين والآخر ينادى عليه المعلم ليعيد عليه ما قرأه ويصحح له أخطاءه إذا مـــا دعت الحاجة لذلك •

ومن الصعب على المعلم الحفاظ على النظام وسط هـــذه الضجـــة الشاملة من التلاوات المتنافرة ، فليس باستطاعته أن أن يتعرف على التلميذ الذى يقرأ والذى لا يقرأ باستثناء الموجودين فى الصفوف الأمامية •

والنظام فى المدارس القرآنية صارم من حيث المبدأ فعندما يسلم الآباء أبنائهم للمعلم يبيحون له ضربهم إذا ما أساءوا التصرف • لكن الشائع عمليا هو أن أقلية من التلاميذ تعير اهتمامها للمعلم وهى التى تكون عادة على مقربة منه ، بينما ينغمس الآخرون فى اللعب واللهو •

وإذا ما لاحظ المعلم أمثال هؤلاء التلاميذ غير المنتبهين فإنه يحذرهم أولا ويعاقبهم ثانية بضربهم بعصاة على أيديهم وظهورهم إذا ما كرروا ذلك • وعملية اختيار مستحق الجزاء تغلب عليها العشوائية ، لذا فإن من الأشياء التى يتعلمها التلاميذ بصورة ضمنية فى مثل هذه المدارس هى كيفية إظهار الاحترام للسلطة وتفادى الخطأ فى نفس الوقت •

أول ما يتعلمه التلميذ فى المدارس القرآنية هو قراءة وكتابة الحروف ثم ينتقل منها الى « الأبجدية » وهى طريقة ربط الحروف بعضها ببعض ، بعدها يتعلم كتابة فاتحة القرآن وكتابه اسمه •

وغالبا ما كانت هذه الخطوة تهمل فى مدارس القرى الصغيرة — ثم ينتقل التلميذ إلى قراءة جزء عم « أى الجز الأخير من القرآن الكريم الذى يشتمل على قصار السور » وأخيرا يقرأ القرآن بترتيبه العادى •

وتتوفر للتلاميذ اليوم نسخ مطبوعة من القرآن ، وقد كان الأمر كذلك فى الماضى حتى بالنسبة لتلاميذ مدارس بعض المدن • ولم تكن هذه هى الحال بالنسبة للمدارس الأخرى حيث كان على المعلم ، أو أحد التلاميذ المتقدمين فى الدراسة ، أن يخطط للتلميذ على لوح خشبى أو عظمة كتف جمل ، الآيات المراد قرائتها •

ويعيد التلميذ كتابتها مستخدماً نوعاً محليا من الحبر يعرف « بالحصا » يصنع من مزيج من نبات البرسيم المحروق والحنطة والدهن والماء ، أما

الورق فلم يكن متوفرا • وعندما ينتهى التلميذ من قراءة ما كتب يمحو لوحه ليعود ويكتب عليه آيات أخرى •

ولا تعطى للحفظ أهمية كبرى فى المدارس الداخلية كما هو الحال فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، كالمغرب مثلا حيث يجب على التلاميذ أن يحفظوا القرآن بكامله كمقدمة لمزيد من التعلم [١١] •

فعلى التلميذ العمانى أن يتعلم التلاوة الصحيحة لسورة مختارة لينتقل بعدها لقراءة سورة أخرى • وان لم يتعلم التلميذ السور المعينة له فى بضعة أيام يعاقب بالضرب أو باستبقائه فى مدرسة المسجد ظهر يوم الجمعة •

ولا يعد الذهاب الى المدرسة القرآنية ، ولو لعدة سنوات ، فى حد ذاته مقياسا للتعلم • فمعدل الانقطاع عن الدراسة كان عاليا فى هذه المدارس وينصرف التلاميذ عن إتمام دراستهم قبل أن يجيدوا تلاوة القرآن والكتابة بشكل كاف • فليس غريبا أن تجد فى بعض المدن والقرى التى لا يوجد بها مدارس حكومية أشخاصا قضوا فى المدرسة القرآنية أربع أو خمس سنوات غير قادرين على تلاوة القرآن بأنفسهم أو كتابة جملة بسيطة •

وعلى العموم يشكل تعليم الكتابة جزءا أساسيا من مهمة المدرسة القرآنية إذا ما استثنينا كتابة عدد محدود من الآيات •

ليست هناك مستويات شكلية تفصل بين تلاميذ الحلقة الدراسية ، فالأفراد الذين سبق لهم وأن تعلموا فى المدارس القرآنية قبل أحداث المدارس الحكومية يقولون بأنهم تعلموا كتابة الجمل الأساسية فى مدة تتراوح بين أربعة أشهر وسنتين •

وأجادوا تلاوة القرآن بكامله بين سنتين وخمس سنوات • وعندما يصل التلميذ إلى درجـــة تلاوة القرآن بكامله يعرف أنذاك باسم « خاتم القرآن » ، وقد ختم بعض التلاميذ القرآن مرتين أو ثلاثة قبل أن يتركوا المدرســـة • والواقع أن التلاميذ المتقدمين يتذكرون عدد المرات التى ختموا فيها القرآن أكثر مما يتذكروا عدد السنوات التى قضينها فى الدراسة •

ويجـــدر بنا أن نؤكد أنه كان على التلميذ أن يتعلم فقط تلاوة القرآن ولم تكن مناقشة مـــا يقرأ أو طرح الأسئلة حوله من الأمور المسموح بها •

وترجع نسبة مهمة مـــن أسباب الانقطاع عن الدراســـة إلى أسباب اقتصادية فقد كان التعليم القرآنى مجانياً تقريباً ، والمعلم يرتزق مـــن أمـــوال الجماعة المعتمدة خصيصاً للأنشطة الدينية ـــ وإن كان مرتبه زهيداً فى الغالب ، لا يختلف عن أجـــر العامل الزراعى الـــذى لا يملك أرضا (البيدار) •

وكان يدفع التلاميذ لـــه مرتبه على دفعات ضئيلة كل يوم خميس (عرفت بالخميسية نسبة إلى اليوم الذى تدفع فيه) • كما كان يحصـــل على بعض الهدايا البسيطة فى بعض المناسبات الخاصـــة كحفـــل ختم القرآن •

كان المعلمون الذين يقومون بمهمة تدريس القرآن من رجال القبائل الفقراء الذين لايملكون من الأرض ما يكفيهم للعيش أو ممن لم يكن لديهم من المـــال مـــا يمكنهم من القيام بأعمال أخرى ، وعلى العموم ، فإن هذا المستوى من التعليم لم يكن من مهام ذوى المكانة المتميزة ـــ والتقدير كان يذهب إلى تلاوة القرآن وليس بالضرورة إلى اؤلئك الذين يعلمونه •

ولم تكن مساهمـــة أهل التلاميذ فى كلفة الدراسة السبب الوحيد للانقطاع عنها فهناك عامل أهم ألا وهو عدم استعـــداد عائلـــة التلميذ للاستغناء عن خدماته فى كثير من أعمال الزراعـــة والرعى • وفى المناطق

التى لا توجد فيها مـدارس حكومية ، لا تزال نسبة الحضور خلال السنة تختلف بصورة واضحة حسب دورات الرعى والزراعة ومسؤوليات التلميذ اليومية فى بيته حتى يومنا هـذا •

ولذلك فان التلاميذ الذين يقضون فى المدرسـة مـدة طويلة هم فى الغالب ممن تستطيع أسرهم الاستغناء عن مساهمتهم الاقتصادية •

هذا ونظرا لأن كثيراً من الجوانب اللازمـة لترسيخ المعرفة بالقراءة والكتابة كانت تكتسب خارج دائرة المدرسـة هذه فقـد حظى التلاميذ المنتسبون إلى النخبة القائمـة أو الأسر المتعلمة بميزات أكيدة عن غيرهم • فقد كان من الشـائع فى هذه الأوساط أن يطلب الوالد أو أحـد الأقارب من الطالب دروسه يومياً بعد صلاة الفجر — وهى الفترة التى يتلو فيها الكبار فى أوساط المتعلمين القرآن •

وحين يبلغ طور النضج يشجع على الانضمام الى الحلقات الدراسية التى يجتمع فيها الرجال فى المساجـد أو فى أماكن أخرى لقراءة القرآن فى أوقات أخرى من اليوم • وبطبيعة الحـال فإن مستوى هذه التلاوات يفوق بكثير المستوى السائد فى المدارس القرآنية •

وعلى العموم فإن أمثال هـؤلاء التلاميذ كانوا يتعلمون من آبائهم وأقاربهم من الذكور قراءة وكتابة المـواد غير القرآنية • أمـا التلاميذ الذين لم يكن باستطاعتهم الوصـول إلى مثل هذه الأنماط الخاصة من الدراسـة فقد كانت حظوظهم فى التعلم أقـل •

استخدامات المعرفة بالقراءة والكتابة

كانت المعرفة بالقراءة والكتابة موضع احترام كبير من الناس نظراً لما تنطوى عليه من نسبة من المعرفة الدينية ، إلا أن استخدامات هذه المعرفة

عملياً وقيمتها فى الارتقاء الاقتصادى كانت محدودة وبالتالى كان هنـاك حافز اقتصـادى ضئيل يدعـو الناس إلى تعلم ما هـو أكثر من المعرفة المبدئية •

فالجهاز الحكومى بكامله لايحتاج إلى أكثر من ٤٠٠ موظف وقليل منهم يحتاجون للقراءة والكتابة للقيام بمهامهم ، ففى بلدة كبلدة الرستاق التى تأتى فى المرتبة الثانية بعد بلـدة نزوى من حيث مستوى العمـل الحكومى (١٢) كان بها ست وخمسون موظفا يتقاضون راتبا حكوميا ، من بينهم عشرة فقط يستخدمون القراءة والكتابة للاضطلاع بمهامهم •

وهم : العامل وكاتبه ، والقاضيان ، ومسجل الصكوك ، والبقية من المسؤولين عن بيت المـال وجباية الضرائب • أما عملية حفظ السجـلات والأحكام القضائية فقد كانت تتصف بالبساطة والمباشرة • فالأراضى وحقوق المياه تباع وتشترى بواسطة عقود مكتوبة يحتفظ كل طرف بنسخة لـه منها • ولم تكن هناك سجلات مركزية لحقوق المياه أو تقديرات الضرائب ، فمعظم الحقوق والمسؤليات معروفة من قبل أعضاء الجماعة المحلية ، وهى موضع نقاش دائم ، وكان أى مساس بحق من حقوق الآخرين يواجه برد فعل قـوى وفورى •

وكانت التعاقدات المهمة تتم بحضـور أحـد الأعيان المحليين المتعلمين الذى تضفى سمعته الشخصية على الشكل القانونى للتعاقد وكان الكثير من هؤلاء الأعيان موظفين يتقاضون رواتب حكومية ، وإن كانت هـذه المرتبات منخفضـة فقد كان من المنتظر أن تكون لهؤلاء مصادر أخـرى للدخل • ونظراً لعدم وجود سجلات أو أرشيفات حكومية ، كانت عقـود البيع الخاصـة بالسلع والممتلكات تثبت بحضـور أحـد الأعيان المتعلمين •

إذن لم تكن المعرفة بالقراءة والكتابة بالتأكيد أحد المسالك الرئيسية للارتقاء الإجتماعى وبطبيعة الحال كان هناك عـدد من الأفراد كالتجار

ومعلمى القرآن ، والطلبة وناسخى الوثائق والكتاب الخصوصين — الذين يعملون مقابل أجـور زهيدة — يستخدمون معرفتهم الإبتدائية بالقراءة والكتابة •

وفى غياب إحصائيات دقيقة نرى من المفيد عرض نموذجاً لاستخدام المعرفة فى إحـدى جماعات الإمامة •

بلدة حمراء العبريين ، وهى اليوم عاصمة إقليمية (٢٥٠٠ نسمة) كانت فى نهاية الأربعينات مركزاً قبليا يضم حوالى ١٢٠٠ نسمة [١٣] • من بين قاطنيها شخص واحـد له شهرة واسعة فى العلم ، وثلاثون آخرون من سلالة شيوخ العبريين يمكن القول بأنهم على درجة حسنة من المعرفة •

ومن بين هؤلاء الثلاثين خمسة فقط يفقهون أحكام الشريعة الإسلامية والميراث والبيع والزواج إلى درجة تؤهلهم لكتابة العقود الخاصة بهـذه الحالات • وكان هناك خمسـون شخصاً من أبناء البلدة متعلمين — بمعنى أنهم قادرون على القراءة والكتابة وتلاوة القرآن •

واذا قدرنا تجاوزاً عدد المتعلمين فى نهاية الأربعينات بمائة مـن الذكور وبضع إناث فإن نسبة المتعلمين لا تتجاوز الثمانية بالمـائة مـن السكان ولا يتمتع معظمهم بأكثر من المعرفة البدائية •

ولم تتوفر لهؤلاء أية مصادر باستثناء القرآن الكريم وبعض النصوص الدينية والمحفوظات المتداولة بين المتعلمين البارزين [١٤] • ويمكن الاعتماد على تقديرات بلدة الحمراء كمقياس لغيرها من المـدن أو القرى الكبيرة فيما يتعلق بنسبة التعليم بين السكان •

أما الجماعات الصغيرة فحتى التعليم القرآنى كان منخفضاً بهـا ،

وبالتالى كانت نسبة التعليم بينها أكثر انخفاضا • ويجـدر بنا أن نشير إلى أن الشبان العمانيين بدأوا يطلبون العلم فى دول شبه الجزيرة العربية بأعداد وفيرة بعد الأربعينات فقط (١٥) •

التعليم العـالى

ارتبط وجـود التعليم العالى بوجـود العلمـاء المؤهلين لتسيير الحلقات الدراسية فحيثما وجـدوا توفرت حلقات الدراسـة • وعليه فقد كانت بلدتا نزوى والرستاق مركزى تجمع للعلماء •

وكان الطلاب المتقدمون يمنحون فيهما منحاً متواضعة • وكانت حلقات الدراسـة تعقد فى كل من بهلا وسناو والمضيبى والغافات والحمراء •

وأن كانت المعايير التى تقيم جـودة التعليم القرآنى واضحـة ، حيث تعتبر إجادة تلاوة القرآن الدليل على جـودة الدرس • فإن معايير نجاح العلماء فى التعليم العالى كانت غير واضحة ولا محددة المعالم ولم تتضمنها عمليات التعليم الشكلية •

وهذا يعنى أن حظوظ الطلبة المنتمين للنخبة القائمـة ــ والتى ترعاها هـذه النخبة مباشرة ــ فى أن يصبحوا من مشاهير العلماء كانت أكبر من حظوظ الطلبة المنتمين لفئات إجتماعية أخرى • أمـا سمعة العالم فقـد كانت تعنى تبحره فى عدد من المواضيع وقدرته على تدريسها على الرغم من أن نجاحه بالتدريس لم يكن المعيار الوحيد للحكم على كفاءته •

فالحكم على كفاءة العالم مرهون أيضا باعتبارات عدة كتمرسه فى البيان وقدرته على نظم الشـعر ومعرفته بأحكام الشريعة ، واعتراف العلماء الآخرين به وامتلاكه لأسلوب معرفة له قيمته الثقافية •

وتشكل هذه الاعتبارات عمليا جملة أساسية من أنماط اللغة والتفكير الرئيسية ، والتى تصبح بدورها منطلقا لاكتساب أنمـاط جديدة مـن المعرفة [١٦] • وقد ميز امتلاك هـذا الأسلوب المعرفى معظم الشخصيات البارزة فى الإمامة وكان عنصرا أساسيا لضمان شرعيتها الشعبية • وكان على العلماء أن يدرسوا النحـو والصرف والفقه ، وأحكام الميراث بالإضافة إلى ضرورة الماهم بالحساب وعلوم الفلك والجغرافية والشعر •

وباستثناء الإمام ، كان من المنتظر أن يقرض العلمـاء الشعر أو يستشهدوا بأقوال الشعراء والحكم المأثورة المأخوذة عن غيرهم من العلماء المعروفين محليا •

أما الفروق بين موضوعات الدراسة فقد كانت شكلية وبسيطة • وفى حين لم يكن هناك أى إجماع على نصوص معينة أو مناهج محددة ـ كما ولم تكن هناك أفكاراً محددة عن الامتحانات أو عن وضعية الطالب أو ما يعنيه كونه طالباً أو خريجا كان هناك ثمـة اتفاق ضمنى على أن النحـو والصرف وقواعد اللغـة وما يتعلق بها من الموضـوعات كانت أهم بكثير من غيرهـا •

وجرت العادة أن يوافق الأصغر سنا والأفقر حالا من المدرسين على أن يدرس للطلاب هذه الموضوعات الأساسية كوسيلة لكسب العيش • وفى بعض الأحيان كانت الإمامة تدفع رواتب هؤلاء المدرسين ، وحين لم يحصل ذلك كان المدرسون يفرضون مبالغ متواضعة على طلابهم لقاء خدماتهم [١٧] •

وقد ترك القرار للطلبة لاختيار العالم الـذى ارتأوا فيه الكفاءة اللازمـة لإرشادهم إلى الموضوعات والمهارات والنصوص التى تضمن لهم طريق النجاح • ومرة أخرى كان الطلبة المنتمون للنخبة القائمـة يتمتعون بميزة أكيدة •

لم يكن من بين علماء الإمامة من يمتلك شهادات دراسية مكتوبـة

كالإجازات العلمية المعروفة فى أنحاء أخرى من العالم الإسلامى • ففى مجتمع الإمامة الصغير الذى لا يزيد فيه عدد العلماء عن بضع مئات لم تكن هناك حاجة لمثل هذه الشهادات ، والمهم فى الأمر أن يصبح المرء معروفاً بأنه من العلمـــاء •

ويصـــور أحد العلماء الذين شاركوا فى حلقات الدراسة فى الأيام الأخيرة للإمامة الوضع على الشكل الآتى :

> لم يكن هناك غريب فى مجتمعنا • فإن أراد شخص القيام بالتدريس سرعان ما تعرف مقدرته الحقيقية على هذا العمل • فلابد وأن يكون قد درس علوم الدين على يد شيخ معروف • ولكى يبـــدأ التدريس فى المسجد أو فى أى مكان آخر ما كان عليه إلا أن يجمع حوله بكل بساطة مجموعة من الأصدقاء ممن يريدون أن يدرسوا معه ــ وباستطاعة أى شخص أن ينضم إليهم إذا ما أراد ذلك • وفى الماضى كان المدرسون يسعون للحصول على رواتب من الإمام أو للعمل لديه إن لم تكن أجورهم كافية وقد يقـــرر الإمام إرسالهم للتدريس فى بلدة أخرى •

ومن السهل تقدير نسبة التعليم العالى فى الإمامة فى أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات • فالباحثون الذين درســـوا فترة الإمامة يشيرون إلى أن نسبة التعليم العالى ودعم الإمام له ظلا ثابتين خلال القرن العشرين • ففى عام ١٩٥٤ م / ١٣٧٣ هـ ، كان فى بلدة الرستاق اثنان وعشرون طالبا يحصلون على رواتب تتراوح بين خمسة قروش وثلاثين قرشا فى الشهر •

وقد كان نصفهم تقريبا يعمل لدى الإمام فى مجالات أخرى ويعتمدون على إيرادات إضافية لســـد حاجياتهم • وكان يعيش فى حصن بلدة نزوى

على نفقة الإمامة عدداً يتراوح بين الأربعين والستين طالبا • ويعيش عدد مساو لهم تقريبا من مختلف المستويات فى أماكن أخرى من البلدة •

ورغم أن رواتب الطلاب الذين كانوا يعيشون فى حصن البلدة كانت غير منتظمة ، غير أنهم كانوا يحصلون على الطعام والتمر والقهوة يومياً • وقد عمل بعضهم ككتبه ومحاسبين لدى الإمام • وكانت توجد هذه الظاهرة بين المدرسين أيضا • فالمدرسون المتوسطون يعملون فى التعليم طيلة الوقت •

أما العلماء البارزون ، فقد كانوا قضاة وكتبه ومستشارين عند الإمام إلى جانب كونهم علماء ، وكان معظمهم من الأعيان ذوى الملكيات الكبيرة ولهذه القاعدة استثناءات قليلة (١٩) •

فالعلماء إذن كانوا فئة إجتماعية وليس هيئة منظمة أو طبقة اجتماعية فكون المرء من العلماء يعنى عدداً من الصفات يتأتى له الاتصاف بها — لاترتبط بالضرورة بالثراء وبالمكانة الاجتماعية الراقية • ونورد هنا نموذجين موجزين لتوضيح بعض الوجوه الممكنه لهذه الصفات •

كان ابراهيم سعيد العبرى المتوفى عام ١٩٧٥ م / ١٣٩٥ ه واحداً من أبرز العلماء فى الإمامة ، درس على يد الشيخ ماجد بن خميس (المتوفى عام ١٩٢٨ م / ١٣١٦ ه) وهو من مشاهير علماء العبريين ومن أقارب الشيخ ابراهيم ابراهيم •

وقد لعب الشيخ ماجد دورا مؤثرا ، وإن كان غير مباشر ، فى انتخاب الإمامين سالم ومحمد • فقد كان الشيخ ابراهيم مسئولا بصورة مباشرة عن إقناع محمد بن عبد الله الخليلى بقبول الإمامة عام ١٩٢٠ م / ١٣٢٨ه وقد عاش الشيخ ابراهيم فى سنواته الأخيرة واسع الثراء بفضل ما آل له من إرث وبفضل ذكائه فى تصريف موارده •

وقد عمل لعدة سنوات شيخاً وقاضيا للعبريين ومستشاراً للإمام

فى نفس الوقت • ثم رحل إلى الساحل بعد أن سجنه الإمام إثر وقوع أحداث عنف قبلية عام ١٩٣٨ م / ١٣٥٥ هـ • وقد عمل هناك قاضيا لدى السلطان سعيد بن تيمور •

وسرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها بينه وبين الإمام فأصبح بذلك الشيخ إبراهيم واحداً من العلماء العديدين الذين عملوا فى نفس الوقت فى الإمامة والسلطنة • وبعد عام ١٩٧٠ أصبح الشيخ إبراهيم مفتى السلطنة الأول •

وخلال حياته الحافلة ، كان الشيخ ابراهيم يقوم بالتدريس يوميا تقريبا • فعندما كان مقيماً فى الحمراء ، كان يدرس فى أوقات مختلفة من اليوم ، فى منزله بالبلدة وفى بيوت الضيافة (السبل) فى الحدائق وفى المسجد الكبير • وكان بعض طلبته من أقاربه ومساعديه المقربين بالإضافة إلى طلبة آخرين من أماكن أخرى من عمان يعيشون على نفقة الشيخ فى بلدة الحمراء •

وفى حلقات الدرس التى كانت تضم عادة ما بين اثنى عشر إلى خمسة عشر من الطلبة الأكبر سنا ، يختار الشيخ النص المراد شرحه والتعليق عليه ويقوم أحد المستمعين بقراءته بينما يستوقفه الشيخ بين الحين والآخر لإلقاء تعليقه •

ولم يكن أحد من الحاضرين يدون أية ملاحظات فى هذه الحلقات • ورغم أن الأسئلة كانت مسموحة إلا أنها لم تكن كثيرة فى الواقع • وكان بعض الطلبة وخاصة من أقاربه ، يلازمونه لعشرات السنين ويتبعدنه فى تنقلاته الإدارية • بينما كان آخرون يحضرون حلقته الدراسية لأيام معدودة أو لأسابيع قليلة •

كما كان الشيخ على اتصال دائم بغيره من العلماء فى سائر أنحاء عمان سواء فى المناطق الخاضعة للإمام أو الخاضعة للسلطان •

كان النظام اليومى للإمام محمد بن عبد الله الخليلى أيضا خليطا من التعليم والسياسة ففى كل صباح ، عقب صلاة الفجر ، يذهب الإمام إلى إحدى قاعات الضيافة الكبيرة فى الحصن حيث يوجد مقره الخاص ويبدأ يومه بتلاوة القرآن •

بعدما يعقد « البرزة » وهى جلسة عمومية يقوم خلالها الإمام بتصريف الأعمال الطارئة ، ويتقبل الضيوف برفقة كبار قضاته ومستشاريه والأشخاص الذين يتصادف وجودهم فى مقر الإمامة • وبعد صلاة الظهر يركن الإما مللراحة إلى حين صلاة العصر ، وغالباً ما يمر هذا الوقت فى تجاذب أطراف الحديث مع جماعة صغيرة من الأصدقاء والمقربين والأعوان بعدها تعقد برزة ما بعد الظهر فى إحدى قاعات الحصن أيضا •

وبعد صلاة المغرب تعقد حلقة دراسية فى إحدى قاعات الضيافة خارج الحصن • وكان الدارسون يتبعون نظاما مشابها لذلك فى توقيت أنشطتهم •

التعليم والإمامة

سنتناول بالبحث فى دراسات أخرى أسلوب الإمامة فى تصريف الأمور فى القرن العشرين بصورة موسعة • أما هنا فنرى من المفيد أن نشير إلى خاصتين رئيسيتين من خصائصها — خاصتين تتعارضا قطعيا مع الأفكار الشائعة حول أسلوب عمل الإمامة ، فمن ناحية ، لم يكن فى حكم الإمامة أى تمييز بين القيادة الدينية والقيادة الدنيوية •

وبالتالى فقد كان باستطاعة عمال الإمام الزعم أنهم يحكمون وفقا لأحكام الشريعة الاسلامية • ومن ناحية ثانية — كما سبقت الإشارة إليه — كان هناك تعاون ودى وثيق بين الإمام والسلطان بين الثلاثينات والخمسينات • فالسياسة المتعمدة التى انتهجها السلطان سعيد بن تيمور

بتشجيعه علماء الإمامة على مشاركته فى الإدارة كانت تهدف بالضرورة إلى إبلاغ رجال القبائل فى الداخل عن عزم السلطان على الحكم وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

وقد خطا السلطان باعتماده على المصدر ذاته للشرعية الشعبية الخطوة الأولى عملياً نحو توحيد السلطنة .

وفى المراكز الإقليمية فى الداخل ، كان ينوب عن الإمام رجال عملوا كقضاة وحكام فى الوقت ذاته . أما فى المراكز الكبيرة كبلدتى نزوى والرستاق ، فقد كان القضاة متفرغين كما كان الأمر عليه فى بعض المراكز القبلية التى خضعت لنفوذ الإمام ولم يكن شيوخها متمكنين من الشريعة الإسلامية بشكل يؤهلهم لفض النزاعات وإبرام العقود وفقاً لأحكامها .

وكما كان الإمام يتخذ قراراته فى مركز الإمامة بحضرة دائرة من الأعيان الموثوقين والعلماء ، فقد كان لعماله ولزعماء القبائل فى مراكزهم الإقليمية مجالسهم غير الرسمية (التى تعرف بالجماعات) . وكانت تصاغ القرارات التى تتخذ بشكل يضفى الشرعية على العمل السياسى وفقا لأحكام الشريعة .

وكانت هذه المفاهيم تحد من مدى تصرفات سائر المسلمين بما فيهم الإمام فعلى سبيل المثال بعد أن اندلعت فى منطقة العراقى (بالقرب من عبرى) أعمال عنف قبلية فى الثلاثينات أراد الإمام معاقبة شيوخ إحدى القبائل بمصادرة ممتلكاتهم من الأراضى وتحويلها لبيت مال الإمامة .

إلا أن مستشاريه نجحوا فى معارضة قراره لأن الشيوخ المعنيين كانت لديهم صكوك تثبت ملكيتهم للأرض بصورة شرعية . كما أن إصدار

الحكم بالموت لا يتم إلا بعد المشورة على الرغم من أن للإمام وحده الحق فى إصدار حكم من هذا النوع وليس لأحـد من أتباعه هذا الحق .

وان تعلق أمـر الحكم بالموت بذوى المكانة السياسية فإنه يتم أيضا بعد مشاورات سرية بين الإمام ومستشاريه ولا يعلن على الملأ إلا بعـد تنفيذه بنجاح (٢١) . ونظراً لمـا تمتعت به الإمامة من سمعة لعدالتها ، كان المجرمون يرسلون إلى الإمام من المناطق التابعة لنفوذ السلطان لينفذ فيهم حكم العدالـة .

وتتعلق معظم المراسلات التى تمت بين الإمام وعماله وزعماء القبائل — والتى مازالت محفوظة — بالمنازعات القبلية وجباية الضرائب وتصريف أموال الإمامة وتسـوية النزاعات بين التجار إلى غير ذلك من الأمور . وفى مكاتباته لزعماء القبائل وغير العلماء كان الإمام يستعمل أسلوباً مقتضبا ولهجـة حـادة .

أما إذا تعلقت المكاتبة بأحد العلماء فإن اللهجة والأسلوب تتغيران مما يدل على العلاقة المثالية التى كانت قائمـة بين الإمام والعلماء . فقد كتب الإمام إلى أحـد القضاة الـذى قد عينه فى بلدة الرستاق يقـول ما معناه : « إذا أخطأت بإدانة شخص بغير حق تكون قد ارتكبت خطأ فادحاً . لذلك من الأفضل التروى فى الأحكام والتيقن منها » .

ولمـا كان القاضى المعنى بالأمر غريباً عن المنطقة ، فقد نصحه الإمام باستشارة أشخاص معينين يملكون الشجاعة الكافية لإخباره عن أصـل الفساد من العامة والأعيان على حـد سـواء . كما خص الإمام بالذكر بعض الأفراد الذين قد يخشـون إبلاغ القاضى بالأخطاء التى يرتكبهـا ذوو النفـوذ .

وقد حذّر الإمام القاضى حتى من هؤلاء الذين امتدحهم فى رسالته ،

« إن بعض الأشخاص المعروفين بالصدق قد يكذبون فى بعض الأحيان وبالمثل فإن كذابا معروفاً قد يصـــدق فى بعض الأحيان » • ويختم الإمام رسالته : « إذا ما أصدرت اليك أوامرى فتدبرها قبل تنفيذها ، فقد أكون مخطئا وإذا كنت كذلك فلاتتردد فى إبلاغى ، فقد لا تكون بحوزتى كل الحقائق • المهم ، لا تخش غضبى وبلغنى بخطأى حين تعتقـــد أنى مخطىء » (٢٢) •

ولفهم الطريقة التى كانت تصنع بها القرارات الحرجـــة وصانعيها فلابد من النظر فى جـــو المجالس التى يتوصل فيها الإمام وأعوانه إلى قراراتهم هذه والأخذ بعين الاعتبار عدم وجود حـــد يفصل عمليا بين الأعوان والعلماء فى هذه المجالس فثمانية من الأربعة عشر شخصاً الذين حضروا انتخاب الإمام سالم عام ١٩١٥ م / ١٣٣٣ هـ كانوا علماء •

وستة من العشرة الذين حضروا انتخاب الإمام الخليلى كانوا علماء أيضا • وفى كلا الانتخابين ، كان العـــديد من العلماء زعماء سياسيين لقبائلهم • ومن المهم أن نشير فى هذا المجا إلى العبارات التى استعملها السالمى فى وصف الناخبين فهى تدل بوضوح على أن هؤلاء لم يكونوا من العلماء وحدهم ، بل منهم العلماء والأعيان « والقادرون على أداء يمين البيعة للقبيلة أو للجماعة أى أرباب الحل والعقد » (٢٣) •

أما غير المؤهلين، فنورد على ذلك مثلاً سليمان بن حمير ، فقـــد كان عليهم أن يعتمدوا على من امتلكوا المؤهلات العلمية الكافية • وعلى العموم فقد سيطر العلماء ذوو الحكمة السياسية على الاجتماعات الهامة وأعطوا الشرعية لقرارات الإمامة ــ وكانوا فى الغالب كما أشرنا مـــن أصحاب الأملاك •

وقد أعطى احترام العلماء فى قرارة أنفسهم للمبادىء التى بنوا عليها قراراتهم الإمامة سلطتها الشعبية • وساعد احترام المبادىء ذاتها على انضمام علمـــاء الإمامة التدريجى لإدارة السلطان سعيد بن تيمـــور منذ الثلاثينات ، وسهّل امتداد نفوذ السلطنة عمليا إلى عمان الداخلية خاصة بعد التأكيدات التى أعطاها السلطان سعيد للعلماء حين زار بلدة نزوى عام ١٩٥٥ م وأكـــد لهم احترام السلطنة لمصالحهم وسلطتهم •

الهوامـــش

تقوم هذه الدراسة على أساس البحث الميدانى ، الذى مازال جاريا فى عمان الى وقت الانتهاء من كتابة هذا المقال فى سبتمبر ١٩٨٠ . وقد بدأ الشروع فيه فى سبتمبر ١٩٧٨ بدعم مالى من مؤسسة العلوم الوطنية الأمركية بموجب المنحة رقم BNS — ٧٩٠٧١٢٧ ، وتشرف عليه محليا وزارة الشئون الاجتماعية والعمل .

وانى أغتنم هذه الفرصة لاتقدم بالشكر الى السيد / أحمد ابراهيم مدير الداخلية السابق على الملاحظات التى أبداها حول سياسة السلطان سعيد بن تيمور ازاء الامامة فى الثلاثينات كما أود أن أشكر كذلك الطالب الذى تدرب معى السيد صالح خلف المعولى على المساعدات التى قدمها لى .

---

(١) رسالة مؤرخة بـــ ٢٥ شعبان ١٣٣٥ / ١٦ يونيو ١٩١٧ . أرسلها الشيخ سالم بن راشـــد الخروصى « امام المسلمين » يعين فيها محمد بن سالم الرقيمشى عاملا على ازكى .

وقد وردت هذه الرسالة فى مؤلف محمد بن عبد الله السالمى « نهضة الأعيان بحرية عمان » ص ٣٧٦ . دار كتاب السر — القاهرة حوالى عام ١٩٦١ وتستخدم الرسائل المماثلة نفس التعابير بصورة رئيسية .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨ .

(٣) أعطت نتائج المسح الاجتماعى الذى أجرى فى بلدة الحمراء فى عمان الداخل (فى مارس ومايو ١٩٨٠) النتائج التالية :

لم يكن هناك ســـوى ٣٧ ٪ من الذكور ما فوق سن ٢١ يحسنون القراءة والكتابة بينما تبلغ النسبة عند الاناث ٢٠ ٪ . أما بالنسبة للذين يتعدى عمرهم سن الأربعين والذين تعلموا أساســـا فى الامامة فان نســـبة المتعلمون فيهم لا تزيد عن ٨ ٪ .

أما فى المناطق الريفية التى لا تتوفر بها مدارس حكومية فان نسبة المتعلمين ما بين البالغين لا تزيد عن ٥ ٪ . هذا اذا استبعدنا التأثير الحديث لبرامج التعليم فى الجيش بالنسبة للمجندين الجدد .

(٤) J. B. Kelly, «A Prevalence of Furies : Tribes, Politics, and Religion in Oman and Trucial Oman,» in **The Arabian Peninsula : Society and Politics,** ed. D. Hopwood (London : George Allen and Unwin Ltd., 1972), p. 108; J. C. Wilkinson, «The Ibadi Imâda,» **Bulletin of the School of Oriental and African Studies** 39 (1976) : 535 - 551; **Water and Tribal Settlement in Southeast Arabia : A Study of the Aflâj of Oman** (Oxford : Clarendon Press, 1977).

للاطلاع على نقد لوصف البناء الاجتماعى العمانى الوارد فى هذه المراجع انظر مقالة المؤلف :

Dale F. Eickelman, «Religious Tradition, Economic Domination and Political Legitimacy : Morocco and Oman,» **Revue de l' Occident Musulman et Meditérrannée** 29 (1980) : 17-30.

(٥) أود أن أتوجه بالشكر بالخصوص لصاحب الجلالة السلطان قابوس ابن سعيد الذى تفضل واستجاب لطلبى المقدم بتاريخ مايو ١٩٨٠ فى شأن المراسلات التى كانت بين السلطان سعيد بن تيمور والامام محمد بن عبد الله الخليلى .

ورغم أن هذه المراسلات كانت ودية بين الاثنين الا أنه تجدر الاشارة الى أن السلطان لم يكن يلقب الخليلى بالامام سواء فى مراسلاته أو فى أحاديثه غير الرسمية مع أتباعه رغم أنه كان يضفى عليه ألقاب التعظيم كالعالم العلامة مما يدل على احترامه الكبير له كعالم بارز .

(٦) للاطلاع على المزيد من التعبيرات المعاصرة للعقيدة الاسلامية راجع كتاب المؤلف « رؤية انثربولوجية للشرق الأوسط » ص ٢٠١ — ٢٦٠ .

Dale F. Eickelman, **The Middle East : An Anthropological Approach** (Englewood Cliffs and London : Prentice - Hall, Inc., 1981), pp. 201-260.

(٧) Gaetano **Mosca, The Ruling Class : Elementi di Scienza Politica** (New York : McGraw - Hill, 1939).

(٨) كان الأثرياء يسعون لتعزيز مكانتهم عن طريق القيام بأعمال البر والتقوى كبناء المساجد والمدارس . فى هذا الباب انظر مخطوطة الشيخ ابراهيم سعيد العبرى — المتوفى فى سنة ١٩٧٥ م / ١٣٩٥ هـ .

« كتاب تبصرة المعتبرين فى تاريخ العبريين » مخطوط تحت رقم ١٩٧٨ / ٥٩ — ١٩٥٨ . ص ١٠٦ وأماكن أخرى فى الكتاب .

أود أن أشكر هنا السيد جابر موسى العبرى الذى سمح لى بدراسة نسخته من هذا المخطوط .

(٩) راجع دراسة المؤلف « فى الحفظ ، التعليم الاسلامى وتوليده الاجتماعى »

Dale F. Eickelman, «The Art of Memory : Islamic. Education and Its Social Reproduction» **Comparative Studies in Society and History** 20 (1978) : 485 - 516.

وكذلك دراسة دانييل أ . واجنر وعبد الحميد لطفى .

Daniel A. Wagner and Abdelhamid Lotfi, «Traditional Islamic Education in Morocco : Sociohistorical and Psychological Perspectives,» **Comparative Education Review** 24 (1980) : 238 - 251.

(١٠) يفصل بين التلاميذ الذكور والاناث فى معظم المدارس القرآنية فى عمان الداخلية ، وان كانت هناك مدارس مختلطة فى عدد قليل من القرى .

وعلى العموم فان العدد القليل من الفتيات الحاضرات يكن فى صحبة ورعاية الأخ الأكبر الملتحق بالمدرسة أما فى المراكز الكبرى مثل نزوى والحمراء وبهلا فكانت هناك مدارس خاصة بالاناث تسيرها معلمات . والواقع أن بنات الأسر الموسرة هن اللواتى تلتحقن أساسا بهذه المدارس .

(١١) أنظر مقالة المؤلف — عن الحفظ فى المرجع السابق — ص ٤٩٢/ ٤٩٦ — وكذلك مقالة واجنر ولطفى — المرجع السابق .

(١٢) هذه المعلومات من بلدة الرستاق مأخوذة عن دفاتر بيت مال بلدة الرستاق لعامى (١٣٧٢ / ١٣٧٣ — ١٩٥٣ / ١٩٥٤) واننى لمدين للشيخ سيف بن سالم اللمكى الذى أتاح لى فرصة دراسة هذه الدفاتر .

(١٣) احصاء السكان الحالى مأخوذة من المسح الاجتماعى الذى قام به كاتب المقال فى بلدة الحمراء فى شهرى مارس ومايو ١٩٨٠ .

أما التقديرات الأخرى الخاصة بأواخر الأربعينات فهى تعتمد على تقرير موجز عن الحمراء . « ملاحظات حول قبائل سلطنة مسقط وعمان » بلا تاريخ (ولكنه بعد ١٩٥٠) . توجد وثيقة ضمن سجلات « شركة تنمية بترول عمان المحدودة » — متحف البترول — ميناء الفحل .

(١٤) تاريخ العبريين السالف الذكر الذى ألفه الشيخ ابراهيم بن سعيد وهو مكون جزئيا لمثل هذه المخطوطات . وهو يشير بصورة عرضية فى مؤلفه الى الطريقة التى كانت تتداول بها هذه الكتب .

(١٥) من الاستثناءات الجزئية لهذا الحكم يمكن أن تكون نزوى والمنطقة الشرقية اللتان كانتا ترتبطان بالعمانيين الذين هاجروا الى أفريقيا الشرقية والتى تضم عددا من العائدين منهم فالعمانيون المهاجرون بشرق أفريقيا ساعدوا على نشر اللغة العربية كما كانوا يرسلون الأموال بانتظام لجماعاتهم فى عمان الداخلية للمحافظة على التعليم الدينى بها .

(١٦) أنظر Pierre Bourdieu, «Systems of Education and Systems of Thought,» International Social Science Pournal 19 (1976), p. 343.
وللاطلاع على بحث حول التعبير « أسلوب معرفة » انظر ايكلمان : المرجع السابق ذكره ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

(١٧) كانت الرواتب السائدة فى أواخر الأربعينيات قرشا واحدا شهريا للتلاميذ ومن الصعب تحديد القيمة الدقيقة للنقود فى عمان الداخل فى هذه الفترة ولكن من حيث المقارنة كان راتب « العسكرى » خمسة قروش بينما كان العامل الزراعى يكسب ربع قرش يوميا . (المصدر دفاتر بيت المـــال لبلدة الرستاق) .

(١٨) المصدر : دفاتر بيت المال لبلدة الرستاق لعامى ١٣٥٣م / ١٣٧٢هـ وسيرة حياة الأشخاص الاثنين والعشرين الواردة أسماؤهم فى القائمة توضح أن معظمهم كان على مستوى عال من العلم فثمانية منهم أصبحوا قضاة أو نوابا للقضاة كما أصبح أحدهم نائبا للوالى وهناك ثمانية آخرون أصبحوا معلمين بالمدارس القرآنية وواحد أصبح مؤذنا فى أحد المساجد الكبرى فى مسقط .

(١٩) أحد الاستثناءات القليلة الملحوظة هو الشيخ عبد الله بن محمـــد « أبوزيد » الريامى (المتوفى عام ١٩٤٦ م / ١٣٦٥ هـ) وكان واحدا من أبرز طلبة نور الدين السالمى الفقيه الأعمى الذى كان أحد القوى الرئيسية وراء عودة الامامة عام ١٩١٥ م . وكان الشيخ أبوزيد فى معظم فترات حياته عاملا وقاضيا لبلدة بهلاء ومستشارا محترما للأئمة الخروصى والخليلى . وكان أول تعيين له كقاض فى ازكى وعندمـــا ذهب العلماء الى مسكنه لتهنئته بالتعيين اكتشفوا أن كل ما يستطيع أن يقدمه لهم كنوع من الضيافة هو المـــاء والتمر والقاشع بدلا من القهوة أو وجبة اللحم والأرز . وطوال دراسته لم يطلب الشيخ على الاطلاق أية مساعدة مالية .

(٢٠) انظر الشيخ ابراهيم بن سعيد المرجع السابق ذكره فى ص ١٣١ — ١٣٣ للاطلاع على روايته للواقعة .

(٢١) للاطلاع على وصف منشور لمثل هذه الواقعة انظـــر السالمى . المرجع السابق ذكره فى ص ٣٤٠ — ٣٤١ بشأن اغتيال خلفان بن الشتين فى النخل فى عام ١٩٢٣ م / ١٣٤١ هـ .

(٢٢) رسالة من الأمام محمد الخليلى الى الشيخ سعيد أحمد سعيد الكندى بتاريخ ١٥ يناير ١٩٣٠ م / ١٤ شعبان ١٣٤٨ هـ . واننى لمتن لابنه الشيخ أحمد سعيد أحمد ، لسماحه لى بالاطلاع على هذه الرسالة .

(٢٣) السالمى : المرجع السابق ذكره فى ص ١٣٥ / ١٣٨ .


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٠٠٢
الرقم الخاص : ٠٨٠

بدو عمان الوسطى

بقلم

نور الضحى الشطى

The Beduins of Central Oman

Prof. D. Chatty

يمكن تعريف بدو عمان الوسطى على أنهم مجموعات متجانسة ، متنقلة متحدة ، تقتسم أرضاً ذات تضاريس وعرة وصعبة • وكان النشاط الاقتصادى الرئيسى لهؤلاء الناس ومازال إلى حد ما يقوم على أساس تربية الحيوانات من الجمال والماعز بواسطة الرعى الطبيعى •

أن طريقة الحياة هذه التى تسمى بالحياة البدوية الرعوية موجودة فى منطقة الشرق الأوسط منذ ثلاثة آلاف عام على الأقل •

وقد تطورت هذه الحياة على مدى قرون من التكيف حسب بيئة قاسية وغريبة • وأصبحت جزءاً لا يتجزأ ديناميكيا من الحضارة السائدة فى الشرق الأوسط •

ويمكن وصف هذه الحضارة العامة بأنها تكيف ثقافى معقد ومتوازن حسب الأرض ، وغالباً ما توصف « بالثلاثية الإيكولوجية » وهو عبارة عن نظام يتكون من ثلاثة أنماط من المجتمعات المتكاملة وهى : الحضرية والريفية والرعوية ، ولكل منها طريقة حياة مميزة ، وتعمل فى كيان مختلف ، وتساهم فى دعم القطاعين الآخرين ، وبالتالى صيانة المجتمع كله •

ولقد جرت فى غضون العقدين الماضيين تغيرات هائلة فى كل قطاع من هذه « الثلاثية الأيكولوجية » فى الشرق الأوسط • وكان أى تغيير فى قطاع منها يؤثر حتما فى القطاعين الآخرين فى « الثلاثية الأيكولوجية » ، ولا تستثنى عمان من ذلك • ولقد كانت التغيرات فى القطاعين الحضرى والريفى واضحة ودراماتيكية •

ففى القطاع الرعوى كانت التغيرات أساسا نتيجة الاتصال بفرق

البحث والتنقيب عن البترول وكانت تغيرات هامة أيضا • إن هدف هـذا البحث هو فحص هذه التغيرات •

وستجرى محاولة لإجراء تحليل اعتمادا على أبحاث غير مفهرسة لشركة التنمية النفطية العمانية المحدودة ، وذلك لتحديد مدى الأثر الذى سيحدثه الاتصال الحتمى بالقوى الغربية القانونية والاقتصادية والبيروقراطية • وهو ما تمثله شركة التنميـة المذكورة ، على هؤلاء الأقوام الرعويين • هل كانت هناك عملية ديناميكية للتكيف حسب البيئة المتغيرة ؟ أو هل رضيت هذه القبائل البدوية أن تلتحم بالفئات التى تتناسب وجهاز الدولة الحديث ؟

لقد كانت عمان مثل كثير من غيرها من دول الشرق الأوسط ، تقطنها منذ بدء التاريخ • موجات متتابعة من الشعوب السامية وغير السامية ولقد جاء الاستيطان فى عمان من مشارف الصحراء • من اتجاهين ، الأول على طول السـاحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية والثانى عبر الباب الشمالى للبوريمى •

إن الأصل الأسطورى لجميع القبائل العربية يرجع إلى عدنان أو قحطان وهما الشقيقان الأسطوريان اللذان يعتقدان أنهما أسسا الجنس العربى • وكانت الجماعات التى دخلت عمان الكبرى على طول الأراضى الحدودية للمناطق التى استوطنتها القبائل فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، جماعات قحطانية على العموم ، فى حين أن الجماعات التى دخلت عن طريق الهجرة الشمالى لواحة البوريمى ، كانت من العدنانيين •

ومع أن الحكايات التى تواترت عن موجات الهجرة الأولى • كانت

شبه أسطورية ، إلا أن جميع الأدلة تشير إلى أنها جرت أثناء القرنين الأول والثانى للميلاد [٢] .

كانت أول من دخلت عمان الكبرى جماعة قحطانية بزعامة مالك بن فهم ، مع بعض جماعات المهرة . وقد انتشرت هذه الجماعات على طـول المنطقة الساحلية الجنوبية وبدأت تستوطن فى جعلان .

وعلى طول الجانب الغربى للجبل الأخضر [٣] امتدت واستمرت هجرة هذه الجماعات من الطريق الجنوبى على مدى أربعة أو خمسة قرون تقريباً حتى صـدر الإسـلام .

ويبدو أن قبيلة « طى » كانت القبيلة الكبيرة الوحيدة التى وصلت إلى عمان سالكة هذا الطريق ، أما جميع الفئات العربية الأخرى فإنهـا وصلت إلى عمان على ما يبدو ، من الشمال .

وكانت المجموعة الشمالية الكبيرة الأخيرة التى وصلت إلى عمان هى قبيلة « الأردشانوءا » . ويبدو أن وصولهم قد تصادف مع فترة اعترى الحكم الفارسى فيها الضعف على طول ساحل الباطنة .

« واستطاعوا ان يتوغلوا حتى قلب المـازون » . ونتيجة لاستيطانهم فى منطقة عمان الخاضعة للسيطرة الفارسية ، فإنهم كانوا بالتالى خاضعين مباشرة للفرس ، وإن كان الفرس قد اعترفوا بمركزهم البارز « كملوك العرب » واستطاع هؤلاء بمناصرة الفرس لهم أن يمارسوا سيطرة ما على غالبية القبائلالعربية فى عمان الكبرى .

ومع انبثاق فجـر العصر الإسـلامى ، أبعدت الجماعات الحاكمة الفارسية من عمان وانتقلت السلطة إلى العرب وكانت البلاد طوال المائة

عام التالية وحتى قيام الإمامة العبادية بعد عام ٧٢٠ للميلاد بقليل ، تحت حكم الشياخات العربية الـذى يشبه شكلاً من أشكال الحـكم القبلى البدوى •

ولقد جرت تغييرات عميقة فى كيان عمان القبلى على مر القرون ، فقد مالت قبائل بدوية كثيرة الى الاستقرار ونزحت عن مناطقها القبلية الأصلية •

وهناك قبائل بدوية أخرى استقرت بعد أن تكيفت حسب تيار التاريخ وانشأت فروعاً مستقرة وأخرى رعوية •

ومع ذلك فإن كل هذه الجماعات قد تأثرت بتيار التطورات التاريخية فى الصراع من أجل السيطرة على هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية •

إن أساس الحياة البدوية الرعوية هو الهجرة التى تقررها مجموعة من التقلبات الموسمية والبيئية ، إلى مواقع الرعى والمياه • ونظرا لأنه يمكن أن يكون هناك نقص فى المياه أو الرعى فى منطقة بعينها فى حين تكون هناك وفرة منهما فى منطقة أخرى ، فإن بقاء قطعان الماشية والرعاة ، يجعل انتقالهم من مناطق النقص إلى مناطق الوفرة أمراً منطقيا وضرورياً •

ويندر أن يعثر على المـاء والمرعى بطريقة عشوائية متناثرة فى منطقة بعينها • ولكنها تكون عادية موزعة بشكل منتظم طبقاً لنوع موسمى خاص من المنـاخ ، فليس التعاقب المنتظم للفصول المعروفة وحده هو الذى ينظم تحركات البدوى الرعوية السنوية ، وإنما يجرى ذلك بدافع من نزعته الإقليمية •

ان كل جماعة تسعى إلى السيطرة على منطقة تحتوى على موارد كافية لسد احتياجات حياة المجتمع القبلى ولكل مجموعة منها منطقة محددة ذات حدود مفهومة وإن كانت متغيرة فى الغالب •

كما أنها تتمتع بحقوق الانتفاع بأراضى الآخرين دون إلحـاق ضرر بها وكانت تنزع أحيانا إلى نكران هذه الحقوق على الآخرين ولو كان الثمن هـو الحرب •

إن أى قبيلة رعوية لا تحاول أن تجعل قطعانها ترعى خارج منطقتها التقليدية إلا فى حالة الطوارىء • وهكذا يتبين أن السياق المنتظم للفصول المناخية والنزعة الإقليمية تشتركان فى وضع دائرة الرعى العادية خارج إطار الخطر •

إن التنظيم الاجتماعى البدوى الرعوى يتطلب مرونة هائلة حتى يتسنى له السماح بحـدوث تكيفات حسب التقلبات المحلية فى التوافر الموسمى للماء والمرعى • وتتركز الصراعات تقليديا بين القبائل ، أو الجماعات الشبه القبلية ، حـول حقوق المـاء والمرعى أو حق الاستفادة منها • وتميل هذه الصراعات حول سيولة الوصول إلى هذه الموارد الطبيعية وإلى الازدياد فى أوقات الندرة والنقص فى فترات الوفرة •

تشمل الخصائص الأساسية لمنطقة الرعاة ، المرعى الشتوى ومناطق المـاء الدائمـة لاستغلالها صيفا ، والمرور إلى سـوق حضرية ، فإن السيطرة المستقرة نسبياً لجماعة من عناصر مرتبطة ببعضها البعض بالنسب المنتظمة على منطقة من هذا القبيل • تجعل من هذه الجماعة قبيلة بدوية رعـوية •

إن المحـور الأساسى فى تنظيم قبلى بدوى رعوى هو الشيخ العالى المقام • فهو الزعيم المركزى ويتمتع تقليدياً بامتيازات وسلطات واسعة كثيرة وهو يمارس سلطته فى :

— توزيع المراعى •

— تسوية النزاعات التى تعرض عليه •

— يمثل القبيلة أو أى عضو من أعضائها فى معاملات هامة سياسيا مع اناس مقيمين أو مع السلطة المركزية •

إن الوظيفة الأولى أساساً تدعو إلى تنسيق الهجرة ، أما كيف تجرى معالجتها فهذا أمر مرهون إلى حـد كبير بجوانب معينة للبيئة الطبيعية ، ذلك أنه كلما تزداد التضاريس وعورة ونمط الهجرة تعقيداً • كلما ازدادت السمة الرسمية للجهاز الإدارى الذى يكون تحت تصرف الشيخ والعكس بالعكس •

والوظيفة الثانية وهى تسوية النزاعات بطريقة غير رسمية • لأنها تحكمها العادات والمساومات وتنظمها عقوبات شائعة ، ولا ترفع النزاعات إلى الشيخ ليتصرف كحكم بصددها إلا إذا تعذر حلها بطريقة غير رسمية •

ويتخذ الشيخ عادة رأيه بعد استعراض رأى الأغلبية ولكن لا يتمتع على العموم بسلطة لوضع قرار موضع التنفيذ • ولذلك لابد أن يعتمـد على سلطته الأدبية وموافقة المجتمع على وجهة نظره •

والوظيفة الثالثة ، هى تسـوية الصراعات مع المجتمعات المستوطنة • وحتى فى هذه الحالة يتلقى الشيخ النصح والمشـورة من مجلس الكبار الذين تعتبر آراؤهم غير رسمية • ويتوقف تنفيذ قرارات من هذا القبيل على نفوذ الشيخ الشخصى وسلطته الأدبية •

وهذا من شأنه أن يلمس مشكلة أساسية هامة فى علاقات الأقسام الثلاثة للثالوث الأيكولوجى •

ولمـا كان من المحتم على البدوى الرعوى أن يتنقل من أجل قطيعه وأن يبقى مستقرا فى مكانه • فإن الاتصال لا يمكن أن يدوم طويلا •

ولذلك لا يمكن إنشـــاء جهاز عملى لتنظيم علاقات اجتماعية بوسيلة أخـــرى غير العنف إلا بتمرير الصراعات عبر أجهزة إدارية أساسية كفيلة بتسوية الخلافات وذلك بتحويل المصالح إلى نقطة حيث يمكن إجـــراء مقارنة بينها •

إن من مصلحة الشيخ أن يحافظ على علاقات مستقرة سليمة مـــع مراكز القوة فى المجتمع المستقر • وفى حين أن علاقات البدوى الفرد بالمجتمع المستقر علاقات مؤقته غير مستقرة ، فإن الشيخ يصبح طرفا مشاركاً مع الصفوة الحاكمـــة •

وهكذا يتطور مكتب الشيخ إلى جهاز مكيف ثقافياً يجـــرى بواسطته التوسط فى مصالح البدوى التى تتعارض مع المؤسسات الحضرية ، والتى غالبا ما تكون بالغة التعقيد • وهى مصالح تتعلق بهيئته •

وصفوة القول إن التنظيم السياسى المركزى لمكتب الشيخ ، يتميز بقبيلة بدوية رعوية • ومع أن السلطة النهائية تتركز عند الشيخ • فهى تقـــوم على أساس تقييم دقيقللمشاعر القبلية •

إن الاغفال المتكرر للإجماع القبلى يمكن أن يؤدى إلى انتقال تدريجى فى السلطة والنفوذ إلى رجل قبلى آخر ينتمى إلى عائلة شيخ من الشيوخ •

وعملاً بهذه المرونة ، فإنه يمكن أن يكون أحسن وصف للشيخ هـــو أنه واحد بين الأنداد ـــ ولو أنه أكثر نداً ـــ وليس حاكما مطلقا •

ومن بين القبائل البدويـــة الكثيرة فى عمان ، هناك أربع منها قـــد تأثرت على وجه الخصوص • بالأحداث السياسية والقانونية التى جرت فى عمان طوال المائة عام المنصرمة •

إن تجاوب هذه القبائل البدوية الرعوية الأربع وهى الوهابية والدورية والجنابية والحراسيس يعتبرها مفتاحاً لعملية التكيف التى أثرت على القبائل الرعوية ، ليس فى عمان وحدها فحسب وإنما فى جميع الدول المنتجة للنفط فى شبه الجزيرة العربية .

يحتل الوهابيون منطقة تقع بين « سفرة الدوح » وساحل عمان الجنوبى ويحدها من الغرب واد ىحلفين ومن الشرق المناطق المستوطنة فى الشرقية .

وإلى جانب ذلك ، فإنهم يوجدون منتشرين مع الجنابين فى المنطقة الساحلية الواقعة بين خلوف ودقم . وتشكل رمال الواهبة كثيرا من الجزء الشرقى لمنطقتهم ، ولكن فى القريب يتيح وادى خلفين ووادى عندام ووادى الأثيلى المراعى لماشيتهم .

ويعتبر الوهابيون أناساً رعويين ، ولكنهم يهاجرون فى الشتاء داخل أراضيهم الصحراوية طلباً للمرعى لماشيتهم .

وفى الصيف ينتقلون إلى طرف الشرقية حيث تمتلك القبيلة بساتين نخيل كثيرة فى مناطق مثل برزمان وأبيوه وسناو وتعتبر هذه مناطق الوهابيين الصيفية الرئيسية ويتكلمون عن سناو على أنها « العاصمة الوهابية » . ويعتبر صيد السمك نشاطاً بين سكان الوهابيين المقيمين فى المناطق الساحلية .

وفى الصيف حينما تجعل الرياح الموسمية هذه المهنة أقل جاذبية . تميل العائلات المقيمة فى الساحل للهجرة إلى المستوطنات الوهابية الواقعة على مشارف الشرقية لجمع محصول البلح .

وتنتشر قبيلة الدورو فوق منطقة كبيرة تمتد من وادى السفح والرمال

فى الغرب والشمال الغربى حتى السهل الشبه القاحل عند وادى حلفين تقريبا • وهى قبيلة واسعة الانتشار ومقسمة إلى عدد من الفروع يعيش كل فرع منها فى منطقة محددة تحديداً عادلا •

ويعيش الدورويون عيشة البداوة الرعوية ويربون الماعز والماشية والجمال • وذلك خلال الخريف والشتاء والربيع ولكن حينما يشتد القيظ وينضج البلح يخرجون من الصحراء ويستقرون خارج المدن المختلفة • وتعتبر تنعام عاصمتهم الصيفية ولهم حقوق الزيارة الصيفية المنتظمة فى السبيخة والعبرى وأدام ومعمور ، وبيسيياى وحتى نزوى • وهم يمتلكون جميع بساتين البلح فى « تنعام » وحوالى ثلث البساتين فى « عبرى » •

والنظام المتبع فى « عبرى » هو أن البستان يديره أحد سكان المدينة الذى ينال نصيبه من المحصول بقدر النصف ويسلم النصف الثانى إلى المالك البدوى •

وفى دورو — كما هو الحال فى معظم القبائل البدوية الرعوية — لا تعيش القبيلة بالفعل فى المدن ، وإنما تقيم أكواخا من سعف النخيل بالقرب منها صيفاً • ويجرى رعى القطعان بالقرب منهم وتسقى بالماء يوميا •

أما النزوح إلى الصحراء فإنه يبدأ عند نهاية موسم البلح ، ويكون ذلك عادة فى شهر سبتمبر •

ومع أن الدورو قبيلة بدوية رعوية إلا أنها على ما يبدو تزداد اهتماما بالزراعة • ولقد امتلكوا منذ وقت طويل البساتين فى « عبرى » و « تنعام »

ولكن الأراضى المزروعة قد أزدادت مساحتها على مدى العقدين الماضيين • وإلى جانب ذلك يزداد استخدام مضخات الديزل هناك فى وادى « أسود » حيث أنشئت بساتين وحدائق جديدة •

وفى حين أن رجال القبيلة فى بســاتين « العبرى » يعتمدون تقليدياً على أعضاء المجتمعات المستقرة فى الفلاحة ، فإن بعض رجال القبيلة خارج « عبرى » اليوم يتولون على ما يبدو أعمال الفلاحة بأنفسهم •

إن قبيلة الجنابة واسعة الانتشار وتتألف من فروع عديدة ويمارسون البداوة الرعوية فى منطقة تقع بين رعز و « عفّار حتى وادى حلفين • وبالإضافة إلى ذلك فهم يشكلون جزاً هاماً من ســكان « صور » وجعلان وكانت لهم مصالح بحرية من الخليج حتى الهند وشرق أفريقيا •

أما هؤلاء الذين يقيمون منهم على ساحل عمان الجنوبى فإنهم يهتمون بصيد السمك • وهم يشكلون الكثرة فى « مصيرة » •

وفى المنطقة الواقعة بين دقم وظفار • وفى فصل الصيف حينما تتدخل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى حركة الصيد ، تعمد كثير من العائلات إلى الهجرة من الساحل الجنوبى إلى مستوطنات مثل أدام وعز والحابى لجمع محصول البلح وتجرى على مدى العام مقايضة السمك من الساحل الجنوبى بالبلح من الداخل •

ويبدو أن الحراسيس هم فى الأصل قبيلة ظفارية ومازالوا يتحدثون باللغة المهرية ويستنتج بيرترام توماس من دراسة أجراها وجود علاقة بين الحراسيس والمهرية • أيدها إلى حد ما أصل القبيلة الظفارى • طبقاً لتقاليد الحراسيس ، كان الفرع الأصلى للقبيلة هو بيت عفارى الذين يعشون فى منطقة ما بين صلالة وحضرموت •

ومازال هنا بعض قبائل للحراسيس يعيشون هناك ويعترف السكان الحاليون بتفوقهم فى المنطقة • وهم يوجدون منتشرين داخل عمان ولكنهم يحتشدون بكثرة فى جدة الحراسيس فى وادى حلفين والوطع •

ويمكن تواجدهم أيضا فى أقصى الشمال حتى نزوى ، وخاصة فى أشهر الصيف •

ويعمل الحراسيس فى تربية الإبل والماعز وقد تناقص عـدد السكان الحاليين منهم فى منطقة جدة ــ وهى سهل جاف تكسوه الحصباء والحجارة وهو خال من المـاء •

إن هـذا الوصف الجغرافى والأيكولوجى الموجز الذى يشمل كلا من القبائل الأربع يبرز السمة الأصـلية لجميع هـذه الجماعات الرعوية • ولا تتمتع أى واحـدة منها بالاكتفاء الذاتى التام •

ولكن كل واحـدة منها مرتبطة الى حـد ما بعـلاقات من التكافل والتبادل بالمجتمعات المستقرة فى المناطق المجاورة •

ان التكيف الرعوى يشترط وجود مجتمعات مستقرة وسهولة الوصول إلى منتجاتها الزراعية • وفى عمان تكون سـهولة الوصول مطـلوبة إلى مستوطنات الصيد الساحلية أو إلى شريط القرى الواقعة على طول سفوح التلال فى الشرقية حيث تجرى زراعة النخيل •

ولمـا كان الاقتصاد الرعوى لا يستطيع الاستقرار وحده • فانه لابد أن يعتمد أيضا على المنتجات الزراعية حتى يمكن أن يكتب له البقاء سليما • ولقد استغل الرعويون وسائل عديدة تقليدية لضمان توفر الحبوب والتمر وغيرهما من المنتجات الثابتة لهم •

ويستطيع مجتمع أن يزرع ويحصـد المحاصيل اذا كانت أراضيه القبلية قريبة بدرجة كافية من الفلاحة التى تعتمد على الرى من ميـاه الأمطار •

وهناك أمر شائع وهو أن نجـد مجتمعا قبليا يحصـل الايجارات من المستأجرين لواحاته أو أراضيه الزراعية على أن تكون قيمة الايجار من المحاصـيل .

ان الممر الشمالى المؤدى الى عمان الذى مرت منه قبائل بدوية كثيرة فى العصور الأولى كان مازال يستغل استغلالا كثيرا فى القرن التاسع عشر . فى حين أنه كان فى الماضى بوابة للقبائل المهاجرة إلى عمان الكبرى ، ففى القرن التاسع عشر ، كان بمثابة الطريق الذى سـلكه المحاربـون الوهابيون من نجـد .

وقد حدث خلاف بين الوهابيين والعمانيين خلال القرن التاسع عشر سواء فى بدايته أو فى نهايته ولكن هذا الخلاف قد سوى على مدى سنى هذا القرن .

وقد عقدت عمان ميثاقا مع الحكومات البريطانية فى سنة ١٨٤٥ ، وتضمن الميثاق بنوداً كثيرة ، وكان أهم بند فى هـذا الميثاق فرض الحظر على تجارة الرقيق وتصديره الى الخارج من شرق أفريقيا .

وكانت تجارة الرقيق عملا مشروعا فى تلك المنطقة من العالم ، وكانت القبائل الرعوية ترى فى فرض الحظر على تجارة الرقيق عملا من شأنه أن يسبب خطراً على رخائها السياسى والاقتصـادى .

ومجمل القول فى هـذا التاريخ أنه قد برزت متاعب كثيرة ومعوقات شتى لاستقرار الحياة فى عمان ، إذ كان السلاطين سواء فى عمان نفسها أو فى زنجبار يرون أن الاتجاه فى سياسة الرق يجب أن يمضى الى ابطاله والقضاء عليه وتعويض الثائرين على الحظر بالمـال أو بالسلاح والهدايا أو بالقمع الشـديد .

كان أهم ما يشغل سلاطين عمان الاستقرار وتوحيد البلاد وإبرازها فى كيان متحضر يمضى مع تطور الحياة فى العالم كله إذ ذاك .

كانت وحـدة البلاد فى مطالع القرن العشرين هـدفا أساسيا فى سياسة سلاطين عمان حتى قامت الحرب العالمية الثانية .

وقد حـدث تطوران بعد الحرب العالمية الثانية ، الأول ينطوى على نتائج سياسية والثانى ينطوى على نتائج اقتصـادية ، وأدى هـذان التطوران إلى انتشال القبائل البدوية الرعوية من حالة الركود طـوال العقـود القليلة المنصرمة .

ثم تم الكشف عن البترول ... وكان له آثار اقتصادية وسياسية هامة لا على القبائل الرعوية فحسب وإنما على عمان الكبرى ككل .

وبعد الحرب العالمية الثانية بسنتين أو ثلاث سنوات . بدأت فرق التنقيب عن البترول عمليات المسـح فى منطقـة حـول البوريمى ، وذلك لاكتشاف منابع البترول التى لم تظهر فقط بعد ذلك فى سلطنة عمـان وحدها بل ظهرت فى كل امارات الخليج .

وفى عام ١٩٥٤ اتجه فريق من فرق البحث والتنقيب عن البترول من مؤسسة التنمية البترولية من ساحل عمان الجنوبى عنـد « دقـم » إلى سهول عمان الوسطى الجرداء . وهناك تم اتصال مع شيوخ الدورو الذين وافقوا على السماح للفريق بدخول منطقتهم .

ولقد أزالت وفـاة الإمام خليلى فى شهر مايو من عام ١٩٥٤ قوة من القوى المعارضة التى تواجهها فرق البحث عن البترول . على أن « طالب » شقيق الإمام المنتخب الجديد قرر أن يتدخل .

وكان مصمما على وجوب العثور على البترول فى هـذا الجزء من عمان الداخلية • واستغلاله بواسطة مؤسسة التنمية البترولية ، لا لمصلحة السلطان سعيد بن تيمور وإنما لمصلحة شقيقه الإمام وأتباعه •

وتحقيقا لهذه الغاية دفع « طالب » بقوة مسلحة للاستيلاء على مزارع البلح الدوروية فى « عبرى » التى كانت مصـدر دخل هام لهذه القبيلة الرعوية وكان رد الدورو الاتجاه الى « دقـم » وعادوا بفريق التنقيب عن البترول التابع لمؤسسة التنمية البترولية وتحت حراسة جنود من مسـقط ••

وحـدث بعد ذلك فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٤ أن تحرك الجنود المسقطيون ورجال الدورو نحو « عبرى » وطردوا رجال « طالب » من المدينـة (١٠) •

إن هـذه المواجهة العمانية الداخلية سرعان ما أصبحت ذات أبعاد دولية بعد تدخل المملكة العربية السعودية وبريطانيا • والجامعة العربية وكذلك لجنة تحقيق خاصـة من الأمم المتحـدة فى الأمر •

لقد جرى على مدى العشرين عاما المنصرمة تعزيز مستمر لحـكم آل سعيد فى عمان الكبرى • وحيث كانت السلطة القبلية مسيطرة (فى الشرقية وسهول الدورو وجعلان على سبيل المثال) • كان الشـيوخ البارزون للقبائل الكبرى • يحتفظون بعنصر من السلطة ويتمتعون ببعض الاسـتقلال •

وفى مناطق أخرى كان يجرى تعيين ولاة لتنفيذ أوامر السـلطان مباشرة • ولقـد تأثر المستقبل السياسى للقبائل البدوية الرعوية إلى حـد كبير نتيجة لفرض هذه الرقابة المركزية والبيروقراطية والقانونية •

ومع دخول مؤسسة التنمية البترولية ونشاط عمليات البحث والتنقيب عن البترول فى عام ١٩٥٤ ، أخذت القبائل البدوية الرعوية فى عمان تفقد السيطرة على مقدراتها شيئا فشيئا عندما وافق زعماء الدورو القبليون على السماح لمؤسسة التنمية البترولية بالبحث والتنقيب عن البترول فى أراضـــيهم •

ثم لم يلبثوا أن وجـــدوا أنفسهم رهائن فى خضم صراع تقليـــدى على السلطة بين قوات الإمام وقوات السلطان •

وبعد أن انتهت تلك المعركة بنجاح وبدأ فريق البحث والتنقيب عن البترول عمليات المسح فى جبل الفهود • ثارت مشاكل ذات طبيعة جديدة •

إن قبيلة الدورو منتشرة فى منطقة واســعة • وكانت زعامة هــذه القبيلة بيد فرع واحــد منها ، وهو الفرع الذى يتزعمه فرع الشــيخ المحمــدى •

إن جميع شيوخ الدورو ينتمون إلى هــذا الفرع ، ولذلك فإنه نظرا لأن الزعامة تنحصر فى هــذا الفرع فإن الشيوخ المحمديين منتشرون فى المنطقة كلهــا •

وقد صاحب هذا الانتشار قيام مؤسسة التنمية البترولية التى أحسنت اختيار معلونيها منهم •

إن المراحل الأولى لعلاقات المؤسسة مع هذه القبيلة كانت صعبة كما كان متوقعا • إذا أخذنا بعين الاعتبار المشــاكل التى لم تكن قــد سويت من قبل •

ولقد كانت مؤسسة التنمية البترولية بحاجة إلى إقامة نظام من استخدام العمال والإشراف على العمل حتى يتسنى استغلال احتمال وجود البترول فى المنطقة بطريقة فعالة • على أن طلبات من هذا القبيل كانت غريبة تماما بالنسبة لعالم الدورو •

ومع أن الزعماء القبليين قد اعتادوا العمل كوسطاء سياسيين نيابة عن رجالهم القبليين ، فإن الاحتياجات السياسية والاقتصادية كانت جديدة عليهم •

ولقد أدت الغيرة الداخلية فى أول الأمر إلى حدوث انقسام فى فرع الشيوخ المحمدى وادعى زعيم كل وحدة فرعية لنفسه الحق المطلق فى تزويد مؤسسة التنمية البترولية بالعمال •

وقد كتب ممثل هذه المؤسسة فى تقريره عن « عبرى » فى ٣٠ مايو من عام ١٩٥٧ يقول « إن سلطة شيخ هذه القبيلة ليست مقبولة عند معظم الشيوخ ، وأن من الضرورى قبل اتخاذ أى إجراء ، عقد سلسلة من الاجتماعات المضنية للغاية وإقناعهم الواحد تلو الآخر •

وكانت الحزازات العادية والغيرة بين الشيوخ قد تضاعفت بدافع من رغبتهم فى تحسين موقفهم من الشركة والاستفادة منها ••

وليس مما يبعث على الدهشة أن تكون الانقسامات الداخلية كبيرة إذا أخذنا بعين الاعتبار التجارب الماضية للزعماء القبليين ، حيث كان كبير الشيوخ يتولى مجرد التحكيم فى النزاعات التى كانت تعرض عليه •

ويمضى التقرير قائلا « إننا لم نستطع تسوية الصراعات الداخلية فى صفوف المحمديين إلا بعد مرور بعض الوقت وتنقية عوامل الاضطرابات

الأخـــرى • وسبب الغيرة هو طموح بعض صغار الشيوخ للعمل كملاحظى عمال فى الفهـــود » •

وبعد ثلاثة أعوام من نشاط شركة النفط فى منطقة دورو ، استطاع الزعماء أن يكيفوا أنفسهم حسب احتياجات مؤسسة التنمية البترولية •

ثم وصـــفت التقارير التى صـــدرت فيما بعد عن منطقة « عبرى » كيف أن « والى عبرى والشركة (مؤسسة التنمية البترولية) يمارســـان أعمالهما عن طريق شيخ القبيلة فهو متعاون للغاية وعنصر مساعد جـــدا ولم يأل جهـــدا عن مراقبة العمال أو حتى تعبئة رجال مسلحين حينما تكون ثمة حاجة لذلك » •

إن شيئا أكثر من مجرد النية الحسنة كان يتعلق بالوضـــع لأن دورو بصفة خاصة كانت لها علاقات اقتصادية ناجحة للغاية مع المجتمعات المستقرة فى الظهيرة قبل مجىء مؤسسة التنمية البترولية • وكان بيع الفحم النباتى والماشية والتمور إلى دبى فى الخمسينيات مقابل السلع الاستهلاكية مثل الأقمشة والكيروسين أمرا هاما •

لقد كانت سيطرة الشيخ على العمال القبليين إلى حـــد كبير سيطرة اقتصادية ، وليست سياسية وكان الشيوخ يتقاضـــون مرتبات وهـــدايا نقـــدية ونوعية من شركة البترول إلى جانب الإعانات الحكومية السنوية التى يتلقونها •

وجاء فى تقديرات أعدها مندوب الشركة فى عبرى عـــام ١٩٦٦ أن الهدايا الموسمية من الملابس التى تبلغ مجموع قيمتها ١٧٣٣ روبية ومعونات متنوعة يبلغ مجموعها ٦٫٠٠٠ روبية ومبالغ نقدية مجموعها ٥٫٠٠٠ روبية تقريبا قد صرفت لشيوخ الدورو على مدى ١٢ شهرا •

إن هذه الهبة الاقتصادية مقرونة بتعييناتهم الدائمة فى الشركة قد فتحت شهية الشيوخ ، ولم يمض وقت طويل قبل أن يبدأوا فى فرض رسوم على رجالهم القبليين مقابل إيجاد أعمال لهم فى شركة البترول •

وفى أوائل عام ١٩٧١ ، قدمت شكوى فى إزكى من قرار لقبيلة الدورو يقضى بأنه لن يسمح لأى شخص من « إزكى » فى المستقبل فى العمل فى منطقة الدورو •

وقد أماطت التحقيقات التى أجريت اللثام عن انه حدث قبل ذلك بسبعة أشهر أن تقدم رجل من المدن بطلب إلى أحد شيوخ الدورو للحصول على وظيفة ودفع مقابل ذلك الرسم المقرر وقدره أربعون روبية •

وعندما لم يتم حصوله على الوظيفة بعد مرور شهرين من الانتظار شكا شخصيا لوزير الداخلية الذى أوفده بخطاب إلى الشيخ المسئول يطالبه فيه يرد المبلغ إلى حامله •••

وعند استلامه الخطاب ، كان رد شيوخ الدورو شديدا وقرروا عدم إجراء عمليات تعيين للعمال مقابل الرسوم المعينة لغير رجال قبيلتهم •

وقد حدث خلاف بين هؤلاء الشيوخ وبين شركة النفط ، وكان هذا الخلاف يحدث المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة •

لقد كانت الشركة سبباً فى تغيير الرجال القبليين التقليديين — أى العلاقة الشيخية — بتعاملها منفردة مع أفراد بعينهم وتوفير ضمان اقتصادى لهم لم يكن لهم سابق معرفة به •

وحيث كان الشيوخ يتصرفون بشئون تتعلق بالمصالح السياسية

لرجالهم القبليين ، فانهم كانوا يصلون الى نقطة يكونون عندها أشد اهتماما بمصالحهم الاقتصادية الشخصية .

لم يجر أول اتصال جدى بين القبيلة ومؤسسة التنمية البترولية إلا فى عام ١٩٥٦ ، حينما كان فريق من العاملين فى حقل الجاذبية منهمكا بتنفيذ برنامج فى منطقتهم .

ولكن اتصالهم بالمجتمعات الحضرية والمجتمعات المستقرة فى الشرقية والساحل كان له جذور تاريخية طويلة .

وكانت هذه العلاقة الخاصة مع « الحارثيين » مازالت قائمة حينما بدأت الشركة عملها فى منطقة الواهبة .

ولما كان الشيوخ الحارثيون يمثلون مصالح قبائل آخرى بدلاً من الحكومة فى الماضى ، فقد كان من الطبيعى لهذه العلاقة أن تستمر مع مؤسسة التنمية البترولية (شركة البترول) . ولم تحاول الشركة بخلاف الوضع فى الدورو ، أن تفرض مبدأها على شيخ قوى وبارز أو زعيم .

فقد استطاعت الشركة باستخدام مكتب الشيخ المسئول أن تنفذ معظم أنشطتها بدون تأخير كبير .

وواصل التنظيم السياسى القبلى ووحداته الفرعية الكثيرة والشيوخ القبليون العمل . ولم تكن ثمة ضرورة لفرض زعيم قبلى عليها .

ومع أن بعض القبائل قد تأثرت بزعيمهم « إلا أنه لم تكن له سلطة مطلقة واضطر الى فرض حكمه الخاص » بالخليط العادى من الفكر والقوة والتهديدات والدسائس والزواج — وهو التركيب الكامل للحكم السياسى (١١) .

ولما أخذ نفوذ بعض الشيوخ يزداد فى الستينات الى حد كبير ، حققت الثروات للقبائل ازدهارا مماثلا • ففى عمليات مؤسسة التنمية البترولية ، حصلت القبيلة على حقوق الاستخدام فى مناطق كانت الى سنوات قليلة مضت بعيدة الى حد لم يكونوا يحلمون بالمطالبة بها •

لقد كان ولاء القبائل لشيخها تعنى من وجهة نظر الشركة البترولية علاقات صناعية أكثر أمنا وسلاما •

ولكن النزاعات الحدودية ومسائل الاستخدام كانت دائما مصدر قلق مستمر ، ففى أوائل عام ١٩٦٤ مثلا طالب بطن من بعض القبائل بمنطقة جديدة من الأرض المجاورة ، التى كانت قبيلة الدورو قد منحتها إياها •

ولما كانوا يعيشون فى هذه الأقاليم منذ القدم ويرعون ماشيتهم ، فانهم ادعوا ملكية المنطقة • وقد انبثق اعتراضهم من حقيقة أنهم لم يستشاروا حينما قررت الحكومة أن هذه المنطقة منطقة الدورو • وقد استدعت الشركة الشيخ لوضع حد لتدخلهم المستمر فى عملياتها •

وكان على الشيخ أيضا أن ينصح القبائل باحالة مطالبهم الحدودية على الحكومة • ومع ذلك لم يكن فى استطاعته أن يفعل شيئا ذا بال • فقد كان هؤلاء الناس قد رسموا حدودهم ووضحوها بطريقة تلائم احتياجاتهم المرنة والمتغيرة ••

إن الخريطة القبلية التى كانت متاحة فى عام ١٩٦٤ لم تكن مقبولة لأن القبائل تمسكت بأنها لم يستشرها أحد أو تُحاط علماً برسم حدود منافعها •

وكان الطريق المفتوح أمام الحكومة يتطلب التقريب بين مبدأين متناقضين عن الحدود الحيزية ــ المبدأ القبلى المرن ومبدأ الشركة الثابت •

على أن هذه المهمة لم تعالج • وبعد ذلك بعشرة أعوام أثيرت المسألة نفسها ــ أى تشكيل لجنة للتحقيق فى إلغاء جميع الحدود القبلية ــ ولكن اللجنة منيت بالفشل •

وقد استخدم الشيخ طوال الستينات نفوذه لمساعدة القبائل فى نزاعاتهم الحدودية الكثيرة وفى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٦ ، وبعد مطالبتهم بموقع للبحث فى منطقة وادى حلفين ، طلب وزير الداخلية من شيخهم أن يحقق فى المسألة وقد انتهى هذا التحقيق دون دهشة الى إعطاء المنطقة للقبيلة •

وبحلول الستينات استطاع الشيخ أن يجعل الشركة تستخدم القبائل فى الشرقية وفى المناطق المتنازع عليها جنوبى ادام مع الجنابيين •

وقد أقرت الشركة أن علاقاتها مع القبائل كانت على العموم علاقات طيبة ، والفضل فى ذلك يرجع الى سيطرة الحارثيين • وليس ثمة شك فى أن الشيخ أدرك أن العمليات التى تجرى بدون أن تتخللها متاعب تحت زعامته • ستقارن مع النزاعات والسرقات التى تجرى فى المناطق القبلية الأخـــرى •

وهكذا ازداد مركزه سمواً عند السلطان والشركة • الأمر الذى أدى الى توسيع نفوذه ، وجرى التوسع عام ١٩٦٨ فى منطقة العمل الجنابية وغيرها المشتركة الواقعة شمال الحوشى حتى أدام ، وهى منطقة كانت تعتبر فى السابق منطقة خالصة للجنابيين •

وفى قبيلة الواهبة ، كان رئيس فرع آل جفيلى شيخا اسميا فى عام ١٩٥٥ • وكان الشيخ كمحكم قبلى تقليدى ناجحا وفعالا ولكنه لم يكن كذلك بالصفة التى أرادتها له الشركة ، وفى أواخر عام ١٩٧٠ مثلا ، نشب قتال بين فرع آل جفيلة وفرع الجحاحيف من قبيلة الواهبة ، الذين كانوا يعترضون على ما اعتبروه محاولة لاخضاعهم •

وقالوا إنهم حسب النظام القبلى التقليدى يقفون معهم على قدم المساواة معهم ولم يعترض الجحافيون على ذلك ، ولكنهم زعموا أنه ليس من حق شيخهم التدخل فى شئون الجحافيين الداخلية ، وذلك بتعيين عمال من مناطق أخرى للعمل فى منطقة الجحاحيف (١٢) •

ومع تبوء جلالة السلطان قابوس الحكم فى عام ١٩٧٠ ، تقلصت مصالح القبائل الاقليمية وأصبحت علاقات الشركة بالقبيلة ترعى بطريقة مباشرة ، وأحيانا بمساعدة ممثل من وزارة الداخلية (١٣) •

ان الدور التوسطى الذى كان يضطلع به الشيخ كان يساعد على إعفاء القبائل من عناء مفهوم يواجهه مجتمع تقليدى حينما يجد نفسه على اتصال بنظام حديث وقانونى لدولة قومية •

ولعل الأثر الفعال للشيخ هو الذى ساعد القبائل للتوصل الى حل اقتصادى وسياسى وسط بين نظامهم التقليدى والنظام الحديث الذى تمثله مؤسسة التنمية البترولية والحكومة •

إن موقف القبيلة الجنابية يشبه موقف بعض القبائل الأخرى أثناء السنوات الأولى للاتصال مع الشركة • ففى منتصف الخمسينات يبدو أنهم

كان لهم ارتباط وثيق مع قبيلة بنى ريام التى كانت تعيش فى الجبـــل الأخضر •

لقد ساعدت علاقة قبيلة الجنابة مع كبير شيوخ بنى ريام ، على موازنة الميزة التى كانت تتمتع بها قبيلة الواهبة عن طريق شيخهم •

وعلى مدى العقد التالى وجد الجانبيون أنفسهم محصورين اقليميا بين الدورو الذين كان نفوذهم آخذا فى الازدياد مع اكتشاف النفط فى منطقتهم ، وبعض القبائل تحت رعاية شيخهم القوى • وبالاضافة الى ذلك فقد كان التنظيم القبلى الجنابى يؤثر تأثيرات مختلفة على الجنابيين ، ذلك أنهم كانوا ــ كقبيلة ــ يبذلون أقصى الجهد لتأكيد التلاحم والتماسك الذى قد يكون سببه من ناحية الى انتشارهم فى منطقة واسعة جدا (١٤) •

وكان زعماؤهم والوسطاء يأتون من فرع آل مجعلى من القبيلة • ولكن لم يكن لأحد منهم النفوذ أو قوة الشخصية ليمثل القبيلة فى التعامل مع الشركة أو الحكومة بنفس الطريقة التى كان تمثل بها شيخ قبيـــلة الواهبـــة •

وكانت الجنابة • أول قبيلة تتصل بها الشركة عند نزولها فى « دقم » فى شهر فبراير من عام ١٩٥٤ • وكانت علاقاتهم بالشركة تتغير حسب الزمان والمكان ونوع الضغط الذى يمارس على مجتمعهم •

وعلى العموم كانت المنطقة الجنوبية الواقعة بين الدقم وظفار أكثر المناطق الشائكة المثيرة للمشاكل •

ففى صيف عام ١٩٥٨ ، واجه فريق من الشركة صعوبة مع السكان

المحليين هناك • وكانت كل أسرة فى المنطقة تدعى ملكية منطقتها وأن لها حق الاستخدام فيها •

وبعد جهود استغرقت شهرين قام بها شيخ الجنابيين ومندوب من وزارة الداخلية للتوصل الى حل وسط فقد وجد وفد الشركة أن من الضرورى أن يتخلى على المحاولة وينسحب من المعسكر تحت حماية فصيلة من رجال الحرس العمانيين •

وفى منطقة دقم وقعت سلسلة من الحوادث قبل انسحاب الشركة فى عام ١٩٦٠ ، أولا أطلق مهاجمون النار على لاندروفر تابع للشركة •

وبعد ذلك بأربعة أيام ، أغار عدد من الرجال على معسكر دقم وأصابوا اثنين من كبار موظفى الشركة الأجانب بجراح ولاذوا بالفرار بعد أن استولوا على أجور عمال الشركة •

وبعد وفاة شيخ القبيلة فى عام ١٩٦٣ ، أصبح الشيخ الجديد الشيخ الرئيسى وحلقة الاتصال مع الشركة • ولكنه لم يكن فى رأى الشركة ممثلا متحمسا عن الجنابيين •

على أنه لما كان الجنابيون يخضعون لسيطرة بعض القبائل الفعالة ، فان أى نتيجة تتوصل اليها الحكومة ستكون لا محالة على حساب القبيلة • وكانت سلبيته الى حد كبير تجاوبا مع الظروف •

وبحلول عام ١٩٦٦ ، أخذ الرجال القبليون عن قبيلة الجنابة يعتبرون الثروات القبلية المتناقصة على أنها نتيجة لخطأ شيخ القبيلة • وإن مثل هذا النقد — حسب الظروف التقليدية — خليق بأن يؤدى الى استبدال الشيخ بشخص آخر أكثر فاعلية •

وفى عام ١٩٧١ واجه مسؤول للمـرة الثانية معارضة قبلية • ولكنه الآن يتمتع بتأييد من مؤسسة التنمية البترولية والحكومة باعترافهما بأنه هو المسؤول الرسمى عن كل شىء • وقد انهارت معارضته حينما اضطهد بعض المعارضين له بعد أن أرتحلوا الى مسقط لرفع شكوى ضد زعامته والنظام الذى تتبعه الشركة فى استخدام العمال •

وثمة مثل آخر عن العبث والتدخل فى النظام السياسى القبلى التقليدى • ففى عام ١٩٦٧ رشح السلطان سعيد بن تيمور شيخاً ذكياً ليكون الشخص الذى عن طريقه ينبغى توجيه علاقات للشركة مع الجنابة الجنوبية •

ويبدو محتملا أنه حينما رشح السلطان سعيد بن تيمور هذا الشيخ كان يعنى اختيار رجل ممتاز يمكن الركون إليه والاعتماد على خدماته ، وكان هذا الرجل دليل السلطان فى المنطقة طوال سنين عديدة فى الماضى •

ومع ذلك قبل المنصب بتردد « كشيخ عمـل » تحت رئاسة شقيقه المشرف على الأعمال وبهذا التعيين اضطلع بالمسئولية عن حصة الاستخدام للفرق الجيوفيزيقية فى ظفار وفى مناطق الواهبة والجنابة المتنازع عليها • ولكنه أثار غيرة شديدة عند زملائه من صغار الشيوخ •

إن مثل هذا الاهمال المتعمد لنظام مرن تقليديا من الزعامة السياسية بين صفوف القبيلة ، لا يمكن أن يساعد مجتمعا يسـوده الاضطراب بالفعـل •

ومع أن هذه القبيلة كانت منذ قرن أو قرنين قد وصلت إلى مستويات سياسية واقتصادية عالية إلا أن مجتمعها الآن لم يمض على هذه الوتيرة مدة طويلة وخاصة بعد فقدانهم لقبيلة بنى ريام التى كانت تعتبر حاجزا سياسيا لهم •

إلا أن نظامهم قد تعرض لهزات عنيفة متكررة من النظام القانونى الحديث الآخذ فى النمو فى مسقط ــ بخلاف بعض القبائل الأخرى التى استقرت بفضل القيادة البصيرة •

وتعتبر قبيلة الحارثيين القبيلة الوحيدة من بين القبائل الأربع التى لم تكن مشتركة فى الصراعات السياسية التى جرت فى القرن الماضى ، وتوجد أعداد متناقصة من هذه القبيلة التى كانت فى الأصل قبيلة ظفارية • موزعين فى سهل من الأراضى الجرداء التى تكسوها الحصباء والحجارة •

وبالرغم من فقر هذه المنطقة التى تسمى « جدة الحراسيس » فان ملكيتها يطالب بها الجنابيون الذين يزعمون أن « حرام » الحراسيس قد حل بهم فى منتصف الثلاثينات نتيجة لأوهام شغلت أذهانهم فترة الثلاثينات ، وكانت دعوى الجنابيين هذه تتسم بالتسرع لأن الحراسيس تسللوا اليها من ظفار واستقروا فى « جدة » •

ولما كانت البلاد جرداء وخالية من الماء لم يعترض الجنابيون وان كانت هذه الأراضى مملوكة لهم • وقد تجول برترام توماس فى العشرينات فى المنطقة وكتب يقول :

ان الحراسيس « يجوبون جدة الحراسيس التى تعتبر من الناحية النظرية أرضا جنابية [١٥] وحتى فى عام ١٩٦٧ ، كان المسؤولون متشددين

فى موقفهم من أنه ليس للحراسيس حق فى أى منطقة قبلية فى عمان •

وكان بعضهم يرى أن جدة الحراسيس سميت كذلك ، لأنها كانت المنطقة التى كان يسافر عن طريقها الحراسيسيون البدو ، ومع ذلك تأكد أنه ليس للحراسيسيين دعوى فى هذه المنطقة بالذات كحق لهم فيها (١٦) •

إن دعوى الجنابيين بأن المسؤول قد اقتنع بحيلة من الحيل أن يمنح « جدة الحراسيس » الى قبيلة الحارسيسيين فى الثلاثينات ، ليست سوى ضرب من الخيـــال •

ولكن يبدو أن ثمة قدرا من الحقيقة فى العلاقة الخاصة التى قيل إنها كانت قائمة بين هذا المسؤول وبين الحارسيسيين •

وكانت أسرة الحراسيسيين الشيخية تضم شخصيتين مرموقتين ، ولقد عاشت هاتان الشخصيتان فى وادى حلفين ، ولكنهما نادرا ما كانا يزوران جـــدة •

وكان الرجل الذى يتبوأ مكانة الزعامة فى جدة رجـــلاً مغامراً سمى نفسه شيخا ، ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن كذلك • إن هؤلاء الأفراد وغيرهم من أعضاء القبيلة كثر ترحالهم الى صلالة وإن اتصالهم بالسلطة يمكن أن يكون أكثر من اتصال غيرهم من الشيوخ الآخرين •

وحينما بدأت الشركة فى عام ١٩٥٨ تســتعد لاختيار موقع جديد لعمليات الحفر فى الحايمه ثار شعور بالقلق من احتمال قيام مشـــاكل تتعلق بالعمالة والاتصال •

ولما كانت الحايمة يقطنها عادة الحراسيس ، فان الجنابيين يمكن أن يطالبوا بها • وبعد أن أجرت الشركة مشاورات مع السلطان سعيد بن تيمور ، قررت البحث عن ملاحظ عمال من الحراسيس •

وعين فى هذا المنصب شخصية قوية ، ولكن بعد تعيينها بثلاثة أشهر دعت الى اضراب وهددت باحداث متاعب أخرى •

عندئذ لجأت الشركة الى من يستطيع أن يهب لمساعدتها • ولما هددته الشركة برفع الأمر الى مسقط تراجع عن موقفه •

وقامت الشركة على مدى الستة أشهر التالية بعملياتها فى « حايمة » بدون شيخ أو ملاحظ عمال وأخيرا اضطرت الشركة فى العاشر من شهر مايو ١٩٥٩ الى اعادة تعيين شخصية مشاغبة نتيجة للمتاعب العمالية التى تجددت •

وفى خلال الأشهر القليلة التالية ، نجح المسؤول فى كسب ود الشركة بعد أن راح يعمل على تسوية نزاع تلو الآخر لمصلحة الشركة • وبحلول منتصف صيف عام ١٩٥٩ ، أصبح هذا المسؤول قلقا جدا من موقف منافس له • وطالب بوقف المعاملة الجائرة التى يلقاها أتباعه فى « حايمه » وكانت مطالبه :

(أ) أن تصلح الشركة أساليبها •

(ب) وجوب إيفاد أحد أقاربه الى حايمة لمراقبة الطلب الأول •

(جـ) اعادة تعيين العمال الذين طردوا مؤخرا الى أعمالهم •

(د) يجب تقديم ستة براميل من المياه الى سكان « جدة » يوميا بدلا من البراميل الخمسة التى تقدم لهم كل خمسة أسابيع .

وكان رد الشركة المكتوب يستغرب من خلط هؤلاء الناس بين الحكومة والشركة . ويمضى التقرير مشيرا الى صعوبة اقناعهم (قبيلة الحارسيسيين) بأن ليس للحكومة الحق فى اعطاء وعود نيابة عن الشركة بدون مشاورة مسبقة منها .

ولقد وافق المسئولون فى الشركة على النقطتين « أ » و « ج » ولكنهم لمحوا سرا الى « أن هاتين النقطتين لن تنفذا » (١٧) .

ومع أن المسؤول لم يبذل أى جهد للتوسط بين مصالح الحارسيسيين والشركة وظل يتعرض لتوبيخ البعض المستمر لبيعه أهله بثمن بخس ، كانت مصلحة القبيلة موضع عناية جيدة من جانب السلطة .

وفى أثناء المباحثات التى أجراها السلطان ومدير عام الشركة فى عام ١٩٦٧ ، كانت العمالة القبيلية موضوع تلك المباحثات ، فقد أكد السلطان أنه لا يرغب فى أن ينشر أى شيخ نفوذه أو أن يدعى لنفسه الحق تحت أى ظرف من الظروف ، للاشراف على الحراسيس أو قبيلة الجنابة .

وأكد أيضا أنه ليست للشيخ أى سلطة على الاطلاق جنوبى دقم (١٨) . وكان اهتمام السلطان بوقف اتساع نطاق نفوذ الشيخ فى حد ذاته حافزا لازدياد الحارسيسيين فى المنطقة .

وفى اجتماع آخر عقد فيما بعد ، طالب المدير العام للشركة التى

أصبحت تواجه متاعب جمة من جديد من جانب المسؤول ، بأن تتعامل الشركة مع شيخ آخر حول استخدام عمال من جدة .

وقد وافق السلطان مؤكدا للمرة الثانية أنه ليس للشيخ هذا أو ذاك أى سلطة بأى حال من الأحوال فى المنطقة ، ولكن حينما اتصلت الشركة بأحد الشيوخ ، رفض أن يقبل المنصب ، وعندما وصلت أنباء تنبىء عن رفضه للأمر الصادر إليه أبعد من مركزه وعين شيخ آخر للحارسيسيين[١٩] .

لقد كان هذا فى صالح الشركة ولكنه لم يكن مقبولا للرجال القبليين ولا لشيخ آخر كان ينتظر فرصة ملائمة . ولو كان هذا الشيخ قد استدعى الى صلالة وحل عضو آخر من الفرع الشيخى محله ، لما وصل التوتر القبلى الى ما وصل اليه من حدة ولمضى النظام السياسى التقليدى نافذ المفعول .

ولكن الذى حدث أن رجال القبائل انتظروا عودة الشيخ الذى انتظر بدوره الى أن تحين اللحظة المناسبة .

وفى عام ١٩٧٢ أعادت السلطة ، أحد الشيوخ الى منصبه . وفى العام التالى تبين أن الأمور فى حاجة الى وقت طويل حتى تستقر ، اذ زعم أحدهم أنه شيخ وهو فى الواقع لا يتمتع بلقب شيخ ولم يقبل به الحارسيسيون إلا أن مؤسسة التنمية البترولية قد انزعجت الى حد كبير نتيجة لفقدها خدماته .

وقد أوصت الشركة بأن « الرجل نفسه يحتاج الى دفعة من الحكومة ... أى الى شىء من شأنه مساعدته على أن يسترد جانبا كبيرا من سلطته » .

وكان الرد على ذلك الاقتراح من جانب كبار المسئولين فى الشركة ، أنه قد تلقى بالفعل دفعة فى عام ١٩٧١ ، ولكن من المحتمل أن دفعة أخرى قد آن أوانها [٢٠] .

إن الخطوات التى اتخذها الشيخ لاسترداد دوره العادل قد اعتبرتها الشركة خطوات تتسم بالسعى للتحكم فيها وأوصت بأن يستبعد تأثير قوته من جدة بدون ضجة ، وذلك بانتهاج الأساليب التالية الممكنة :

(أ) تعويض مالى من الحكومة .

(ب) أن تعيد الحكومة تأكيد سلطة رجلها فى جدة [٢١] .

إن هذا التدخل من جانب الشركة فى شئون التنظيم السياسى القبلى لا يؤدى إلا الى فقدان الثقة فى تلك الشخصيات ذات النفوذ بعينها .

إن الحراسيس من الناحية الاقتصادية قد استفادوا فى بعض الفترات من استخدام الشركة لهم . ولكن من الناحية السياسية ، تقوض نظامهم الهش بفعل المسؤولين فى مسقط وصلالة .

سلطنة عمان
وزارة التراث القومى
المكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص :

خاتمة

إن التغيير فى الحكومة عام ١٩٧٠ رافقته فترة راحة أتاحت لمؤسسة التنمية البترولية اجراء عملية اعادة تقييم الأوضاع وكانت الروح من أجل التغيير والتحديث ملموسة فى كل مكان •

ولقد عمدت مؤسسة التنمية البترولية ، التى لم تدرك حق الادراك مدى التغيير الذى أحدثته بدخولها الى عمان الوسطى ، الى اعداد أبحاث من بينها بحث عن **الشئون القبلية** وآخر عن **الاستخدام القبلى** •

إن كلا البحثين اعتبر أنشطتها وتأثيرها على مدى العشرة أعوام المنصرمة على أنها « تقليدية » والتمست توجيهات للمضى قدما نحو العقد المقبل الذى يتسم بالاستنارة •

ولقد أكدت مؤسسة التنمية البترولية فى بحثها تحت عنوان **شئون قبلية** أنه لم تكن الشركة ترغب فى التدخل فى أى ترتيبات تتخذها الحكومة للسيطرة على القبائل •••

ولكن ينبغى أن يكون للشركة علم بمثل هذه الترتيبات اذا أريد أن تسير عمليات الشركة سيرا يسيرا •

إن هذا الموقف مفهوم ، ولكن إذا سلمنا بأن من تقع عليه ثقة الشركة لم يكن قادراً على ممارسة عمله فإنها لم تعد لها ثقة فيمن تتعامل معه فى استخدام العمال •

وكان الوضع بين رجال قبيلة الدورو أكثر صعوبة ، ولو كان موقف مؤسسة التنمية البترولية مقتصرا على الاستيضاح لكانت معالجة ذلك الوضع أسهل •

ولكن لم يكن كذلك ، فان المؤسسة بعد أن أقامت نظامها الخاص بها لتنظيم شئونها فى الداخل بمساعدة الأفراد الذين تعاونوا مع نظامها البيروقراطى ، وضرب هؤلاء الذين استمروا فى تمثيل قبيلتهم ، لم تكن تريد أن ترى جميع هذه الجهود تذهب هباء .

وحينما احتجت مثلا بأنها بحاجة الى استيضاح حول اعادة أحد الشيوخ الى منصبه ، كان موقفها الفعلى أن اعادته الى منصبه خليق بأن يقوض سلطة الزعيم الآخر وله قدره عندها . والذى عمل جاهدا لخدمة مصالح الشركة .

وفى رأيها أن الشيخ « هو العميل السابق لشيخ آخر من الشيوخ المرموقين » وأنه يؤثر تأثيرا سلبيا على ترتيبات الشركة لا فى مناطق الحراسيس فحسب ، وانما فى ظفار أيضا .

فى حين أنه منذ تعيين شيخها المفضل كانت العلاقات بين الحارسيسيين والجنابيين علاقات ودية وأدت الى تعاون مفيد لعمليات الشركة فى عمان وظفار .

وقد ختمت المؤسسة بحثها بناء على الآتى : إن الشركة قد علمت أن الحكومة الجديدة ترغب فى إلغاء النظام القبلى كما هو قائم الآن واستبداله بتوسيع السلطة المركزية بالعمل عن طريق ممثلين معينين فى المناطق القبلية .

ويرحب البحث بفكرة أن يستبدل بالنظام القبلى شىء أكثر عصرية . ولكنه يحذر من أنه الى أن تتم دراسة هذه الاجراءات الجديدة وتوضع موضع التنفيذ ، فانه لن يبقى معمولا بها سوى نظام شيوخ العمل والملاحظين العماليين الذين طورته المؤسسة على مدى العقد ونصف العقد المنصرمين .

إن بحثا من هذا القبيل لا يطلب ارشادات وانما يحاول التأثير على السياسة العامة المستقبلية فى اتجاه ييسر فى مصلحة الشركة •

أما بحث مؤسسة التنمية البترولية الثانى تحت عنوان **الاستخدام القبـــلى** ، ربما يكون بمثابة طلب استيضاح ، كما أنه يقترح كذلك انتهاج طرق عمل بعينها تكون متمشية مع الاحتياجات الماضية للشركة دون نظر إلى أى مصالح يهتم بها الآخرون •

لقد كان الاستخدام القبلى دائما مجالا صعبا • وإن الذى حدث أن الشركة استخدمت أعضاء قبيلة للعمل فى مناطقهم القبلية • وقد نفذت هذه الترتيبات عن طريق شيخ أو شيوخ قبيلة يعترف بهم السلطان •

ولكن الاستثناء الوحيد لهذه السياسة كان بالنسبة للعمال المهـــرة (العمانيين والأجانب) •

كان استخدام (الأجانب) محدودا حسب تفاهم الشركة مع الشيوخ بأنهم اذا كانوا يستطيعون تقديم عامل من قبيلتهم فان هذا الرجل سيعين وقد سار هذا الترتيب على مايرام فى الماضى •

ولكن مع التغيير الذى جرى فى نظام الحكم ، عاد عدد كبير من العمال العمانيين القبليين المهرة من الخارج وطالبوا بالعمل دون الرجوع الى الشيخ وأصبحت الشركة فى هذه الحالة بحاجة ماسة الى استيضاح ، فهى بطبيعة الحال أرادت استخدام عدد كبير من هؤلاء الرجال •

ولم تكن هذه القوة العاملة العائدة حديثا من الخارج ترى ثمة سببا للرجوع الى الشيوخ • وشعر الشيوخ من ناحية أخرى أن سلطتهم ستنهار اذا لم يطلب من الرجال المنتمين الى قبائلهم الرجوع اليهم •

ولكن مثل هذا الدور لم يكن جزءا من وظيفة التوسط التقليدية للزعماء القبليين قبل دخول مؤسسة التنمية البترولية الى عمان وكان الموقف يوحى بنشـــوب صراع ، ذلك أن الزعمـــاء القبليين ، فى محاولة لمســـــايرة النظام البيروقراطى الذى أدخلته الشركة ، قد طوروا نظاما قاسيا وصف بنظـــام غير عملى •

فهم لم يعودوا مجرد حلقات اتصال سياسية ، وانما حلقات اقتصادية أيضا بالنسبة لرجالهم القبليين ، وراحوا يستقطعون مبلغا ماليا كبيرا من كل رجل يعينونه للعمل لحساب الشركة •

إن احتمال تأثر هذا الدخل قد أحدث قلقا بين الشيوخ • ولم تكن الشركة تدفع شيئا للشيوخ • ولكنهم كانوا يحصلون على مخصصات من الحـــكومة •

وجاء فى وعد للحكومة (فى خطاب تبوء السلطان قابوس للحكم) أن الشيوخ القبليين ستدفع لهم مرتباتهم التقليدية ، وكان هذا اجراء مؤقتا يتسم بالذكاء •

ولكن مشكلة العمال القبليين المهرة العائدين حديثا كانت أكثر تعقيدا • إن طبيعة المشكلة مستمدة من الروابط التقليدية أقل مما هى مستمدة من الروابط التى أوجدتها النظم الحديثة • ولذلك فان حلها يحتاج الى مرونة ومساومة أكبر من ذى قبل •

ولقد زال القلق الأولى الذى أعربت عنه الشركة ومختلف الشيوخ القبليين فى عام ١٩٧٠ بعـــد سنوات قليلة • ذلك أنه بحـــلول منتصف السبعينات كان موقف أكثر مرونة وتكيفا يميز العلاقات بين هذه الشركة الغربية والمجتمع القبلى التقليدى فى عمان الوسطى •

وفى صيف عام ١٩٧٤ ، علمت الشركة أن هناك لجنة يجرى تشكيلها لفحص الحدود القبلية تبحث مسألة إلغائها كلية وقد نصحت الشركة بالتريث والحذر واقترحت أن يكون النظام القائم نظاما مرضيا (٢٢) .

وقد تمت الموافقة بين الشركة ومستشار السلطة حول هذه المسألة . على أنه لن يكون من الحكمة فى شىء محاولة « رسم » حدود حيث لم يكن هناك وجود لحدود ثابتة محدودة قبل أن تبدأ عمليات الشركة ــ لا بالمعنى القانونى الحديث أو البيروقراطى (٢٣) .

وسواء أدركت الشركة فى النهاية أم لم تدرك أنه لا يمكن المضى فى الأخذ بالادارة الحديثة بطريقة تتلاءم مع المجتمع القبلى التقليدى ، فهذا سؤال مازال بدون حل : ما الذى تحقق من تجربة استغرقت عقدين تقريبا فى عمان ؟ هل التراضى والتمثيل الحكومى الجيد هما مفتاح النجاح فى عمان الوسطى ؟ .

ويعتبر ديريك هوبوود فى مقدمته **لشبه الجزيرة العربية ، مجتمع وسياسة** ، الصراع بين التقليدية والعصرية صراعا تم التعبير عنه بحدة أكثر فى شبه جزيرة العرب ، لأن مقاومة التغيير قد استطال هناك أكثر مما حصل فى أى منطقة فى العالم العربى ولأن التغيير قد جاء حديثا وبسرعة (٢٤) .

إن بدو عمان الوسطى ، فى مواجهتهم المفاجئة للقرن العشرين . يبدو أنهم تفاعلوا مع هذا التغيير السريع الحديث بالطريقة الوحيدة المتاحة لهم . فمن الناحية الاقتصادية أظهروا قابلية للتكيف وبدوا أكثر استعداداً للتجاوب مع كل جديد .

وبعد أن استغلوا الدخل النقدى الجديد استغلالا تاما من فرص

العمل التى أتاحتها لهم الشركة انتقلوا بسرعة الى الحقول المرتبطة بطريقة حياتهم التقليدية ، وهم على خلاف كمعظم المجتمعات المتنقلة •

لم ينفق سوى القدر اليسير على الأدوات والأمتعة المنزلية وبنـــاء المأوى • لقد اكتشف البدو منذ وقت طويل أن المأوى فى الصحراء لا يتحقق بجدران مغلقة ، وانما يستمد من الظل ــ سواء تحت خيمة أو شجرة أو تحت حافلة طراز بدفورد •••

إن ما تطور وتوسع هو النقل والتجارة مع دول الخليج التى كانت دائما على هامش عالمهم • ولقد أصبح من الشائع فى العقد المنصرم رؤية البدوى مستقلا سيارة تويوتا أو داتسون وحافلات طراز بدفورد تعبر الأرض الجرداء من مستوطنة الى أخرى محملة بالسلع الزراعية أو الرعوية للبيع أو بسلع غربية مشتراة حديثا •••

وإلى جانب ذلك شاع استخدام مضخات الديزل فى بساتين النخيل البدوية فى عبرى وآدام وسناو •

حتى محطات البنزين أصبحت ملكا لبعض الأغنياء من البدو مثل محطة الحرسوس فى « حيما » ولعل هذا التكيف الاقتصادى قد انبثق مع جميع الفرص الجديدة التى توفرت •

إن العالم مفتوحة أبوابه على مصاريعها لجميع هؤلاء الذين يرغبون فى الافادة منه دون أى عائق أو تعكير نمط حياة تقليدية •

ولكن على الجانب السياسى ، ساد موقف مختلف الى وقت غير بعيد ، إن شركة البترول ، ثم الحكومة بعد عام ١٩٧٠ ، دخلت عمان الوسطى بمصلحتين كبيرتين كان لهما أثر على القبائل البدوية الرعوية •

أولا — إن الشركة عمدت الى انشاء حدود ثابتة مستقرة لملائمة أنماط الاستخدام حسب نظامها القانونى والبيروقراطى •

وثانيا — كان عليها أن تختار ، وفى بعض الحالات اختارت لنفسها أفرادا موثوقا بهم من كل قبيلة للتصرف فى استئجار العمال •

كان نشوب صراع ذى أبعاد كبيرة أمرا حتميا ، حينما تكون المسألة متعلقة بانشاء حدود ثابتة • أن المنطقة التابعة لقبيلة بدوية رعوية هى منطقة مطاطة نظرا لطبيعة وطريقة الحياة • وهذه المنطقة معرضة للتغيرات والتعديلات التى تعكس علاقة القبيلة بالقبائل الأخرى والدائرة المناخية وإن حق استغلال الأرض والملكية غالبا ما يعتبران شيئا واحدا بالنسبة للبـــدو •

ولكن مع دخول مؤسسة التنمية البترولية الى المنطقة ، وجدت القبائل البدوية أن تفسيرا ثابتا للسهول يمكن أن يكون ذا فائدة •

لقد كانت مرونتهم العادية وقابليتهم للتكيف لا طائل منهما • ولقد وجدت نفسها محصورة داخل تفسير واحد • مهما كانت الدائرة المناخية أو العلاقات بين القبائل •

إن اختيار الشيوخ القبليين الذين أشرفوا على احتياجات الشركة للعمـــال واستبقاءهم لم تكن مهمة صعبة كما جاء فى تاريخ العقـــدين المنصرمين •

ولو كانت الشركة مستعدة لتكييف نفسها حسب المصائر السياسية للزعماء القبليين • واستخدام هؤلاء الذين هم فى السلطة • وطالما أنهم يمارسون هذه السلطة ، لكان فى الامكان التغلب على كثير من الصعاب التى واجهتها الشركة • على أن الشركة لم يكن لديها الوقت الكافى أو الموارد للحكم بدقة على المستقبل السياسى الدائم التغير لمختلف الشيوخ القبليين •

وحينما كانت الشركة « تتبنى » فردا من الأفراد كانت تحـاول استبقاءه فى مركز سلطة بأى وسيلة فى متناول يدها • وإن حاجة الشركة هذه للمحافظة على علاقات طويلة المدى مع شيوخ العمل والملاحظين العماليين قد أثرت تأثيرا سيئا على التنظيم السياسى القبلى وأصبحت الارتباطات مجمدة وصارمة •

ما هى النتائج التى ينطوى عليها المستقبل ؟ هل هناك أمل فى أن يواصل هؤلاء الناس تكييف عالمهم البدوى الرعوى البالغ المرونة حسب المطالب التى تفرضها عليه قوى خارجية حسب نظامه ؟ •

أو هل جرهم عنكبوت القوى الاقتصادية والسياسية الحديثة وألقى بهم فى خضم العناصر الحتمية لمجتمع مستقر عصرى ؟ •

هل ستغريهم عوامل الاسكان الزهيد التكاليف والعمالة المنخفضة الأجور فى النهاية بدخـول المراكز الحضرية ، وبذلك تتضخم صفوف الفقراء والمحتاجين ؟ •

إن هناك أملا فى أنه مع تخطيط مستنير سيجرى تشجيع التكيف المبدع الذى يكون أحسن ملاءمة لادراكهم احتياجاتهم لموارد كثيرة مثل الخدمات الصحية المتنقلة والتسهيلات التعليمية المتنقلة وفرص الرعاية .


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص :

ملاحظـــــــات

١ — ب . و . انجليش ، « الحضريون ، الفلاحون ، والبدو : ثالوث الشرق الأوسط » . جريدة الجغرافيا ، ١٩٦٦ ، ص : ٥٤ .

٢ — ج . ى . ويلكنسون ، « أصول الدولة العمانية » ، **شبه جزيرة العرب : مجتمع وسياسة** ، ديريك هوبوود ، المحرر جورج الان ويونوين ، لندن ، ١٩٧٠ . ص ٦٧ — ٧٣ .

٣ — **نفس المصدر** ، ص . ٧١ .

٤ — **نفس المصدر** ، ص : ٧١ — ٧٣ .

٥ — ب . توماس : « أربعة السن غريبة من جنوب شبه الجزيرة العربية — مجموعة الحضارة » ، « **حيثيات الأكاديمية البريطانية** ، سبتمبر ١٩٣٧ .

٦ — ج . ب . كيلى : « سيادة الغضب : قبائل وسياسة ودين فى عمان وعمان المحايدة » ، **شبه جزيرة العرب : مجتمع وسياسة** ، لندن ، ١٩٧٠ ، ص ١١٦ .

٧ — **نفس المصدر** : ص ١١٧ .

٨ — **نفس المصدر** : ص ١٢٦ .

٩ — **نفس المصدر** : ص ١٢٩ .

١٠ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **تقرير وات** ، ١٩٥٧ .

١٢ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية : الانقسام القبلى فى عمان ، سبتمبر .

١٣ — نفس المصـــدر .

١٤ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **ملف ظفار ، ديسمبر ١٩٧٢** .

١٥ — ب . توماس ، « المناطق الحدودية الجنوبية الشرقية للربع الخالى » **الجريدة الجغرافية** ، مارس ١٩٢٩ ، ص ٢٠١ .

١٦ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **ملاحظات على مسائل بحثت فى صلالة فى ٢٧ — ٢٨ سبتمبر ١٩٦٧ بين السلطان سعيد بن تيمور ومستر ف . هيوز** ، وحفظت فى الملف فى يناير ١٩٦٨ ، ص ٥ .

١٧ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **ملف الحرسوس** ٣ — ١٥ أول يونيو عام ١٩٥٩ .

١٨ — ، أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، يناير ١٩٦٨ ، **العمل المشار اليه** ص ٥ .

١٩ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **تقرير ازكى** ، يونيو ، يوليو عام ١٩٧٤ ، ص ٣ .

٢٠ — نفس المصـــدر .

٢١ — نفس المصـــدر .

٢٢ — أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، **تقرير الشئون البترولية** ، سبتمبر عام ١٩٧٠ .

٢٣ ــ أبحاث مؤسسة التنمية البترولية ، تقرير ازكى ، يونيو ــ يوليو ، عام ١٩٧٤ ص ٤ .

٢٤ ــ د . هوبوود ، المحرر ، **شبه جزيرة العرب : مجتمع وسياسة ،** جورج الان ويولوين ، لندن ١٩٧٠ ، ص ١٤ .

———— * ————

مراجـــــــــع

بيركس ، ج :

١٩٦٧ « سكان الشوادى فى عمان الشمالية : مجتمع رعوى فى مرحلة انتقال » . فى جريدة الدراسات العمانية ، مجلد — ٢ ، سلطنة عمان .

شـــطى ، ر :

١٩٧٢ « القوى الانشائية للبدوية الرعوية فى جنوب غرب آســـيا » **فى التطور والتغيير** ، مجلد — ٤ ، لاهاى .

١٩٧٧ « الأرض والزعماء وسيارات الليموزين » **الأمير والشـــيخ — الأثنولوجيا** (علم الأعراق البشرية) بتسبرج .

انجليش ، ب و :

١٩٦٦ « الحضريون ا والفلاحون ، والبدو ، ثالوث الشرق الأوسط » فى **جريدة الجغرافيا .**

هدلى ، د . :

١٩٧٠ **الدول المحايدة** . لندن : جورج الان ويونوين ليسيتد .

١٩٧٧ **عمان ونهضتها** . لندن : ستراس انترناشونال .

هوبوود ، د . :

١٩٧٢ **شبه جزيرة العرب** : مجتمع وسياسة : جورج الان ويونوين .

كيلى ، ج . ب :

١٩٧٢ « سيطرة الغضب : قبائل ، وسياسة ، ودين فى عمان وعمان المحايدة . **فى شبه جزيرة العرب : مجتمع وسياسة** ديريلى هوبوود ، لندن ، جورج الان ويونوين .

لوريمير ، ج . ح :

١٩١٥ **جريدة الخليج الفارسى ، عمان وأواسط شبه جزيرة** العرب ، كلكتا ، المطبعة الحكومية (الطبعة الثانية عام ١٩٧٠) .

مايلز ، س . ب :

١٩٦٦ **بلدان وقبائل الخليج الفارسى** ، لندن : فرانك كاس وشركاه ، الطبعة الثانية .

موريس ، م . :

١٩٨٠ مجموعة مذكرات لم تنشر ، الكتاب الثانى ، الحرسوس سانت اندروز .

بيترســـون ، ج :

١٩٧٨ **عمان فى القرن العشرين : الأسس السياسية للدولة** الناشئة ، لندن . كروم هيلم .

التنمية البترولية (عمان) ليميتد :

١٩٤٨ — أبحاث غير مفهرسة عن القبائل والجيولوجيا .

١٩٧٥ — وسياسة استخدام العمال . منها الفلاح : مركز استعلامات مؤسسة التنمية البترولية .

———— * ————


رأس الخيمة
ايران
الخليج العربي
دولة الامارات العربية المتحدة
خور دكان
الفجيرة
خليج عمان
صحار
البريمي
صحم
الحابورة
الباطنة
الظاهرة
الجبل الأخضر
مسقط
وادي العين
وادي أسود
وادي الصيرق
وادي مسلم
عبري
سمايل
دحلة
نزوى
أزكي
حمراء الدروع
جعلان الشرقية
رأس الحد
سيفو
سوج
آدم
عفار
جبل فهود
رمال وهيبة
جانين
رملة الغربانيات
رملة الغافة
المملكة العربية السعودية
الحلانيات
الخلوف
جزيرة مصيرة
رملة السحمة
وادي مقشن
جدة الحراسيس
رأس الدقم
البحر العربي
سلطنة عمان
الحوارة
رأس مدركة
ظفار
حضرموت
حبل القرا
مرباط
صلالة
جزر كوريا موريا
٥٠ ٠ ٥٠ كم

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٢٠٠٨
الرقم الخاص : ٨٠٠

محتويات المجلد السادس

الموضوع	الصفحة
المعاملات بين الصين والعرب فى العصر الوسيط • • بروفسور زانج هو	٥ — ٥٧
دراسة ميدانية لمصادر الثروة (مشروع الخابورة) • دكتور ر • داتون	٥٩ — ١٠٩
النشاط الملاحى العمانى على الساحل العربى الجنوبى • بروفسور سارجنت	١٠١ — ١٥٧
خزينة المسكوكات بسيناو من العهد الاسلامى الأول • مستر لوبك	١٥٩ — ١٧٩
بعض الملاحظات عن البرتغاليين فى عمان • • • • بروفسور بكنجهام	١٨١ — ٢٠١
ملاحظات جديدة عن الصلات بين العمانيين والبرتغاليين بروفسور بوكسر	٢٠٣ — ٢١٨

المرضـــــــــوع	الصفحة
المعارف الدينيه فى عمان الداخلية • • • • • •	٢١٩ — ٢٤٦
بروفسور إكلمان	
بدو عمـــان الوســـطى • • • • • • • •	٢٤٧ — ٣٠٣
الأستاذة نور الضحى الشطى	

رقم الايداع ٣٧٦٧ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب